جامعة الجزائر
معهد التاريخ

العصبية القبلية

وأثرها على النظم والعلاقات في المغرب الإسلامي

(من القرن السادس إلى القرن التاسع الهجري)

بحث قدمه الطالب
بوزياني الدراجي
لنيل درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي
تحت إشراف
الاستاذ الدكتور لقبال موسى
استاذ التاريخ الاسلامي
بجامعة الجزائر

السنة الدراسية

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر و عرفان

إن المقام يستدعي التوقف لحظة هنا، لتقديم آيات الشكر والإمتنان إلى أستاذي الفاضل الدكتور موسى لقبال على ما أسداه إلي من عون ومساعدة من خلال توجيهاته القيمة التي كان لها الفضل الأكبر في إنجاز بحثي هذا

الطالب
بوزياني الدراجي

الموضوع وأهميته :

عندما كان الباحث منكبا على اعداد رسالته الاولى حول موضوع نظم الحكم والرسوم بدولة بني عبد الواد تبين له بأن ظاهرة القبلية في بلاد المغرب الاسلامي وقفت حجر عثرة في مسيرة الدول التنظيمية ،بل كانت معول هدم وتدمير لكـــل خطوة حضارية تقوم بها أية دولة في هذه الديار. وقد اندهش الباحث أيضـا لذلك التفكك الاجتماعي والانحلال السائد في المجتمع المغربي بكامله ، بسبـب القبلية المهيمنة على هـذه الربـــــوع.

ووجدت تساؤلات الباحث هنا جوابا صادقا وشافيا من طرف استاذه الفاضـل الدكتور موسى لقبال ،الذي عَرَّفَ بالمصطلح وحدد الداء ، فكانت الانطلا قـة الجديدة بتشجيع منه،فو اصل الباحث مسعاه بتوجيه من استاذه. وبذلك تحـدد موضوع هذا البحث. وهو موضوع العصبية القبلية وأثرها على النظم والعلا قـات في المغرب الاسلا مـــــي .

وعليه فان هذا البحث يعالج موضوعا تاريخيا اجتماعيا ، خلال فترة زمنيـة مظلمة انحدر فيها المجتمع المغربي الى درجات دنيا ،كاد الفناء فيها يحتويــه. كل ذلك بسبب سلبيات قاتلة ،أخذت العصبية القبلية منها حيزا كبـيرا .

وتعتبر الفترة الزمنية المحددة كمجال لهذا البحث فترة في غاية الأهميــة والخطورة معا ،لانها تسجل التقهقر الاجتماعي ، والفكرى ،والسياسي في البـلاد الاسلامية كافة ، وليس في المغرب الاسلامي فحسب. ففي المشرق تضعضع الأمـــر واستفحل الداء في جسم الخلا فـة العباسية ، وتسرب اليها الوهـــن

والضعف ، وظهرت عليها بوادر الانحلال والتفسخ ،كما هبت ريح الفساد في حياض الدولة الفاطمية بمصر ، اذ بدت عليها مظاهر الشيخوخة .

أما في المغرب الاسلامي والاندلس فلم يعرف هذا الجزء من الوطن الاسلامي -خلال هذه المدة- سوى فترات قصيرة من الهناء والاستقرار ، وان كان قد عرف بعض الازدهار السياسي ،والثقافي في مراحل قصيرة من عهد الموحدين .

وأسباب هذا الانحطاط عديدة ومختلفة ، ويمكن الاقتصار في هذا المجال على ذكر الاثر السلبي الذى تمثله العصبية القبلية في حياة الدول واستقرارها ، وتطور المجتمعات وجمودها ،ان هذا الاثر سينجلي أمره بدون شك ضمن فصول البحث .

وعليه فان موضوع العصبية القبلية في هذه الاطروحة سيعالج من خلال تأثيرها سلبيا وايجابيا على النظم عامة ، ونظم الدولة بالخصوص وذلك في بلاد المغرب الاسلامي ، وهذا يجر الى الحديث عن القبائل الخاضعة لدول المغرب ، والخارجة عن نفوذها ، وعلاقات القبائل فيما بينها .

ان اختيار موضوع العصبية القبلية املته حوافز عديدة ، أهمها :الادراك العميق لما لهذه الظاهرة من خطورة، لان هذه الظاهرة هيمنت على الحياة الاجتماعية بالمغرب الاسلامي منذ حقبة موغلة في القدم . ولكنها غدت بمرور الوقت مرضا مزمنا امتدت خطورته الى مراكز الحياة لهذا المجتمع .

والاخطر من ذلك كله أن هذه الظاهرة ما زالت سائدة في مجتمعنا حتى هذه الايام ،بل هي مستولية على عقول فئات كثيرة من مجتمعنا الحديث ، وهي ظاهرة ضاربة جذورها في أعماق المجتمع المغربي كافة ،وهكذا تفشى هذا المرض في جسم هذه الامة ، بحيث أصبح علاجه يستدعي تجنيدا عاما للقوى الحية ذات

النضج والوعي الصادقين لهذه الأمة .

أن الدارس لتاريخ المغرب الاسلامي – في العصور الوسطي – سيتألم حتما للتفكك الاجتماعي، والانحلال الذى تميز به هذا المجتمع حتى اضحي شراذم وعصابات متفرقة ومتناحرة ،تفتك ببعضها بعضا . كما سيندهش الدارسون أيضا لذلك السيل من الفتن والاضطرابات التى تتوالى، واحدة تلو أخرى ،بحيث يمكن اعتبار تاريخ هذا الوطن بمثابة تاريخ للانشقاقات والخصومات والفتن، والاقتتال الدامى ،ذلك أنه ما أن تخمد معركة حتى تشتعل أخرى .. وربما التهبت العشرات من الوقائع فى لحظة واحدة .. وذلك كله قد يكون بسبب أمور تافهة للغاية ،بحيث لا تستدعي تلك الكراهية الملزمة للاقتتال ،واهدار الدماء بين فئات المجتمع الواحد ،وأفراد الفئة الواحدة .

والأغرب من ذلك كله أن اعلان الهدنة أو العودة الى حياة السلم ونسيان الخصومات ليس ببعيد ولا مستحيلا ،فقد يتم ذلك كله بسهولة مذهلة ، ودون انتظار طويل ،وبمنتهى البساطة ،على الرغم من الدماء التى اهريقت والارواح التى ازهقت .

وهذا أن دل على شيء فانما يدلّ على أن أسباب الحرب من التفاهة بمكان ،حتى أن ايقافها لا يصعب ولا يستبعد .. وأن كانت بعض الاضطرابات والفتن تحدث بين دول وامارات فان جلها ينشب بين القبائل والعشائر التي كانت نظمها واعرافها سائدة فى هذه الربوع . وحتى حروب الامارات والممالك فان بعضها يحدث نتيجة لاسباب تقف خلفها القبائل والعشائر ، فتغرق تلك الدول فى ويلات الحرب التى تطيح ببعضها ،وتقيم بعضها الآخر .

وهكذا لم تعرف هذه البلاد طعم الاستقرار والهناء طوال قرون، بسبب التركيبة الاجتماعية التى تعذر على الأجداد أن يتخلصوا منها . وكان ذلك الامر ممكنا لو ابتكروا نظما مخالفة للنظم القبلية ،كما حدث لمجتمعات انسانية أخرى : كالمجتمع الاغريقي ،والمجتمع الروماني ،والجرماني وغيرها ....

وعليه فان اسقاط النظم القبلية المتحجرة أمر لابد منه لحفظ كيان الدولة ، أي دولة ، لأن النظم القبلية تتناقض مع نظم الدولة ، بل ثبت بفضل استقراء النصوص التاريخية المختلفة بأن ثمة صراعا دائما بين النظامين ، ولاينتهي ذلك الصراع الا بتغلب أحد الطرفين على نقيضه (الدولة أو القبيلة) .

أن النظام القبلي في حد ذاته (من حيث الهيكلة والتنظيم) لا يشكل خطرا أساسيا على الدولة . بل الخطر كل الخطر يكمن في تلك الرابطة المعنوية ، والروح الجياشة التي يسميها ابن خلدون ((العصبية)) .. تلك الروح التي تلازم القبلية ، والعشائرية فتقوى لحمتها ، وتشد بين فئاتها ، فتغدو بذلك قوة دفاعية وهجومية ، تتسلح بها القبائل ، والعشائر ، وتقاوم بواسطتها النظم الغريبة عنها ، والمتمثلة في نظم الدولة .

ومرد ذلك أن الدولة منذ ظهورها الأول في المجتمع الانساني وجدت مقاومة شديدة من طرف التنظيمات الاجتماعية التي سبقتها (النظم القبلية) بسبب التناقض والتعارض في المصالح . وعادة يستفحل الصراع بين نظم الدولة والنظم القبلية عندما تحاول الدولة احتواء القبائل والعشائر ، واحلال نظامها مكان النظام القبلي ، وادماجها ضمن نظم الدولة ، لتوحيد مجهود المجتمع وضبط فئاته . وهنا تصطدم الدولة بروح الترابط والنعرة على النظام القبلي ، ذلك النظام الذي لايلزم أفراد المجتمع بواجبات مادية ومعنوية كما هو الحال بالنسبة للدولة التي تثقل عليهم بنظمها : الادارية ، والمالية ، والعسكرية .

وهكذا انتهي الصراع في المجتمعات التي واكبت سير الحضارة بسيادة نظم الدولة ، وادماج القبائل والعشائر ضمن كيانها ، الذي ينبني على مبدأ المواطنة .

وذلك ما يمكن تقصيه في المجتمعات المتحضرة قديما : كمصر الفرعونية ، والفرس ، والاغريق ، والرومان وغيرها ..

وبالمقابل عجزت مجتمعات أخرى عن التحول من النظم القبلية الى نظم الدولة ، على الرغم من اقامتها لدول قوية ، ولكنها كانت تفتقر الى الاستقرار والقص

الطويل ، بسبب التركيبة القبلية التي ظلت سائدة ضمن تلك الدول ، وذلـــك ما تتميز بــه المجتمعات : العربية ، والامازيغية ، والتركية ، والكرديـــة ، والمغولية ، بالاضافة الى مجتمع الهنود الحمر الذى خصه الانثروبولوجـــي الامريكي هنري لويس مورغان . (1234هـ/1818م-1299هـ/1881م) . بدراسة اجتماعية ميدانية هامة كانت مصدر الهام لكثير من الباحثين . من بينهم ماركس وانجلس ، حيث بهرتهما النظم القبلية في شكلها التنظيمي ، وفـــي طابعها الديمقراطي نظرا لكونهما يتطلعان الى العودة بالمجتمع الانسانـــي الى المنطلق الأول الذى تذوب فيه الدولة ونظمها ، غيرانهما لم يعيـــرا اهتماما للعصبية التي تعادى كل تطور حضارى، وتقدم انساني ، وتفســـد كل تنظيم لا يتجاوب مع أنانية العشائرية و تقاليدها المتحجرة ، بل وانانيـــة الفرد المعترف بها ضمن العصبية .

وهذا الامر أكتشفه العلامة ابن خلدون من خلال تأمله في المجتمـــع العربي والامازيغي ، وبفضل اطلاعه الواسع على الآداب العربية التي تزخـــر بالأمثلة والشواهد التي تجلي ظاهرة العصبية في أوضح صورها . لأنّ متابعـــة جذور العصبية في المجتمع العربي تسهل على الدارسين لآدابه المشحونـــة بالادلة والشواهد ، ذلك أن هذا المجتمع وأن قامت في ربوعه دول عديـــدة تميزت بالقوة و المآثر العظيمة الا أنها عجزت عن الصمود والدوام طـــويلا ، بسبب الصبغة القبلية وروح العصبية التي لم تتمكن من التخلص منها .

وبظهور الاسلام شرعت الدولة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلـــم وعهد خلفائه الراشدين في كبح جماح العصبية القبلية ، وحصرها في جوانبها الايجابية فقط ، تماشيا مع تعاليم الدين الحنيف . وتم ذلك بشكل هـــادئ ، قصد التدرج بالمجتمع الاسلامي لكي يهضم الصيغة الاجتماعية الجـــديدة المستوحاة من القيم الاسلامية ، دون أن تتعرض فئاته أو أفراده الى صدمـــات نفسية قد تضر بالجميع . ولكن قيام الدولة الأموية أفسد المسيـــرة .

ذلك أن تشجيع أمويها لظاهرة العصبية القبلية الموروثة عن العهد الجاهلي ، اطلق عقالها ، واعادها الى مجراها الأول الذى تميزت به في العهد الجاهلي .

كان ذلك غفلة منهم عن الاخطار التي تفرزها العصبية ، وجهلا منهم بالتناقض الحتمي بين النظم القبلية ونظم الدولة التى يرغبون تمتين صرحها ، ومما زاد الأمر خطورة أن تلك الظاهرة قد تطورت وانتشرت بشكل فاق عهدها الأول أيام الجاهلية . وهكذا شاء القدر أن يثبت خطأ الأمويين ، اذ كانت العصبية معولا حادا هوى على أركان الدولة الأموية فاطاح بكيانها .

وعليه فان استخلاص العبرة واجب وحتمي على الجميع ، لكي يتجنب المجتمع الحالي أخطار هذه الظاهرة المرضية ، لأنه لا يمكن تشييد دولة معززة الجانب قوية الاركان متينة البنيان في ظل العصبية القبلية المعادية لروح الدولة ونظمها ، والمخلة بفكرة الوطن الموحد الخاضع للقوانين .

وبالتأمل العميق في ظاهرة القبلية بالمغرب الاسلامي وفي سلبياتها ومخاطرها تجاه نظم الدولة . . ستتضح ضرورة اعداد دراسة كهذه ، اذ بواسطتها ، وبواسطة مثيلاتها يمكن استخلاص العبرة من الماضي ، بهدف الوقاية والحماية في الحاضر ، وذلك بالحث على ازالة هذه الظاهرة المرضية المزمنة التى انهكت مجتمعنا ، ومنعته من اقامة دولة قوية ودائمة تستطيع نشر حضارة مزدهرة ومتواصلة لا تزول ما بقيت الدولة ، ودام وجودها .

والقبلية ـ في الحقيقة ـ ليست هي المقصودة لوحدها في هذا البحث ، بل يستهدف البحث اساسا ظاهرة العصبية التى واكبت القبلية عبر العصور ، حيث أن العصبية هي سمة اساسية في المجتمعات القبلية . وبدون العصبية تفقد القبلية حيويتها وتأثيراتها ، اذ تصبح القبلية في هذه الحالة عبارة عن هيكلة وتنظيم عديم الأثر .

وكلمة عصبية في مفهومها اللغوى تدل على التمسك بالانساب،والنعرة في سبيلها . وهذا بالطبع يستدعي التحيز والتفاخر،وبالتالي الخصومات والمنازعات ، والاقتتال الذى يؤدى الى تفرقة الصفوف ،وتفتيت الجهود .

وفي لسان العرب عُرِّفت العصبية على اساس أنها رابطة دموية ، وتلاحم للارحام وتكاتف وتناصر: ((عَصَبَةُ الرَّجُلِ : بَنوه وقرابتُه لأَبيهِ. والعَصَبَةُ: الَّذِينَ يَرِثُونَ الرَّجُلَ عَنْ كَلاَلَةٍ من غيرِ والدٍ وَلاَ وَلَدٍ ... وَكُلُّ شَيْءٍ اسْتَدَارَ بِشَيءٍ فَقَدْ عَصَبَ بِهِ ... وَيُقال : عَصَبَ القَوْمُ بِفُلاَنٍ أَىْ اسْتَكَفُّوا حَوْلَه ...)) (1) .
((وَالتَّعَصُّبُ مِنَ العَصَبِيَّةِ . وَالعَصَبِيَّةُ : أَنْ يَدْعُوَ الرَّجُل إِلَى نُصْرَةِ عَصَبَتِهِ، وَالتَّألُّبِ مَعَهُمْ، عَلَى مَنْ يُنَاوِيهِم ظَالِمِينَ كَانُوا أَوْ مَظْلُومِين . وَقَدْ تَعَصَّبُوا عَلَيْهِم إِذا تَجَمَّعُوا ،فإِذَا تَجَمَّعُوا عَلَى فَرِيقٍ آخر قيل : تعَصَّبُوا ، وَفي الحَدِيثِ: العَصَبِيُّ مَنْ يُعِينُ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ . العَصَبِيُّ هُوَالَّذِى يَغْضَبُ لِعَصَبَتِهِ وَيُحَامِي عَنْهُمْ ... وَفي الحَدِيثِ: لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ أَوْ قَاتَلَ عَصَبِيَّةً. العَصَبِيَّةُ وَالتَّعَصُّبُ: المُحَامَاةُ وَالمُدَافَعَةُ)) (2) .

ان العصبية بالمفهوم الاصطلاحي تتجاوز مدلولها اللغوى ، فهي عند ابن خلدون لا تقتصر على النسب والرابطة الدموية فقط ،بل تتعدى كل ذلك الى الحلف أو الولاء ،لان النسب امر وهمي لا حقيقة له . والعصبية قوة طبيعية متطورة ومتحركة غير ساكنة . فهي المولد الدائم للصراعات والمنازعات، ولا ترضى بصورة واحدة ، اذ هي متعددة الوجوه .

ويشتد مفعول العصبية كلما ضاق مجال رباطها ، فهي قوية في الاسرة أكثر من قوتها ضمن العشيرة . وقوتها في العشيرة أشد مما تكون عليه في

(1) ـ ابن منظور جمال الدين : لسان العرب ،ج :2 ،ص: 791 .
(2) ـ نفسه ، ج :2 ، ص: 792 .

القبيلة .. وهكذا كلما بعدت اللحمة ضعفت حدة العصبية .

والعصبية تضغط نفسيا على الفئات التى تهيمن عليها ،فتدفعها لتحقيق ما هو أرقى وأسمى فى مجال السلطة . فالعصبية كما هو معلوم تجرى نحو الملك ،لأنه غاية لها . ولكنها تعجز عن الاحتفاظ به ،بسبب ما يكمن فيها من سلبيات،وبسبب ظهور عصبية أخرى منافسة لها .

وكل هذا ــ طبعا ــ لا يتحقق الا بواسطة القوة والغلبة . والقوة والغلبة تزرعان خلفهما القتل والدمار ،واندثار المآثر الحضارية ،وزوال المعالم العمرانية المتطورة .

واذا كانت العصبية تتطلع الى الملك كغاية لها،فانها بالتالى عدوة للملك القائم ،والدولة الماثلة . والعصبية ــ في الحقيقة ــ عامل قلق واضطراب لكل دولة ترغب فى الاستقرار والتحضر . والعصبية وأن كانت تسعى فى مسارها المحتوم الى الحضارة ــ عبر الدولة ــ التى ستقيمها ــ فانها بالتالي معول يهدم الحضارات السابقة ،بل يتعذر ازدهار الحضارة فى الدولة المستجدة الا بعد ضعف عصبيتها وفساد أمرها . والبيئة الصالحة للعصبية ليست بيئة المدينة المتحضرة ،بل بيئة البادية المتشبعة بروح التمرد والعصيان والحرية التى لاقيود لها .

فمن خلال تعريف العَصَبِيَّةِ يتبين بانها تختلف عن معنى العَصَبَة، لأن العَصَبِيَّةَ فى الحقيقة هي روح العَصَبَة ومحركها الحيوى . ومع هذا فان الباحث يستعمل مصطلح ((العَصَبِيَّةِ)) للدلالة على مفهومي العَصَبَة والعَصَبِيَّة معا ،وذلك مسايرة منه لاسلوب ابن خلدون الذى كان يطلق كلمة العَصَبِيَّةِ على المفهومين . وقد اعتمد هذا الاسلوب لترسيخ الفكرة فى الاذهان ،وتسهيل استعمالها . لأن المعنيين هنا متلازمان ومتداخلان بشكل يصعب الفصل بينهما .

صعوبات البحث :

واعداد هذا البحث لم يتم بسهولة ويسر ،نظرا للصعوبات التى

يرجع أغلبها الى عدم توافر المصادر والمراجع اللازمة . واذا ما وجدت فان التعقيدات والعراقيل الادارية فى المكتبات تعرقل الباحثين عن الاستفادة منها . يضاف الى ذلك أن العلاقة بين موضوع العصبية القبلية وموضوع الدولة ونظمها لم تستوف حقها من البحث والدراسة بعد ... وما جاء فى مقدمة ابن خلدون وكتاب بدائع السلك لابن الازرق لا يكفي للاحاطة بالموضوع من جوانبه كافة . كما أن الاشارات العابرة التى وردت فى بعض المصادر الأخرى وبعض المراجع الحديثة ابقت موضوع العصبية القبلية فى المغرب الاسلامي مغلفا بهالة كثيفة من الغموض والابهام . ذلك أن موضوع العصبية درس فى الابحاث التى اهتمت بابن خلدون ،فتعرض أصحابها للعصبية كفكرة ابتكرها هذا العلامة . وفى مراجع أخرى درست العصبية كظاهرة اجتماعية فى المشرق الاسلامي ،أو الاندلس وفى العهد الاموى بالذات . وتميزت تلك الدراسات بطابعها الادبي ،نظرا لما تزخر به المصادر الأدبية من شواهد وأشعار تبلور تلك الظاهرة الاجتماعية وتجليها فى المشرق والاندلس.

كما أن الابحاث والدراسات الاجتماعية والترجمات التى تناولت موضوع العصبية تم اعدادها بمنهج لا يهتم بالاحداث التاريخية ،ولا يلتفت الى الشواهد الممكن تطبيقها على الآراء والنظريات المطروحة . وبقي الأسلوب الاستقرائي غير معمول به فى هذا المجال الهام .

غير أن الباحث - هنا - لا يسعه الا أن ينوه بالفائدة التى اكتسبها من قراءة بعض الدراسات الحديثة ،ذات الطابع الاجتماعي ،والفلسفي والتاريخي التى ابرزت معني العصبية القبلية واثرها الاجتماعي ضمن الدولة ،وضمن القبيلة ،

وسيأتي ذكرها بعد حين .

ومع هذا فان الصعوبات التي اعترضت الباحث قد تم تذليلها بفضل ما قدمه الاستاذ المشرف الدكتور موسى لقبال ، حيث ساعد الباحث -بفضل غزارة معلوماته ، وسعة معارفه ، ودقة ملاحظاته ، وعمق تفكيره - في اعداد هذا البحث الذى كان الاستاذ الفاضل يتتبعه خطوة فخطوة ، مسديا نصائحه ، ومقدما توجيهاته المفيدة ، فكان بذلك كالضوء الذى يكشف الطريق المعتمة ، والضابط لكل انحراف ، والمنقذ من كل زلة . وعليه فانه من اللازم هنا الوقوف وقفة شكر وعرفان للاستاذ الدكتور موسى لقبال الذى تابع عمل الباحث بكل عناية وصبر ، حيث كان يزوده بتوجيهاته الجليلة ، ونصائحه الرشيدة ، اذ كان لا يبخل بوقته الثمين في سبيل تصحيح هذه الدراسة ، واسداء الملاحظة تلو الملاحظة ، فكان -حفظه الله- خير موجه وافضل مرشد . فهو كالمولد يمد الباحث بالطاقة الضرورية لمواصلة العمل بجد ودقة ومواظبة دائمة .

ولا يسع الباحث في هذا المجال الا أن ينتهز هذه الفرصة لكي يشكر كل الذين اعانوه وقدموا له يد المساعدة من قريب أو بعيد ، ويخص بالشكر الدكتور طالب مزاد مدير جامعة وهران للعلوم والتكنولوجيا ، ومحمد الصغير بناني المدير السابق لجامعة الجزائر على المساعدة التي قدماها للباحث بخصوص الترخيص له بتمديد فترة التسجيل . كما يخص بالشكر أيضا الاخوة والاخوات : مولود ايخلاف ، ومبروك سابع ، وأحمد قرشي ، وعيسى بلواضح ، ومداني بختي ، وعبد الواحد هيلالي ، وحسيبة عجة ، ومليكة ابن سعادة ، على معونتهم للباحث في الحصول على بعض المراجع ، وفي طبع الأطروحة .

التمهيد :

يعالج هذا البحث موضوع العصبية القبلية خلال فترة زمنية محصورة بين القرنين السادس والتاسع للهجرة . وكل ما خرج عن هذه الفترة يعتبر تمهيدا وارضية تساعد على بلورة الموضوع واجلاء خفاياه ،حتى يكون شاملا ومتكاملا في خلفياته وجوانبه كافة .

ومن حيث المكان . . فان موضوع الدراسة لايتعدى نطاق المغرب الاسلامي . ولم تجاوز ذلك فمجاله المقدمة وهوامش البحث ،أن لزم الامر لذلك .

ويعود السبب في اختيار الزمان والمكان المذكورين الى الشعور العميق بأن هذه الفترة الزمنية ضمن تلك الربوع تشكل خير مثال للسلبيات التي تفرزها النظم القبلية والعشائرية ، كما تعبر عنها أيضا الاحداث التاريخية آنئذ . حيث انحدرت العصبية القبلية بالمجتمع المغربي آنذاك الى منتهى التعفن ، والتفكك ،والانهيار .

واذا ما ظهرت بعض الايجابيات الصادرة عن العصبية القبلية — خاصة عندما تمكنت العصبيات من تأسيس ممالك عظمى توحدت البلاد بفضلها — فلا يعني ذلك أنها ظاهرة صحية وخيرة ،بل العكس صحيح لأن الظاهرة المرضية الشريرة سرعان ما تغمر الايجابيات وتحتويها ،بحيث تغدو العيوب أكثر من المحاسن .

وأحداث الفترة الزمنية المدروسة ضمن هذا البحث تبدأ بقيام الدولة الموحدية عند بيعة ابن تومرت سنة (515هـ/1121م) وحتى الهجمة الصليبية التي سلطت على موانئ المغرب الاسلامي من قبل الاسبانيين والبرتغاليين ، ويمكن تحديدها بسنة 920هـ/1514م.وذلك قصد بلورة الصورة المخزية والمؤلمة التي رسمتها العصبية القبلية في المغرب الاسلامي . خاصة عندما تتضح العلاقات المريبة التي ربطت بعض القبائل بالغزاة الاسبان والبرتغال . وقد انجر عنها احتلال موانئ عديدة في بلاد المغرب الاسلامي من قبل الصليبيين .

وقد تم تبويب هذا البحث بحيث اشتمل على مقدمة وسبعة فصول وخاتمة . فالمقدمة خصص القسم الاول منها للحديث عن الموضوع وأهميته ، والصعوبات التي واجهت الباحث ، وشرح المنهج المتبع في اعداد البحث ، بينما خصص القسم الثاني منها لنقد المصادر والمراجع . وقد اكتفى الباحث فيه بنقد أهم المصادر والمراجع ، أما البقية فقد تمت الاشارة اليها ضمن القائمة المثبتة في آخر البحث .

وبعدها يأتي الفصل الاول الذى يعالج دور العصبية في قيام الدول وسقوطها ، ونشاط الحضارة وافولها ببلاد المغرب . وقد أعد هذا الفصل لكي يكون أرضية ومنطلقا يساعد على بلورة دور العصبية القبلية أمام نظم الدولة ، وأمام النشاط الحضارى القائم ، وذلك باسلوب استقرائي تعززه الشواهد التي تمكن القارئ من فهم ظاهرة العصبية فهما صحيحا ، لأن الابتعاد عن التجريد سيساعد — بالطبع — على تكوين نظرة عامة توضح الأثر الحقيقي للعصبية القبلية على نظم الدولة سلبا وايجابا ، وذلك طوال الفترة الزمنية التي تسبق مجال هذا البحث . فهذا — بدون شك — سيساعد على توضيح الرؤية بواسطة ما اشتمل عليه هذا الفصل من امثلة وشواهد تم استقراؤها وتعززها بالمقارنات الضرورية .

وبعده يأتي الفصل الثاني الذى يعالج موضوع العصبية القبلية كظاهرة اجتماعية ، وتاريخية . ويشمل هذا الفصل عدة عناصر منها : الحديث عن نظرية ابن خلدون بخصوص العصبية مع بعض المقارنات ، ومقومات العصبية ومظاهرها ، والعوامل المضعفة للعصبية ، ثم نقد نظرية ابن خلدون .

ثم يأتي الفصل الثالث الذى يدرس الملامح العامة للمجتمع القبلي بالمغرب الاسلامي ، وقد اشتمل على عدد من العناصر أهمها : تعريف القبيلة والقبلية ، ثم دراسة مفهوم النظام القبلي عموما ، فالعادات ، والتقاليد القبلية ، ثم العلاقات القبلية داخليا وخارجيا .

وبعد ذلك يأتي الفصل الرابع الذى يبحث في أهم قبائل المغرب الامازيغية منها والعربية . وقد عالج هذا الفصل أصول تلك القبائل ، ومواطنـــها ، والادوار التي قامت بـها في بلاد المغـــرب .

أما الفصل الخامس فيبحث في أثر العصبية القبلية على النظم الاقتصاديـــة ببلاد المغرب . وقد عالج هذا الفصل الادوار التي قامت بها القبليـــة في قطاعات اقتصادية عديدة ، منها القطاع الزراعي ، والرعي وتربية الحيوانات والحشرات ، والصيد ، والتجـــارة .

ثم الفصل السادس الذى يعالج أثر العصبية القبلية على النظم الثقافيـــة والمعتقد الديني . وقد تناول الباحث في هذا الفصل موضوع التعليم بديـار المغرب ، بالاضافـة الى بعض الفنون الادبية والموسيقيـــة .

أما الفصل السابع والاخـير فيدرس أثر العصبية القبلية على النظـــم السياسية والاداريـــة في المغرب الاسلامـــي . وقد اشتمل هذا الفصـــل على حقائق هامة تبرز الادوار الخطيرة التي قامت بها القبائل المختلفـــة في هـذه الديـــار .

ثم تأتـــي الخاتمـة ، وهي حصيلة الاطروحـــة ، اذ تبرز النتائـــج التي تم التوصـــل اليها مـن خلال دراسة الموضـــوع ، وما تم استخلاصه من ملامح قويـــة تستحق التنويـــه ، والتركـيز عليـها .

ويلـــي الخاتمـــة بعـــض الملاحـــق الضروريـــة والخرائـــط والرســـوم التوضيحيـــة ، ثم قائمة بالمصـــادر والمراجع المعتمـــدة ، فالفهـــارس المختلفة : كفهـرس الاعـلام ، وفهـرس القبائـــل ، وفهـــرس الاماكـــن ، وفهرس الموضوعـــات .

هذا ويأمل الباحث في أن يوفقه الله ، ويسدد خطاه ، لكي يشارك فـــي بناء وطنه العزيز بالقلم الذى في يده ، وبالوسائل كافة . لان كتابة التاريخ هـــذا البلاد العظيمة أصبحت ضرورة ملحة . والمشاركون في ذلك يساهمون ـ بـدون ريب ـ في بناء صرح هذا الوطن ، وبلورة شخصيته ، وتأكيد كيانـــه .

وعليه فان الباحث يسعده أن يقدم هذه الاطروحة المتواضعة آمــــلا ومتمنيا أن يساهم ولو بالقليل في العمل العظيم الذي سبقه اليه اساتذتــه الافاضــل ،أولائك الرواد الذين أثروا المكتبة التاريخية في بلادنــــا بالعشرات من الابحاث القيمة التي سلطت الاضواء على جانب كبير من تاريخ المغرب الاسلامي عبر العصور كلهــا .

وبالتالي فان الباحث يلتمس العذر والعفو لما يظهر من تقصيــــر أو سهو أو خطأ غير مقصود في هذه الاطروحة ،فالكمال للــــــه سبحانه وتعالــــى .

ـ نقد المصادر والمراجع ـ

موضوع العصبية القبلية في المغرب الاسلامي متناثر ضمن عدد من المصادر والمراجع ، وقد ورد الموضوع في أغلب المصادر عرضا ودون تركيز أو ترتيب . وأهم المصادر التي عالجته بشكل دقيق ، وبحثت الى جانبه موضوع الدولة ونظمها ، هما مصدران أساسيان :

1 ـ مقدمة ابن خلدون : كتبها أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، (توفي سنة 808هـ/ 1405م) ، والنسخة المعتمدة هنا هي التي طبعت في القاهرة بالتزام من لجنة البيان العربي ، وقام بتحقيقها الدكتور علي عبد الواحد وافي ضمن أربعة أجزاء (سنة 1378 هـ / 1958م) . وهي عبارة عن المجلد الاول من الكتاب ، الذي يؤرخ للعرب والعجم والبربر المسمى بـ ((كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)) . والمواضيع التي تناولها ابن خلدون في المقدمة هي : فلسفة التاريخ ، والعمران البشري ، وعوارضه المتمثلة في الملك ، والكسب والمعاش والصنائع ، والعلوم . وتعتبر المقدمة أول المصادر وأهمها بالنسبة لهذا البحث ، لأنها انفردت بمادتها التي تجعل من العَصَبِيَّة محركا رئيسيا للعمران ولحياة الدول . وقد ابتكر ابن خلدون ضمن مقدمته طريقة فريدة وطريفة في تفسير موضوع العصبية . وبذلك توصل الى اكتشاف نظريته الشهيرة بخصوص العصبية وعلاقتها بالملك ، وبالدولة ، وبالعمران ... الخ .

ومقدمة ابن خلدون هذه تعتبر اشمل وادق المصادر التي تبحث موضوع العصبية . حيث اشتملت على فصول كثيرة خصصت لهذا الموضوع ، كما اشتملت على فصول اخرى عالجت الموضوع عرضا ، وذلك عندما اشار ابن خلدون في سياقها الى موضوع العصبية ، دون تركيز عليها . لأن هذه الفصول الاخيرة في الحقيقة كانت مخصصة لمعالجة موضوع الدولة وطبيعتها ، وتشتمل على افكار في منتهى الأهمية ، وتخص الدولة ، ونشأتها ، وطبيعتها .

وتطورها ، ونظمها ، وسقوطها ... الخ . ومن خلال ذلك تبرز العصبية كظاهرة اجتماعية فعالة في بناء الدولة وسقوطها ، وقد استفاد الباحث منها فائدة كبيرة لا تعادل لها أي فائدة أخرى أتته من المصادر الاخرى .

واذا كان بعض المؤرخين والباحثين يواخذون عبد الرحمن بن خلدون على آرائه المتعلقة بالعصبية القبلية ،منكرين امكانية تعميمها ،وتطبيقها على الشعوب كافة ، فانهم مع ذلك يعترفون جميعا بصحة استقراء ابن خلدون لظاهرة العصبية عند بعض الشعوب آنذاك : كالعرب، والامازيغ على سبيل المثال . وهذا بالطبع هو بالذات ما يهم هذا البحث . لان موضوع العصبية هنا حُصِر بهاتين الفئتين . وعليه فان تبني آراء ابن خلدون في هذا المجال لا تشوبه أية شائبة تذكر ،ولا يبعث على الحرج . وعليه فان مقدمة ابن خلدون تعتبر أهم مصدر وجد حتى الآن ،عالج موضوع العصبية القبلية في المغرب الاسلامي .

2 — بدائع السلك في طبائع الملك : لابي عبد الله بن محمد بن علي بن محمد ابن الازرق الحميرى الاصبحي الاندلسي ، (توفي سنة 896 هـ/1490م) . وهو في جزأين ، وحققه محمد بن عبد الكريم بالجزائر (سنة : 1397 هـ/1976م). وقد نشرته الدار العربية للكتاب ، (ليبيا ـ تونس عام 1398 هـ/1977م) . وقام صاحب هذا الكتاب بشرح وتلخيص مقدمة ابن خلدون ، مضيفا اليها ما استخلصه من كتب أخرى ، في السياسة ،والامارة ، والملك ،والخلافة ،والآداب السلطانية والاخلاق ، والاجتماع .

فابن الازرق بهذا يكون أول من قام بشرح مقدمة ابن خلدون ، حيث تنبه لاهميتها في عصر دُفنت فيه المقدمة وأُهملت تماما ،وذلك باستثناء الاشارات الخاطفة التي صدرت بخصوصها من قبل المقريزى ، والسخاوى ،والعسقلاني، وقد اتبع ابن الازرق أسلوبا خاصا ،ومنهجا مستقلا ومبتكرا في اعداد مؤلفه ، حيث تجنب الحشو والاستطراد . كما بوبه بطريقة فريدة ، تساعد على التركيز ، والفهم الصحيح . أما بخصوص المعلومات التي تهم هذا البحث ،فلم يأت ابن الأزرق

بجديد . ومع ذلك فهو يساعد على فهم ما سبق أن كتبه عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته . وعليه فان الاعتماد عليه يكون بهدف المراجعة وتسهيل الفهم .

* * *

وثمة مصادر ومراجع أخرى تشتمل على اشارات مختصرة حول العصبية ، ولكنها تحتوي على اخبار هامة تخص القبائل ونشاطها كما تسجل أحداثا تاريخية معتبرة مرت بدول المغرب الاسلامي . وعليه فان هذه المصادر والمراجع تساعد الدارسين على الاستقراء الدقيق للاحداث والنشاطات الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والثقافية ، وذلك بفضل التحليل والتمحيص الجيدين ، وهذا الامر ساعد - بدون شك - على الكشف على معلومات لها فائدة معتبرة ، فيما يخص العصبية من جهة ، والنظم من جهة أخرى . ويمكن تقسيم تلك المصادر والمراجع الى فروع عديدة منها :

- مصادر التشريع الاسلامي .
- كتب التاريخ والنظم والاداب السلطانية .
- كتب التاريخ العام .
- كتب الانساب وتاريخ القبائل .
- كتب التراجم والرحلات والجغرافية .
- كتب علم الاجتماع والفلسفة والسياسة .
- الموسوعات والمعاجم والفهارس .
- الحوليات .

وفي هذا المجال سيتم الحديث عن أهم المصادر والمراجع المعتمدة في اعداد هذه الاطروحة . وتعتبر هذه المصادر والمراجع بمثابة المورد الرئيسي للبحث ، بينما ثمة موارد أخرى ممثلة بكتب عديدة تم الاطلاع عليها ، ولكن تفاوتت الفائدة منها بين القلة والكثرة ، وعليه فقد تُرِكت الاشارة اليها الى قائمة المصادر والمراجع في آخر الأطروحة .

1- كتاب أخبار المهدى: لأبي بكر بن علي الصنهاجي ، المعروف بالبيذق ، (يحتمل أن تكون وفاته حوالي عام 555 هـ/1160م) حسب تقدير عبد الحميد حاجيات الذى حقق النسخة المعتمدة هنا . وهي من منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر ، (عام 1394هـ/1974م) . هذا وقد سبق الى نشر كتاب البيذق المستشرق ليفي بروفنسال مرفوقا بترجمة فرنسية للكتاب وذلك (سنة 1347 هـ/1928م) . وعنونه بـ ((كتاب أخبار المهدى بن تومرت وابتداء الدولة الموحدية)) ،وضم اليه كتابا آخر هو ((كتاب الانساب في معرفة الاصحاب)) لمؤلف مجهول الهوية . ويشتمل هذا الكتاب الأخير على اخبار بعض القبائل التابعة للموحدين وتقسيمات تلك القبائل ، بالاضافة الى بعض التراجم التي تخص أصحاب المهدى . كما ضم بروفنسال اليه ايضا بعض الرسائل المنسوبة الى ابن تومرت وصاحبه عبد المؤمن بن علي .

وكتاب اخبار المهدى يعالج الفترة الزمنية التي نشأت فيها الدولة الموحدية وسقطت خلالها الدولة المرابطية . وكان البيذق هذا ملازما لابن تومرت في رحلته ، بعد عودته من المشرق ، مارا بتونس ، وبجاية ، ثم تلمسان ، فالمغرب الاقصى ،حيث التجأ الى قبائل مصمودة ،أين وجد انصاره وعصبيته . وبعد وفاة المهدى رافق البيذق عبد المؤمن بن علي . وسجل في كتابه الاحداث التي سادت في عهده ،وما جرى له من حروب ، وما تحقق من فتوحات ، وكيف اطاح بالدولة المرابطية ، وكيف واجه ثورات المتمردين والمتآمرين على سلطانه . وقد انفرد ببعض الاخبار ،مثل احداث الاعتراف، التي قتل فيها عدد كبير من قبائل المغرب ، وكل هذه المعلومات لها أهمية كبيرة ،حيث استغلت بالاستقراء المتأني والتمحيص الدقيق ،بغرض بلورة وابراز الادوار الخطيرة التي لعبتها العصبيات،سواء في اقامة دولة الموحدين ،أو اسقاط دولة المرابطين ،وبالتالي اظهار النتائج السلبية التي خلفها تمرد القبائل على الدولة . وبهذا تتضح الفائدة التي جنيت من هذا الكتاب .

2— كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس : اختلف المحققون حول من ألف هذا الكتاب، فبعضهم ينسبه الى أبي العباس أحمد بن أبي زرع، وبعضهم الآخر ينسبه الى ابن عبد الحليم، وهذا الاخير اختلفوا أيضا في اسمه بالكامل وكنيته. (أنظر دليل مؤرخ المغرب الاقصى لا بن سودة، ج : 1، ص: 125/127). وربما يكون كتاب الانيس المطرب هذا من تأليف أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الحليم الملقب بصالح ((المتوفي سنة 627 هـ/1229م) على حد اعتقاد ابن سودة.

أما النسخة المطبوعة، والمعتمدة في عمل هذا البحث فهي التي طبعها كارل يوحنا تورنبرغ (سنة 1259 هـ/1843 م)، بمدينة ((أوبسال)) ب ((السويد))، فقد نسبها اما الى ابي الحسن على بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، أو الى أبي محمد صالح بن عبد الحليم الغرناطي كما قيل. والمشهور حاليا عند الباحثين أن الكتاب من تأليف ابن أبي زرع وكفى. وقد تمت مقارنة هذه النسخة المطبوعة بنسخة مخطوطة لكتاب الانيس المطرب، وهي موجودة بالمكتبة الوطنية الجزائرية، ومنسوبة لا بن أبي زرع.

هذا وقد خصص هذا الكتاب لتاريخ دول المغرب الاقصى بدءا بدولة الادارسة، وانتهاء بدولة بني مرين في عهد أبي سعيد عثمان المريني، (أى من أحداث سنة 172 هـ/788م الى أحداث سنة 726هـ/1325م). وقد اشتمل هذا الكتاب على اخبار مهمة، تخص قبائل المغرب الاسلامي، وعلاقاتها بالدول التي حكمت تلك الربوع. وجل الاحداث التي يؤرخ لها تدخل في مجال هذا البحث مكانا وزمانا، خاصة في عهدي :الموحدين، والمرينيين. وعليه فان هذا الكتاب مفيد للغاية.

3— كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد : تأليف أبي زكرياء يحي ابن خلدون، (توفي سنة 780هـ/1378م). وهو شقيق عبد الرحمن. وقد أعده في جزأين : يعالج أولهما أخبار الامازيغ، وزناتة منهم، ثم اخبار قبيل بني

عبد الواد ، ومواطنهم، وقيام دولتهم الاولى ، والتعريف بسلاطينهم الاولــين .
وضم اليه بعض التراجم ، والاخبار التي تخص علماء واعيان المغرب الاوسط، وخاصة
تلمسان . أما الجزء الثاني فخصصه لاخبار الدولة في عهد أبي حمو موسى الثانـــي .
وبالنسبة للجزء الاول ، فقد تم الاعتماد على النسخة التي حققها عبد الحميــــد
حاجيات بالجزائر (سنة 1400هـ/1980م) ، ونشرها بواسطة المكتبة الوطنيــــة ،
مع مقارنتها بنسخة ألفردبل ، أما الجزء الثاني فقد اقتصر على النسخة التي قـــام
بتحقيقها ألفردبل بالجزائر (سنة 1910م) ، وطبعت في مطبعة فونطانـــــــــة .

ولما كان يحي بن خلدون كاتبا للانشاء في بلاط أبي حمو الثاني فان كتابــه
هذا يعتبر وثيقة هامة ، يمكنها مد الباحث بمعلومات دقيقة عن دولة بـــني
زيان ، وعلاقاتها بالقبائل المتواجدة بالمغرب ، لان يحي بن خلدون عاصر احداثا
كثيرة ، منها تلك التي سجلها في مؤلفه ، وكان شاهد عيان لبعضها . لذا فـــان
فائدة الكتاب تنحصر في المعلومات التي يعطيها عن نظم الدولة ، واخبـــار
بعض القبائل ، واعرافها ، وعلاقاتها بالدولة الزيانية من جهة ، ودول المغـــرب
الاسلامي الأخـــرى من جهة ثانيـــة .

وبما أن هذه الاطروحة تبحث في موضوع العصبية وأثرها على نظـــم
الدولة ، فان الاستعانة بكتاب يحي بن خلدون كاتب الانشاء في بلاط السلطـــان
لا يبعث على الحرج ، لان الموضوع المطلوب لا يتأثر بمظاهر التملق والمحابـــاة .
فهذا البحث لا يلتفت لصيغ المدح والتمجيد ، والاطراء التي يصف بها الكاتـــب
سيده . وبالمقابل لا يعطي أهمية لتلك الصيغ التي تذم اعداءه وتشنع بهم ، فبالتحليـــل
والاستقراء الدقيقين يمكن استنتاج أثر العصبية على النظم كافة ، من خلال النشاطات
التي قامت بها قبائل المغرب الاوسط في قيام دولة أبي حمو الثاني ، وما تسببت
فيه تلك القبائل وغيرها من اضطرابات وصلت بالدولة الى حافة الانهيار والانقراض .

4- <u>كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب</u> لابي العباس أحمد بن محمـد
ابن عذارى المراكشي (توفي سنة 669هـ/ 1270م) . والنسخـــــــة

المعتمدة في هذه الاطروحة هي النسخة التي حققها المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في مجلداتها الثلاثة : الاول أرخ للفترة الزمنية من الفتح وحتى ظهور الموحدين، وهذا المجلد خاص بالمغرب. أما المجلد الثاني فيسجل أحداث الاندلس من الفتح الى ظهور دول الطوائف. أما الثالث فخاص أيضا بالاندلس، ويسجل الاحداث المحصورة بين سنتي 392 هـ/1001م ـ 460هـ ـ 1067م . ثم الحق به ذيل لتاريخ مبتور، وبدون عنوان، وصاحبه مجهول الاسم أيضا ، وهو يؤرخ لدول الطوائف بالاندلس. أما المجلد الرابع فهو من تحقيق احسان عباس، وهو خاص بتاريخ الدولة المرابطية بالمغرب والاندلس، وقد ضمت اليه الملحقات التي تخص المرابطين . وهذه النسخة ذات الاربعة أجزاء من منشورات دار الثقافة ببيروت. ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب وأوثقها ، وقد اشتمل على تاريخ المغرب الاسلامي والاندلس منذ الفتح وحتى ظهور الموحدين، وثمة قطعة أخرى من الكتاب تؤرخ للموحدين والحفصيين والمرينيين، وتتوقف عند سنة 667هـ/1268م . هذا وقد اشتمل الكتاب على بعض المعلومات الهامة، تخص دور القبائل الامازيغية ، والعربية في أحداث المغرب الاسلامي . كما يحتوى أيضا على المعلومات التي تخص النظم والاعراف القبلية. لذا فان هذا الكتاب له فائدة معتبرة ، وقد استثمر في ابراز دور القبائل واثرها على دول المغرب، في التعرف على القبائل الامازيغية والعربية بالمغرب الاسلامي ، وعلاقاتها بالدول المتواجدة في هذه الديار .

5- <u>كتاب تاريخ الدولتين : الموحدية والحفصية</u> : لابي عبد الله محمد بن ابراهيم الزركشي (توفي بعد عام 894هـ/1488م) . قام بتحقيق هذا الكتاب محمد ماضور . وهو من منشورات المكتبة العتيقة بتونس (عام 1386هـ/1966م) . وعلى الرغم من صغر حجمه، واسلوب تأليفه الذى يتميز بالايجاز والتلخيص، فانه ذو أهمية معتبرة، لان صاحبه عايش فترة تاريخية هامة، تدخل في الاطار المطلوب لهذا البحث، ولان هذا الكتاب يشتمل على معلومات تخص قيام بعض الدول

وسقوط بعضها الآخر، كما يتعرض للقبائل المتواجدة بالمغرب ، ومواطنها ، وأثرها على الدول آنئذ . ويسجل كتاب الزركشي فترة زمنية مازالت غامضة ، وينتهي بالاحداث التاريخية الى سنة 882هـ/1477م . وهذه الفترة الأخيرة كما هو معلوم لم ترد في كتاب العبر لابن خلدون . وعليه فان لهذا الكتاب فائدة كبيرة بدون شك . الا أنه من الواجب الاعتراف بأن هذا الكتاب يتضاءل امام كتاب العبر ، في كونه يقتصر على الطابع التسجيلي للاحداث المحيطة بالدول وسلاطينها ، دون تركيز أو اهتمام كبير بحياة القبائل وتاريخهم ، وابراز مدى الأثر الذي تركوه في حياة الدولة ، والمجتمع بافريقية .

6 - <u>كتاب تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، وظهور المهدي بالموحدين على الملثمين ، وما في مساق ذلك من خلافة أمير المؤمنين ، وأخيرا (بعض) الخلفاء الراشدين</u> : لأبي مروان عبد الملك ابن محمد الباجي ، المعروف بابن صاحب الصلاة (توفي بعد عام 594هـ/1197م) . قام بتحقيق هذا الكتاب عبد الهادي التازي ، ونشره ببيروت بواسطة دار الاندلس للطباعة والنشر (سنة 1383هـ/1964م) . ويوجد من هذا المصدر الجزء الثاني فقط . أما الجزء الأول والثالث فمفقودان . والجزء الثاني هذا يسجل تاريخ الدولة الموحدية ، ضمن فترة زمنية ليست كبيرة ولكنها هامة ، وهي محصورة بين سنتي 554هـ/1159م - 669هـ/1270م . وعلى الرغم من كونه مبتورا فانه يعتبر من أهم المصادر التي تؤرخ للدولة الموحدية . وبالنسبة لهذا البحث فان هذا المصدر مفيد جدا ، نظرا لما يشمله من اخبار تخص بعض القبائل العربية والامازيغية ، وعلاقاتها بالدولة الموحدية . كما يشتمل على معلومات هامة - في نصه وفي هوامشه - عن نظم الدولة . وهذا الكتاب تدخل احداثه ضمن مجال هذا البحث ، زمانا ومكانا .

7 - <u>كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا</u> : لابي زيد عبد الرحمن ابن خلدون (المتوفى سنة 808هـ/1405م) . وقام بتحقيقه محمد بن تاويت

الطنجي ،وطبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة (سنة 1370هـ/ 1951م) . وهذا الكتاب في حقيقة الامر مستخرج من المجلد السابع لكتاب العبر . واعتماده هنا يعود لماله من أهمية خاصة ،نظرا للتحقيق الدقيق، والتعاليق المفيدة التي سجلها الطنجي ،بالاضافة الى المعلومات الهامة التي سجلها صاحب الرحلة عن نشأة بعض الدول ، وسقوطها بالمغرب الاسلامي ، وعن نشاط القبائل وعلاقاتها بتلك الدول . وعليه فهو لا يخلو من فائدة .

8 _ **كتاب الجغرافيا** :لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي ، (توفي سنة 685هـ/1286م) . تحقيق اسماعيل العربي . وهو من مطبوعات ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر . وهذا الكتاب متخصص في الجغرافيا كما يدل عليه العنوان . والفائدة المستمدة منه في هذا المجال ،هي المعلومات القيمة عن النشاطات الاقتصادية ببلاد المغرب الاسلامي ،وعن الاوضاع الاجتماعية، ومواطن القبائل بهذه الديار . والملاحظ أن كتاب الجغرافيا أعد باسلوب مقتضب ،يميل الى الايجاز والتلخيص ،ومع هذا فقد تحققت الفائدة منه .

9 _ **كتاب جمهرة أنساب العرب** : لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الاندلسي (توفي سنة 456هـ/ 1063م) . حقق هذا الكتاب عبد السلام محمد هارون ،ونشرته دار المعارف بالقاهرة (سنة 1382هـ/1962م) . وهذا الكتاب مفيد جدا،نظرا لما يحتوى عليه من معلومات تخص أنساب أهل البيت ،والخلفاء، وما فيه من أخبار عن بعض القبائل العربية التي دخلت الاندلس والمغرب . كما أن تعرضه لانساب القبائل الامازيغية يضفي عليه أهمية خاصة . وبذلك فان هذا الكتاب يعتبر من أهم كتب الانساب التي تستحق العناية ،خاصة في المغرب الاسلامي . علما بأن هذا المصدر يعتبر من اوثق المصادر في انساب القبائل العربية والامازيغية . وقد اعتمد عليه ابن خلدون بدون تحفظ .

10 _ **كتاب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية** :لمؤلف مجهول الاسم ، وقد قام بنشره محمد بن أبي شنب ،وطبعه بمطبعة جول كربونل بالجزائر (سنة

1339هـ/1920م) . يؤرخ هذا الكتاب لقبيل بني مرين ،ودولتهم فيذكر نسبهم ،ومواطنهم ،وحروبهم ،وانشاء دولتهم على انقاض دولة الموحدين . وقد اشتمل الكتاب أيضا على معلومات مفيدة عن قبائل المغرب وعلاقتها ببني مرين . وتنتهي احداث ما هو موجود من الكتاب بسنة 679هـ/1280م . أما البقية فهي مفقودة . هذا وتعتبر مواضيع هذا الكتاب مفيدة جدا في اعداد هذا البحث، خاصة اخبار القبائل العربية والامازيغية ،وعلاقتها مع بني مرين .

11 - **كتاب رحلة التجاني** : وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، (توفي بعد 717هـ/1317م) . قام بتحقيقه حسن حسني عبد الوهاب ،وهو من منشورات الدار العربية للكتاب (ليبيا - تونس) (سنة 1402هـ/1982م) . سجل التجاني رحلته هذه وهو في طريقه الى الحج رفقة مولاه الأمير الحفصي ابي يحي زكرياء بن اللحياني وذلك سنة 706هـ/1306م . غير أنه مرض وعاد من طرابلس سنة 708هـ/1308م . ولكنه تمكن من تسجيل ملاحظات ومعلومات عن القبائل التي مربها بدقة وافاضة أيضا . وعليه فان لهذا الكتاب أهمية خاصة ،في التعرف على القبائل ،وعاداتها ، واعرافها خلال القرن الثامن الهجري ،بالاضافة الى مايحتوي عليه من معلومات اقتصادية وثقافية .

12 - **كتاب الرحلة المغربية** : لأبي محمد بن محمد العبدري البلنسي، (كان حيا سنة 688هـ/1289م) ،تحقيق أحمد بن جدو ،وهو من مطبوعات كلية الآداب الجزائرية . اهتم صاحب الرحلة بالقضايا الثقافية بصورة خاصة ،حيث كان يصف الاوضاع العلمية و الثقافية في كل البلاد التي يمر بها ،بينما أهمل تقريبا الجوانب الاقتصادية - والاجتماعية ،الا في حالات نادرة . ومع هذا فقد استغلت رحلة العبدري في هذا البحث ،وخاصة المعلومات التي تخص النظم الثقافية ببلاد المغرب الاسلامي .

13 - **كتاب زهر البستان في دولة بني زيان** : لمؤلف مجهول الهوية . مازال

مخطوطا ،وفي الأصل كان هذا الكتاب يتألف من ثلاثة اجزاء ،تم العثور على الجزء الثاني منها فقط ،وظل الاول والثالث مفقودين . ولدى الباحث نسخة من الجزء الثاني هذا ،وهي مصورة على ميكروفيلم . والنسخة الأصلية موجودة الآن في احدى مكتبات المملكة المتحدة البريطانية ،بمانشيستر ،وهي مسجلة تحت رقم : M.S 283 . (796) .ومؤلف الكتاب عاصر السلطان الزياني أبا حمو موسى الثاني . وعليه يمكن معاملة هذا المصدر بالمعاملة نفسها التي خصصت لكتاب بغية الرواد ، وأن كان أقل اهمية منه . واذا كان زهر البستان في جزئه الموجود يعالج فترة زمنية قصيرة لاتتجاوز الخمس سنوات من 760هـ/1358م — 765هـ/1363م ، فان فوائده لاشك فيها ،اذ يشير لبعض القبائل في ذلك العهد . وقد استثمر من هذه الزاوية .

14 — <u>كتاب صبح الاعشى في صناعة الانشاء</u> : لابي العباس أحمد بن علي القلقشندي (توفي سنة 821هـ/1418م) . وهو من منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بالقاهرة (سنة 1383هـ/1963م) . وهذا الكتاب عبارة عن موسوعة احتوت على مختلف المعارف الانسانية مجزأة الى 14 جزءا . وقد اشتملت هذه الموسوعة — بالاضافة الى فن صناعة الانشاء — على معلومات ومعارف هامة ،في ميادين مختلفة : تاريخية ،وأدبية ،وفي النظم ،والانساب ،وغيرها . وقد كان الكتاب دليلا ومرجعا لهذا البحث ،خاصة عند التعرف على الانساب ، وطبقاتها ،وعلى نظم بعض الدول المتواجدة بالمغرب الاسلامي ، واخبار بعض القبائل وعاداتها وأعرافها . ويبدو أن جل معلومات القلقشندي عن بلاد المغرب ودوله وقبائله قد استمدها من ابن سعيد ومن ابن خلدون .

15 — <u>كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر</u> :لأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون ، (المتوفى سنة 808هـ/1405م) . وهو كتاب يبحث في التاريخ العام . وللمجلدين :

السادس ،والسابع أهمية خاصة ،كمصدرين أساسين لهذا البحث ،اذ يشتملان على معلومات هامة عن قبائل المغرب الاسلامي ودوله . وهذا بالطبع لايعني الاستغناء عن بقية المجلدات التي لاتخلو من فائدة ،خاصة في التعرف على أنساب القبائل العربية ،وتتبع تاريخ تلك القبائل وهجراتها ،وعلاقتها مع بعض الدول في المشرق والمغرب ،وتأثيرها على نظمها الخ ... وقد تم الاعتماد على طبعة دار الكتاب اللبناني ببيروت ،على الرغم من الاخطاء التي تشوبها . ويعتبر هذا الكتاب في الحقيقة أهم المصادر التاريخية ذات الطابع التاريخي العام ،والتي تدرس تاريخ المغرب الاسلامي بصورة خاصة ،بدوله وقبائله : العربية منها والامازيغية . وأهمية كتاب العبر بالنسبة لهذا البحث كبيرة ،لأن ابن خلدون عالج مادته بحيث تنسجم مع نظريته عن العصبية القبلية ،فكان يركز على دور القبائل ، وفعاليتها واثرها على الدول ،في قيامها وسقوطها ، واثرها أيضا على العمران ،ونشاط الحضارة ايجابيا وسلبيا . وقد قام دى سلان بترجمة المجلدين:السادس والسابع الى الفرنسية ونشرهما تحت عنوان :

Histoire des Berberes d'IBN KHALDOUN (PARIS :1925). -

16 ــ <u>كتاب الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية :</u> لأبي العباس أحمد ابن الحسين المعروف بابن القنفذ القسنطيني (المتوفى سنة 810هـ/1407م) . قام بتحقيقه : محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي ،وهو من منشورات الدار التونسية للنشر (سنة 1389هـ/1968م) . وهذا المصدر عبارة عن تاريخ ملخص ومقتضب للدولة الحفصية . وبالطبع كان يتعرض لدول المغرب الاوسط ،والاقصى المعاصرة لها في سياق الحديث . وفائدته تنحصر في كونه يحتوى على بعض المعلومات التي تخص القبائل ،والدول بالمغرب الادنى ،والاوسط،والاقصى .. والكتاب يسجل اخبار الدولة الحفصية منذ قيامها سنة 625هـ/1227م الى عام 806هـ/1403م . وقد اضاف بعض السنوات التي لم يؤرخ لها ابن خلدون

الذى توقف في تاريخه عند سنة 795هـ/1392م ، ومع هذا فان الزركشي قد اخذ عنه ، ولكنه غطى سنوات أخرى لم يسجلها ابن القنفذ ولا ابن خلدون ، لانـــه انتهى بسنة 882هـ/1477م .

17 - **كتـاب القارة الافريقية وجزيرة الاندلس : (مقتبس من نزهة المشتاق فـــي اختراق الافاق):** لأبي عبد الله محمد الشريف الادريسي ، (كان حيا سنة 549هـ/ 1154م () . طبع الكتاب مرات عديدة ضمن طبعات مبتورة وبلغات أجنبية كانـــت أول طبعة (سنة 1001هـ/1592م) . وقام مؤخرا اسماعيل العربي بطبع القطعة الخاصة بالقارة الافريقية وجزيرة الاندلس ،وذلك بمشاركة ديوان المطبوعـــات الجامعية بالجزائر (سنة 1404هـ/1983م) . ويشتمل هذا الكتاب علـــى معلومات هامة ، بخصوص القبائل المتواجدة بالمغرب الاسلامي ،وتوزعها في تلـك الربوع ،والادوار التى كانت تقوم بها ،فى الاطار الاقتصادى والاجتماعي . وعليه فان هذا الكتاب لايخلو من فائدة .

18 - **كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الاندلس الـــى اخر عصر الموحدين مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من اخبار الشعراء واعيـــان الكتاب :** لمحي الدين أبي عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي ،فرغ مـــن تأليفه (سنة 621هـ/1224م) . وقد قام بتحقيق هذا المصدر كل مـــن : محمد سعيد العريان ،ومحمد العربي العلمي ،وطبع بمطبعة الاستقامة بالقاهرة (سنة 1368هـ/1949م) . ومحتوى هذا الكتاب لا يعبر عنه عنوانه بدقة ،لانـــه فى الحقيقة مختص باخبار الاندلس وأن تعرض قليلا للمغرب ،ومع هذا فهو يركـــز على العهد الموحدى بالاندلس والمغرب ،ويتعرض خلال ذلك للقبائل العربية ، والامازيغية ،وعلاقتها بالدولة . كما يذكر التنظيم القبلي الذى احدثه الموحدون . وكل هذا بالطبع افاد فى اعداد هذه الأطروحة .

19 - **كتاب نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الاعيان :**
لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي التلمساني ، (توفـــي

سنة 899هـ/1493م) . قام بتحقيق الباب السابع من القسم الأول من هـــذا المصدر ونشره ضمن منشورات المكتبة الوطنية بالجزائر محمود بوعياد ،وذلـــك (سنة 1405هـ/1985م) . وقد ألف التنسي كتابه هذا قصد ارضاء ولي نعمتـه السلطان المتوكل الزياني (حسب تعبير التنسي نفسه) . وهذا السلطان تولـى الحكم سنة 866هـ/1461م . وعليه فان هذا الكتاب يساعد الباحث في التعـرف على نظم دولة بني زيان ،وعلاقة قبائل المغرب الاوسط بتلك الدولة . وهـــذا الكتاب لا يختلف عما تقرر بخصوص كتاب بغية الرواد . والذي يهم هنا لا يتعـدى ما حققه بوعياد . لذا فقد تم الاعتماد على بحثه ،مع عدم الاستغناء عن المخطوط المحفوظ بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 444 ،ولدى الباحث نسخة مصورة عنه .

ويمتاز هذا المصدر عن كتاب العبر ، وكتاب بغية الرواد ،و زهـــر البستان في أنه أرخ لفترة زمنية أمتدت حتى اواخر القرن التاسع الهجـــري . وهذه الفترة لا تتكلم عنها المصادر المذكورة . غير أن هذا المصدر كتب بنفـــس الاسلوب الذى اعتمده كل من ابن القنفذ والزركشي ،من حيث الايجازه والاقتصار على التأريخ لسلاطين الدولة ،دون عناية بالاوضاع الاجتماعية ،وأثر القبائـــل على الدولة بشكل واضح .

20 – **كتاب نهاية الارب في معرفة انساب العرب** : لأبي العباس أحمـــد ابن علي القلقشندى ، (توفي سنة 821هـ/1418م) . قام بتحقيقه ابراهيـــم الابيارى . وهو من منشورات الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة (سنـــة 1379هـ/1959م) . ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي درست انســـاب القبائل العربية ، ومواطن تلك القبائل ،وايامها ، ومفاخراتها . والفائـــدة المجناة من هذا المصدر تنحصر في مراجعة انساب بعض القبائل العربيـــة ، والامازيغية ،ومعرفة مواطنها ، ودراسة المفاخرات التى اعلنت بين القبائـــل ، ثم الحروب التى نشبت بينها . وقد اعد بمنهج هجائي ،كترتيب القاموس.

21 – **كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك** : للسلطان الزياني أبى حمو موسى

الثاني ، (المتوفى سنة 791هـ/1388م) . طبع هذا الكتاب بمطبعة الدولة التونسية (سنة 1279هـ/1862م)، و يشتمل على كثير من الوصايا الاخلاقية، والسياسية، والعسكرية ، والتنظيمية ، التي أفادت في بلورة بعض الاراء والقضايا، خاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين القبائل و الدولة ، بالاضافة الى معرفة بعض النظم ، وبعض التقاليد ، والاعراف التي تحدد العلاقة بين القبائل و الدولة ، وذلك من خلال وصايا السلطان لولي عهده . وقد تمت مقارنة النسخة المطبوعة بنسخة أخرى مخطوطة وهي موجودة الآن في المكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم : 1374 . ولدى الباحث نسخة مصورة عنها .

22 ـ <u>كتاب وصف افريقيا</u> : للحسن بن محمد الوزان الفاسي ، المعروف بليون الافريقي . (كان حيا سنة 957هـ/1550م) . ترجمه عن اللغة الفرنسية كل من محمد حاجي ، محمد الاخضر ، بالرباط (سنة 1398هـ/1978م) . قامت دار الغرب الاسلامي ببيروت بنشر الكتاب في جزأين ضمن مجلد واحد . ويحتوى هذا المصدر ـ الذى هو عبارة عن وصف لمشاهدات الوزان ـ على معلومات لها أهميتها الخاصة ، وقد أفادت في التعرف على بعض الاماكن ، وبعض القبائل ، ومواطنها ، واحوالها الاجتماعية ، والاقتصادية . ثم الاحاطة بدول المغرب الاسلامي آنذاك . كما قورنت هذه الترجمة بنسخة أخرى نشرت باللغة الفرنسية في جزأين من طرف مكتبة امريكا و المشرق ، وهذه النسخة ترجمت بدورها عن الايطالية بواسطة اليكي ايبولار ، وقد عنونت هكذا :

- Description de l'Afrique , Par JEAN-LEON, L'Africain. Traduite de l'Italien , par A. Epaulard .

* * *

تلك هي أهم المصادر القديمة التي تم استثمارها في هذا البحث . وبقي الآن دراسة المراجع الحديثة التي استغلت بغرض اعداد هذه الاطروحة . ومع هذا توجد بعض المصادر و المراجع الاخرى ذات الدور الثانوي ، وقد تمت

الاشارة اليها في آخر البحث ضمن قائمة المصادر والمراجع .

والمراجع التالية - في الحقيقة - تعالج موضوعي : العصبية القبليـــة ، والبداوة ، بمنهج فلسفي مجرد ، غير منطبق على واقع الاحداث . وعليه فقد بقيت الصورة مفتقرة الى الامثلة والشواهد ، الامر الذى جعل المادة جافة وصعبـــة . وهذا البحث سيسهل الموضوع بعض الشيء ، وذلك بتطبيق تلك الآراء والنظريات على الاحداث التاريخية ، لاضفاء بعض الحيوية على الموضوع . وبالطبع فانـــه لايصح اغفال الاهمية العظيمة لتلك المراجع ، التى افادت الباحث فائدة كبيـرة . خاصة تلك التى تخصصت فى موضوع العصبية ، وتاريخ القبائل بالمغرب الاسلامي ، ومنها :

1 - كتاب ابن خلدون اسلاميا : لعماد الدين خليل . وهو من منشورات المكتب الاسلامي ببيروت (سنة 1405هـ/1985م) . تم اعداد هذا الكتاب فـــى الحقيقة للرد على الباحثين الذين يزعمون بأن ابن خلدون لم يلتزم بتعاليــم القرآن فى بناء نظريته . ومن هنا فقد حاول المؤلف أن يثبت بأن للقــــرآن تأثيرا كبيرا على آراء ابن خلدون . أما الفائدة التى حصل عليها الباحث مـــن هذا الكتاب - الذى كتب باسلوب صحفي تقريبا - فانها تنحصر فى الفقــرات التى تعرضت لموضوع العصبية ، والدين ، ورأى ابن خلدون فى ذلك ، وفـــى معالجته لموضوع الدولة ، ونشوئها ، ومدى انسجام آراء ابن خلدون مع تعاليـــم الدين الاسلامي الحنيف، وبذلك فان الفائدة المجناة من هذا الكتاب امــــر لاشك فيــه .

2 - كتاب ابن خلدون حياته وتراثـه الفكرى : لمحمد عبد الله عنان . وهو مـن منشورات المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة . تعرض هذا الكتاب لحياة ابن خلدون الخاصة والعامة ، كما بحث فى انتاجه الفكرى ، وماقاله عنه خصومه ومحبيـــه . ويبدو أن محمد عبدالله عنان قد تأثر بطه حسين فى هذا الباب ، حيث سايـــره

فى تحامله على ابن خلدون . الا أن عنان كان اكثر لينا وتفهما لابن خلدون من طه حسين .

والقسم المفيد من هذا الكتاب يتمثل فى الكتاب الثاني المعنون بـ ((تراث ابن خلدون الفكرى والاجتماعي)) . وقد شمل مواضيع عديدة اهمها : علم العمران كما يعرضه ابن خلدون ، علم السياسة و الملك قبل ابن خلدون ، ابن خلدون والنقد الحديث . وجملة القول فأن هذا الكتاب لايخلو من فائدة ، لأنه فى الحقيقة يساعد على فهم فلسفة ابن خلدون تجاه العمران ، و البداوة ، والعصبية .

3 ـ <u>كتاب اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان</u> : لأحمد ابن الضياف (توفي سنة 1291هـ/1874م) . وهو من مطبوعات الدار التونسية للنشر بتونس و الشركة الوطنية للنشر و التوزيع بالجزائر (سنة 1396 هـ / 1976م) . ويشتمل هذا الكتاب على مقدمات تبحث فى نظم الحكم المقارن . ويبدو من خلال ما كتبه ابن الضياف فى هذا الموضوع انه كان متأثرا بافكار ابن خلدون ، حيث كان يستشهد باقواله فى كل مرة . أما صلب الكتاب فهو تاريخ عام لافريقية منذ الفتح الاسلامي ، وحتى العهد العثماني الذى عاصره ابن الضياف . وميزة كتاب اتحاف أهل الزمان انه يسجل الاحداث التى اتت بعد اخبار كتابي : الفارسية ، وتاريخ الدولتين . وقد كتب بالاسلوب المعهود ، اذ كان تاريخا للسلاطين والامراء فقط . كما كتب بمنهج مقتضب ، يميل الى الايجاز والتلخيص ، مثل المنهج الذى اتبع فى الفارسية وتاريخ الدولتين ، ومع هذا فقد افاد الباحث فى بعض الجوانب التى لها علاقة بالنظم ، و البداوة ، و العصبية ، والعلاقات مع النصارى ، ودور القبائل فى كل ذلك .

4 ـ <u>كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى</u> : لابي العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي (توفي سنة 1315هـ/1897م) . تحقيق ولديه : جعفر الناصري ، ومحمد الناصري . وهو من منشورات دار الكتاب بالدار البيضاء . ويعتبر هذا الكتاب من أشمل الكتب واوفاها ، اذ عالج الاحداث التاريخية

في المغرب الاقصى بصورة خاصة والمغربين : الادنى ، و الاوسط بصورة عامة ، لانه اشار الى الاحداث التي مرت بهما من خلال تشابكها وتكاملها مع احداث المغرب الاقصى (سنة 1374هـ/1954م) . وتعود أهمية هذا المرجع الى اعتماد صاحبه على عدد كبير من المصادر المختلفة ، بحيث اضحى يضاهي المصادر الأساسية في الوثوق . لذا فانه قد افاد الباحث في تتبع الاحداث التي لها علاقة بحركات القبائل ، واثرها على الدول ونظمها .

5 — كتاب الاشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون :

لعبد القادر دجغلول . طبع هذا الكتاب لاول مرة باللغة الفرنسية (سنة 1980م) . على شكل ثلاث دراسات عن ابن خلدون ، من طرف مركز الوثائق للعلوم الانسانية بجامعة وهران ، ثم قام بترجمته فيما بعد فيصل عباس ، وقامت بنشره دار الحداثة للطباعة و النشر والتوزيع ببيروت (سنة 1403هـ/ 1982م) . وعلى الرغم من صغر حجم الكتاب الا أنه في غاية الأهمية ، من حيث المحتوى اذ يعالج عدة محاور من فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، و السياسية ، والتاريخية .

وعلى الرغم من الاسلوب الذى ساد الكتاب ، ذلك الاسلوب الذي يميل الى الايجاز والعبارات الخاطفة ، ذات التعبير العلمي الجاف ، فانه افاد الباحث كثيرا ، و خاصة الصفحات التي تعالج : مراتب العمران ، و نموذجي العمران : (البادية والحضارة) . وتدخل هاتان النقطتان ضمن فصل المفاهيم الأساسية للمقدمة ، ثم فقرة السياسة و الدين . وقد شمل هذا العنوان تحليلا دقيقا لمفهوم العصبية ، وعلاقة العصبية بالملك والدولة . . . الخ . وكل هذا يدخل ضمن فصل التحليل الخلدوني للسياسة . ثم فقرة الاقتصاد . و المجتمع ، وأشتملت على مواضيع عديدة هامة منها : البادية ، والبناء الداخلي للقبيلة ، والعلاقات بين القبائل ، و الحضارة ، والبادية ، و التوسع التجارى من القرن التاسع الى الحادى عشر ، وازمة القرن الحادى عشر ، و محاولة النهضة ، ثم فقرة الدولة والمجتمع ، وتحت هذا العنوان درست مواضيع تبحث في الحدود السياسية والمراكز

السياسية والحكومية ،والبنيات القبلية ،والبنيات الحكومية ،والتجارة القبلية ،والاسلام ، وازمة المغرب ،والتفتت السياسي ،وبداية الاستعمار السياسي . ثم فقرة علمانية السياسة وحدودها ،وتدخل ضمن فصل ابن خلدون : السياسة والتاريخ . وثمة بعض الفقرات الاخرى التي لاتخلو من الفائدة . وجملة القول فان هذا الكتاب مفيد جدا .

6 - **كتاب بهجة الناظر في اخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الاعراب كبني عامر** : لأبي المكارم عبد القادر المشرفي الجزائري (توفي سنة 1192هـ/ 1778م) . تحقيق محمد بن عبد الكريم . وهو من منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت . ويشتمل هذا الكتاب على معلومات هامة عن انساب بعض قبائل المغرب ،وخاصة منها قبيلة بني عامر . كما يشير ايضا الى تحالف عدد من القبائل مع الاسبانيين ضد اخوتهم في الأصل والدين .

ويبدو من عنوان الكتاب في الوهلة الأولى انه مخصص لقبيلة واحدة وهي قبيلة بني عامر الهلالية ،ولكنه في الحقيقة يذكر قبائل أخرى : عربية ،وامازيغية ، تحالفوا كلهم مع الاسبانيين ضد بني قومهم . ومن تلك القبائل : بنو عامر ، ممثلين ببطونهم وافخاذهم المتعاملة من الاسبانيين وهم : بنو شافع ،وبنو حميان ، وبنو قيزة (أو جيدزة) ،واولاد عبد الله التالي ،واولاد علي القُبَيِّل ،والونازرة ، وهم اولاد ونزار بن عبد الله . ثم كرشتل وهم بطن من بطون مغراوة ،وينتسبون الى راشد بن محمد بن ثابت بن منديل . ثم أحياء من غمرة ،وهم جميعا من زناتة . وهكذا تتضح اهمية هذا الكتاب بالنسبة للبحث ،لأن الادوار التي قامت بها القبائل المذكورة في هذا المرجع يمكن أن تؤخذ كعينات تشرح الأثر السلبي والخطير للقبلية .

7 - **كتاب تاريخ افريقيا الشمالية** : للمؤرخ الفرنسي شارل اندري جوليان ، تعريب : محمد مزالي ،والبشير بن سلامة . وهو من منشورات الدار التونسية للنشر . عالج هذا الكتاب تاريخ تونس والجزائر والمغرب الاقصى منذ العصور

الحجرية وحتى نهاية العهد التركي بالجزائر . وعلى الرغم من قيمة هذا الكتاب ومستواه الرفيع في كتابة التاريخ بمنهج علمي نوعاما ، الا أن صاحبه في الغالب كان متأثرا باسلافه ، من اقطاب الفكر الاستعماري مثل غوتييه . حيث كان في أغلب الاوقات يستشهد بنظريات هذا الأخير تلك النظريات التي تتميز بالغرابة ، والشذوذ ، والتحامل . ومع هذا فان كتاب جوليان أقرب الى النزاهة من غوتييه . وقد استفاد منه الباحث ، لأنه اعد بمنهج فيه طرافة ، خاصة عند مايقارن ببعض المؤلفات ذات الطابع التقليدي . هذا وقد تمت مقارنة هذا الكتاب المعرب بالاصل الفرنسي وهو : - Histoire de l'Afrique du nord, P ar : Charle André Julien . Mise à jour par Christian Courtois, Payot Paris , 1951 - 1952. -

8 - <u>كتاب تاريخ الجزائر الثقافي</u> : لأبي القاسم سعد الله . وهو من منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة (1402هـ/1984م) . وقد جمع معلومات في غاية الاهمية عما انتجه علماء الجزائر وادباؤها من تآليف ، واشعار في مختلف الاغراض والفنون : الادبية ، و التاريخية ، والعلمية ، والدينية ، وعلى الرغم من تخصصه في الانتاج الفكري خلال القرون المحصورة ما بين القرن العاشر ، والرابع عشر للهجرة ، الا أنه يتعرض بين الحين والآخر لما انتج قبل هذا التاريخ . هذا بالاضافة الى أن الجزء الاول من الكتاب يشتمل على فصل خصصه مؤلف الكتاب للقرن التاسع الهجري . وقد افاد هذا الفصل الباحث ، خاصة حينما قارن بين التعليم الريفي الساذج الذي يحظى في الزوايا ، والتعليم في الحواضر الذى يقدم الى الطلاب في المساجد والمدارس .

9 - <u>كتاب تاريخ الجزائر العام</u> : لعبد الرحمن بن محمد الجيلالي وهو من منشورات ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر (سنة 1402هـ/1982م) . وتبدأ احداث هذا المرجع بالعهد الفينيقي ، وتنتهي بسقوط الجزائر في أيدي الغزاة الفرنسيين . وقد اعد هذا الكتاب بمنهج يخالف بعض الشيء منهج مبارك الميلي (1) .

(1) - أنظر الفقرة الموالية .

ويمتاز عنه بحسن التبويب ،وابراز الاخبار الخاصة باعلام الجزائر ومشاهيرها ضمن جداول وفصول مستقلة وواضحة . ومع هذا فان الشيخ عبد الرحمن الجيلالي اعتني بتاريخ الدول ونظمها : السياسية ،والادارية ،والثقافية ، تاركا أمر القبائل ،وانسابها ،وأثرها على الدول ،الا في حالات استثنائية فانه يشير اليها ضمن اخبار الدولة المدروسة . وهذا لا يمنع استغناء الباحث عن كتاب الجيلالي ،بل يعتبر احد المراجع الهامة التي استفاد منها . خاصة فيما يتعلق بالنظم المختلفة . والعلاقات بين الدول والقبائل .

10 — <u>كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث</u> :لمبارك بن محمد الميلي. نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر (سنة 1396هـ/1976م) . واهمية هذا المرجع تكمن في انه ألف بطريقة تبرز دور القبائل ،ونشاطاتهم في المغرب، منذ العصور القديمة (من العصر الحجري وحتى سقوط دولة بني زيان سنة 957هـ/1550م) ،بالاضافة الى النشاطات الحضارية ،والثقافية في ربوع الجزائر عبر العصور.وعليه فان مؤلف الكتاب لم يكتف كغيره بالتأريخ للدول والسلاطين ،بل تتبع أيضا الاحداث التي صنعتها القبائل ،كما سجل ماعرفه عن انساب تلك القبائل ومواطنها . وهنا تتجلى قيمة هذا المرجع وأهميته تجاه هذا البحث . وبالفعل فقد افاد الباحث كثيرا .

11 — <u>كتاب تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون</u> :لعمر فروخ ،نشر دار العلم للملايين ببيروت (سنة 1392هـ/1972م) . الطبعة الثالثة المعتمدة هنا صدرت (سنة 1402هـ/1981م).ويعالج هذا الكتاب تطور الحركة الفكرية بدءا من نشوء الفلسفة الشرقية القديمة ،والفلسفة اليونانية ،وحتى عصر ابن خلدون . وعلى الرغم من القيمة العلمية للكتاب ،الا أن الباحث اقتصر منه على القسم الأخير فقط ،ذلك القسم الذي يدرس فكر ابن خلدون ،وخاصة مواضيع : العمران البشري ،واساس الاجتماع البدوي ،والعصبية ،وعمر الدولة، واطوارها .

12 ـ كتاب تاريخ مسلمي اسبانيا (الجزء الأول الحروب الأهلية): للمستشرق الهولندي رينهارت دوزي ، تعريب حسن حبشي . وهو من منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بالقاهرة (دار المعارف) سنة 1382هـ/1963م . وتبدأ ابحاث هذا الكتاب من العهد الجاهلي ، حيث درس صاحبه الحياة القبلية ، والعقلية السائدة ضمن المجتمع القبلي العربي ، منذ الجاهلية وحتى ظهور الدولة الاموية في الاندلس على يد عبد الرحمن الداخل . وبالطبع ابرز دوزي أثر العصبية في المجتمع العربي بالمشرق والاندلس ، وقد خصص لموضوع العصبية في المشرق فصلين اثنين هما : الفصل السادس الذي عنونه بـ ((العصبية في مرج راهط)) ، والفصل الثامن المعنون بـ ((العصبية القبلية : مقتل حلحلة)) . وقد اعتبر الحادثتين رأس النبع الذي اضحت تتدفق منه بعد ذلك دفعات العصبية في ربوع الدولة الاسلامية بكاملها . وهكذا انتقلت العدوى الى المغرب والاندلس بانتقال بعض الاحياء من القبائل العربية . وبالتالي فقد تعرض المؤلف لذكر الاحداث التي جرت في الاندلس من جراء العصبية القبلية . وعليه فان هذا المرجع قد افاد الباحث كثيرا ، خاصة حين ساعده على تتبع جذور العصبية ، وفهم اسبابها ، ومؤثراتها . وبهذا فانه يستحق التنويه .

13 ـ كتاب تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول: لمحمد الهادي العامري ، نشر الشركة التونسية للتوزيع بتونس (سنة 1394 هـ/ 1974م) . وتبدأ أحداث هذا الكتاب بالقرن السابع للهجرة وحتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة . (أي منذ نشأة الدولة الحفصية الى عهد الاحتلال الفرنسي لتونس) وهذا الكتاب في الحقيقة يؤرخ لبلاد افريقية (تونس) ، وأن كان يشير عرضا للمغرب الاوسط والاقصى واحيانا الاندلس . ويكون ذلك في الغالب ضمن سياق الحديث عن الاحداث التي لها علاقة بافريقية . ومع هذا فانه مفيد جدا ، لأنه يعالج مواضيع تتعلق بالقبائل ، وعلاقتها بالدولة ، واد وا ر

تلك القبائل السلبية منها والايجابية . وبالاضافة الى ذلك فان هذا المرجع يشتمل على معلومات في غاية الأهمية ،خاصة تلك التى تعالج النظم الاقتصادية ،والمالية ، والادارية ،والسياسية ،والثقافية . وعليه فقد افاد هذا المرجع الباحث كثيــــرا . ومن المآخذ التى تؤخذ عليه انه كتب بمنهج تقليدي ،يتميز بجموح العاطفــــة احيـــانا .

14 _ <u>كتاب التفكير العلمي عند ابن خلدون</u> :لابن عمار الصغير،نشرته الشركـــة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر (سنة 1391هـ/1971م) ،ويشتمل هذا الكتـاب على فصل يعالج فيه الكاتب مفهوم العصبية عند ابن خلدون بمنهج فلسفي ،بالاضافة الى فصول أخرى ذات طابع فلسفي ،واجتماعي مثل : فلسفة ابن خلدون الواقعيـة اللاعرقية ،وابن خلدون المؤرخ ،ومن التاريخ الى علم الاجتماع ،وابن خلـــدون والاقتصاد ،وابن خلدون والسياسة . . .الخ . هذا وقد استفاد الباحث مــن هذا الكتاب ،خاصة فيما يخص مفهوم العصبية .

15 _ <u>كتاب التفكير الاجتماعي الخلدوني ودلالته بمستوى النظريات الاجتماعيـــة</u> : لادريس خضير . وهو من منشورات ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر (سنــة 1404هـ/ 1983م) . يشتمل هذا المرجع على واحد وعشرين فصلا موزعة بيـــن خمسة ابواب . ومباحث الكتاب جميعها عامة ومفيدة ،غير أن المستغل منها فـــي هذا البحث لا يتجاوز التسعة فصول وهــــي :

_ **الفصل السادس** : عوامل تكوين المجتمع . **الفصل السابع** : انواع المجتمعات. **الفصل الثامن** : تطور المجتمع . **الفصل الثاني عشر** : الموارد الاقتصــــادية . **الفصل الرابع عشر** : نشأة السلطة . **الفصل الخامس عشر** : انواع الحكـــم . **الفصل السادس عشر** :عوامل تدعيم الحكم . **الفصل السابع عشر** : عوامل انهيــــار الحكم . **الفصل الثامن عشر** : عمر الدولة .

ويمتاز هذا الكتاب بالمقارنات التى وضعها مؤلفه بين فكر ابن خلـــدون وغيره من فلاسفة الغرب ، وعلماء الاجتماع بتلك الديار . وعليه فانه يستحق التنويه ، وقد افاد الباحث ،وذلك بمساعدته على تعميق فهمه لفكر ابن خلدون فيما يخـــص النظرية السياسية ،والعصبية .

16 ــ **كتاب الحلل السندسية في الاخبار التونسية** : لمحمد بن محمد الاندلسي الوزير السراج (قد تكون وفاته سنة 1149هـ/1736م) . تحقيق محمد الحبيب الهيلة ،ونشر الدار التونسية للنشر بتونس (سنة 1390هـ/1970م)ويضم هذا الكتاب تراجم هامة لأعلام الفكر،والادب ،والدين بافريقية ، بالاضافة الى معلومات اخرى تخص اهم المدن بتلك الديار . هذا وقد احتوى الكتاب ايضا على مقدمات في فلسفة التاريخ واصوله . والى جانب ذلك كله سجل السراج تاريخ افريقية من الفتح الاسلامي الى العهد التركي . وقد يكون ذلك حتى سنة 1144هـ/1731م . الا أن الجزء الرابع الذي يصل بالاحداث التاريخية الى السنة المذكورة يعد مفقودا حتى الآن ،ولم يبق الا الاجزاء الثلاثة . ومع هذا فان الجزء الأول من هذا الكتاب يكفي كمرجع للاطروحة ،نظرا لخروج ما جاء من احداث في الاجزاء الاخرى زمنيا عن متطلبات البحث . هذا وقد سردت احداثه بشكل موجز للغاية ،ولكنه لايخلو من الفوائد ،خاصة فيما يخص الاخبار المتعلقة بالقبائل ،وادوارها تجاه الدولة ، وتجاه الغزو النصراني آنئذ .

17 ــ **كتاب خلدونيات : (السياسة العمرانية)** : لملحم قربان.وهو من منشورات المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ببيروت (سنة 1404هـ/1984م) .اعد هذا الكتاب بمنهج علمي ،حيث يحاول كاتبه تفسير النظريات السياسية الخلدونية . ومن هنا فقد تعرض لآرائه تجاه نشأة الدولة ، ودور العصبية في بناء الدولة ، ومدى تأثير المعتقد الديني على افكار ابن خلدون ،مع مقارنة فكر ابن خلدون بافكار غيره من المنظرين والفلاسفة . وعلى الرغم من جفاف اسلوب هذا الكتاب، ومنهجه المجرد ،فانه قد افاد الباحث ــ ولو كان ذلك بصعوبة ــ وتنحصر الفائدة هنا في المباحث التي عالجت موضوع العصبية ،والحضارة والعمران ،والبداوة،ونشوء الدولة ،ومدى تأثر ابن خلدون بالتعاليم الدينية . بالاضافة الى ردوده على بعض الباحثين المحدثين ، والتي حاول فيها المؤلف تصحيح الاخطاء والالتباسات التي وقعوا فيها .

18 ـ كتاب الخلدونية (العلوم الاجتماعية وأساس السلطة السياسية) :
لنور الدين حقيقي ،تعريب الياس خليل . وهو من منشورات ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر (سنة 1405هـ/1984م) . فعلى الرغم من صغر حجم هذا المرجع الا أن فائدته كبيرة . وقد كتب هذا المرجع بمنهج فلسفي مجرد . وقد زاد في صعوبة فهمه اسلوب المرتجم الذى يميل الى الاقتضاب ،والجمل الخاطفة . ومع هذا فقد استغل في هذا البحث ،وأن كان ذلك قد تم بصعوبة .

لقد عقد حقيقي مقارنات في غاية الأهمية بين فكر ابن خلدون وغيره من مفكري الغرب مثل : سان سيمون ،وأوغوست كانت ،وسبنسر ،ودوركايم، وماكس ويبر ، وكارل ماركس . وبذلك عرف بالمكانة الفكرية لابن خلدون في التراث الانساني . والذي يهم الباحث في الحقيقة من هذا المرجع الفصول التى تعالج المفاهيم السياسية والحضارية لابن خلدون . ويمكن حصرها ضمن العناوين التالية :

ـ الخلدونية وأساس السلطة السياسية ـ مفهوم السلطة السياسية عند ابن خلدون . ـ الخلدونية ونشأة علم الاجتماع وأساس السلطة السياسية .
ـ الخلدونية والماركسية وأساس السلطة السياسية .

وهذه العناوين تدرس مواضيع هامة : كالعصبية ،ونشأة الدولة ، والبداوة ،والحضارة . مع عقد مقارنات توضح رأى ابن خلدون وغيره تجاه هذه المواضيع . وهنا تتجلى الفائدة التى جناها الباحث من هذا المرجع الصغير في حجمه ،والكبير في محتواه .

19 ـ كتاب دراسات عن مقدمة ابن خلدون : لساطع الحصري .نشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة ،ودار الكتاب العربية ببيروت (سنة 1387هـ/ 1967م) . ويعتبر هذا الكتاب من أهم ماكتب عن فكر ابن خلدون ومقدمته ،بما في ذلك موضوع العصبية . وهذا الكتاب مقسم الى مدخلين : الأول بعنوان على هامش المقدمة ،والثاني حول مؤلف المقدمة ،ثم ثلاثة أقسام ،وتكملة . وأهم الأقسام

بالنسبة لهذا البحث هو القسم الثالث ،الذي عالج فيه ساطع الحصري : طبيعة الاجتماع ،ومنشأ الحكم ،ونظرية العصبية ،والدولة وتطوراتها : كعمر الدولة ، وأطوار الدولة ،واتساع نطاق الدولة ،وتضايقها ،وقيام الدولة المستجدة . وقد استفاد الباحث من هذا الكتاب فائدة كبيرة .

20 ـ كتاب دراسات في مصطلح السياسة عند العرب :لأحمد عبد السلام . نشرت هذا الكتاب الشركة التونسية للتوزيع بتونس(سنة 1399هـ/1978م) .وهو دراسة قارن فيها بين فكر ابن خلدون ،وابن الضياف ،وخير الدين . وهو يشتمل على ثلاثة مباحث في منتهى الأهمية : الأول بعنوان السياسة في مصطلح كتاب السياسة التونسيين من القرن الرابع عشر (للميلاد) الى التاسع عشر (للميلاد) . والمبحث الثاني يدرس مفهومي : الملك والدولة لدى كتاب السياسة التونسيين ما بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر (للميلاد) . والمبحث الثالث خصصه لمفاهيم : الوازع ،والعصبية ،والشورى ،في مصطلح كتاب السياسة التونسيين من القرن الرابع عشر الى القرن التاسع عشر (للميلاد) .وقد استفاد الباحث من هذا الكتاب فائدة معتبرة .

21 ـ كتاب دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الاسلامي : لمحمد بن عميرة . وهو من منشورات المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر (سنة 1405هـ/1984م) . وهذا الكتاب في غاية الأهمية ،لأنه يدرس تاريخ قبائل زناتة ، وانسابهم ، ومواطنهم ،وثوراتهم ، وعلاقاتهم مع دول المغرب الاسلامي ،ونشاطهم المذهبي ،والدول التي اقاموها . وبدون شك ،فان الفائدة التي جناها الباحث من هذا الكتاب معتبرة .

22 ـ كتاب دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها الى منتصف القرن الخامس الهجري :لموسى لقبال ، نشرته الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر (سنة 1400هـ/1979م) . ويشتمل هذا الكتاب الضخم على معلومات في غاية الأهمية ،تتعلق باخبار الامازيغ عامة ،وقبائل كتامة خاصة ،واحلافها ،

وعلاقاتها بدول المغرب الاوسط ، ودورها في قيام الدولة الفاطمية ،وسقوط دول المغرب المتواجدة آنذاك بتلك الربوع . وقد ساعد هذا الكتاب الباحث في التعرف على بعض القبائل ،وتتبع علاقاتها بالدول . وعليه فانه مفيد جدا .

23 ــ كتاب الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي : لعبدالله علي علام . وهو من منشورات دار المعارف بمصر . (سنة 1391هـ/1971م) .
وهذا الكتاب يؤرخ للفترة الزمنية التي نشأت فيها الدولة الموحدية ،ثم خلافة عبد المؤمن بن علي . وقد اشتمل هذا المرجع على معلومات هامة تخص نظم الحكم في دولة الموحدين ،ونشاط القبائل الامازيغية ،والعربية في ظل هذه الدولة ،والحياة الثقافية بها . ومن اهم ما اشتمل عليه هذا المرجع هو شرح النظام الذي وضعه ابن تومرت ،ذلك النظام الذي يرتكز اساسا على القبلية ،ويستمد من العصبية القبلية المدعمة بالروح الدينية القوة والمنفعوان اللذين تميزت بهما الدولة الموحدية . كما يشير الكتاب أيضا الى اضعاف الدور السياسي للقبائل في دولة عبد المؤمن . وعليه فان هذا المرجع الذي كتب بمنهج علمي دقيق قد افاد الباحث في فهم بعض الاحداث التي لها علاقة بالعصبية القبلية ،ومدى تأثيرها على النظم .

24 ــ العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي : لأحسان النص، نشرته دار الفكر ببيروت (سنة 1393هـ/1973م) . وهذا الكتاب يتناول دور العصبية القبلية في العصر الاموي ،واثرها في الشعر ،وقد نجح صاحب الكتاب في بلورة موضوع القبلية ،وتبسيط مفهوم العصبية القبلية . ويشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أبواب : الأول بعنوان جذور القبلية ومقوماتها ،ويتفرع هذا الباب الى اربعة فصول : أولها يدرس الانساب العربية . والفصل الثاني يعالج موضوع المجتمع القبلي والعصبية القبلية . والثالث يبحث في المجتمع الجاهلي واحتدام العصبيات فيه . أما الفصل الرابع فيدرس العصبية في ظل الاسلام . أما الباب الثاني فعنوانه : العصبية القبلية في عصر بني أمية ،ويتفرع الى

ثلاثة فصول : الأول بعنوان الاحوال القبلية فى هذا العصر (عصر بني أمية) . والثاني بعنوان دواعي اشتداد العصبية فى هذا العصر (عصر بني أمية) ، والفصل الثالث يعالج مظاهر العصبية القبلية وأثرها فى هذا العصر (عصر بني أمية) . وأخيرا الباب الثالث وفصوله : أثر العصبية القبلية فى الشعر الاموي ، ويشتمل هذا الباب على خمسة فصول : أولها بعنوان الشعراء والعصبيات القبلية . أما عنوان الفصل الثاني فهو : المناقضات القبلية ، والثالث بعنوان : أساليب الهجاء القبلي ، والفصل الرابع بعنوان : الفخر القبلي . وأخيرا الفصل الخامس الذى يعالج سائر فنون الشعر المتصلة بالعصبيات . وهكذا تتضح أهمية هذا الكتاب من خلال عناوين فصوله . وبالفعل فان فائدته جليلة ، حيث عالج مفهوم العصبية القبلية بتوسع واسهاب . ومع انه يبحث الموضوع فى مكان وزمان يخالف ما اقتصر عليه هذا البحث ، الا أنه افاد الباحث كثيرا .

25 _ <u>كتاب العصبية والدولة . . معالم نظرية خلدونية فى التاريخ الاسلامي</u>: لمحمد عابد الجابري . نشرته دار الثقافة بالدار البيضاء فى المغرب (سنة 1391هـ/1971م) . وهذا المرجع من أهم المراجع التى أفادت الباحث ، واعانته على الفهم الصحيح لموضوع العصبية ، حيث درسها بتوسع ودقة فاقت الدراسات التى وردت فى المراجع الاخرى . والكتاب مقسم الى قسمين : خصص قسمه الثاني بكامله لموضوعي : الدولة ، والعصبية . وهو يشتمل على ثمانية فصول، تليها الخاتمة . وقد عالج صاحب الكتاب موضوع العصبية بمنهج فلسفي مجرد من الشواهد التاريخية . وقد استغل هذا الكتاب فى اعداد البحث ، حيث ساعد على فهم نظرية ابن خلدون المتعلقة بالعصبية والدولة .

26 _ <u>كتاب عصر المرابطين والموحدين بالمغرب والأندلس</u>: لمحمد عبد الله عنان . نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة (سنة 1384هـ/1964م) . وهذا الكتاب يدرس العصر الثالث ، ضمن الموسوعة التى اعدها عنان ، بغرض

كتابة تاريخ وحضارة الاندلس منذ الفتح وحتى طرد الموريسكيين من تلك البلاد ، وخروجها نهائيا من ظل الاسلام . وفائدته انه جمع كل ما كتب عن الدولتين : المرابطية والموحدية . كما اعتمد أيضا على مصادر ومراجع اسبانية ، وهنا تظهر اهمية الكتاب . وقد استفاد منه الباحث من خلال تتبع الاحداث السياسية ، والاجتماعية ، بالاضافة الى موضوع النظم الذي افرد له عنان فصلا مستقلا بالنسبة لكل دولة .

27 ـ كتاب العلامة ابن خلدون : لايف لاكوست (Yves LACOSTE .) ترجمه ميشال سليمان ، وهو من منشورات دار ابن خلدون للطباعة والنشر ببيروت (سنة 1394هـ/1974م) . والفائدة التي جناها الباحث من هذا الكتاب القيم معتبرة ، لأنه يتطرق الى موضوع العصبية القبلية حسب المفهوم الخلدوني ، وكذلك لموضوع الدولة ، ونظرية ابن خلدون في نشأتها . وقد تم اعداد هذا الكتاب بمنهج يراعي وجهة النظر الماركسية ، اما النسخة الفرنسية منه فعنوانها .

IBN KHALDOUN , naissance de l'histoire passé du tiers monde .

28 ـ كتاب العمران البشري في مقدمة ابن خلدون : لسفيتلانا باتسيفاه قام بترجمته من اللغة الروسية رضوان ابراهيم ، وهو من منشورات الدار العربية للكتاب (ليبيا ـ تونس) (سنة 1398هـ/1978م) ، وترجمة الكتاب تجعل القارئ يعتقد بأنه عبارة عن تلخيص لمقدمة ابن خلدون ، خاصة وأنه كتب بأسلوب صاحب المقدمة نفسه . ومع هذا فان للكتاب قيمة معتبرة ، لأنه يدرس فكر ابن خلدون ، بخصوص العمران البشري بمنهج جديد ، يخالف المألوف ، بالاضافة الى ظهور الاثر الماركسي على كاتبة الكتاب . وأهم فصل في الكتاب افاد الباحث هو الفصل الرابع الذي يشتمل على العناوين التالية :

ـ نظرية ابن خلدون في فلسفة التاريخ . ـ مقدمة ابن خلدون والعلم الجديد .
ـ النظرية الاجتماعية لابن خلدون . ـ الاحوال العارضة لحياة المجتمع .

- نظرية التطور التاريخي للمجتمع . - التنظيم السياسي للمجتمع . وضمن هذا الأخير تعرضت المؤلفة لمفهوم العصبية عند ابن خلدون .

29 - <u>كتاب فجر الاندلس (دراسة في تاريخ الاندلس من الفتح الاسلامي الى قيام الدولة الاموية</u> : لحسين مؤنس، نشر الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة (سنة 1379هـ/1959م) . والكتاب لا يكتفي بتاريخ الفتح في الاندلس، بل يتعرض ايضا لبلاد المغرب . وأهم ما استفيد من هذا الكتاب الفصول التي ذكرت قبائل العرب، وقبائل الامازيغ، وما حدث بينهم جميعا من صراعات، وفتن، ومبعثها العصبية القبلية . وبذلك فان الفصل الخامس وعنوانه : صراع العرب والبربر، والفصل السادس وعنوانه : القيسية واليمنية، والفصل التاسع وعنوانه المجتمع الاندلسي (العرب والبربر والموالي)، والفصل العاشر وعنوانه : المجتمع الاندلسي (المولدون والمستعربون)، والفصل الحادي عشر وعنوانه : الادارة والمال، كل هذه الفصول استغلت من قبل الباحث، وقد افادته فائدة كبيرة، خاصة عند تتبع الآثار الهدامة التي خلفتها العصبية القبلية بتلك الديار .

30 - <u>كتاب الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي من الفتح العربي حتى اليوم</u>: للمستشرق الفرنسي الفردبل، تعريب عبد الرحمن بدوي . وهو من منشورات دار الغرب الاسلامي ببيروت (سنة 1402هـ/1981م) . وهذا الكتاب وان كان مخصصاً للمذاهب التي عرفت ببلاد المغرب، الا أنه يدرس أيضا تاريخ بلاد المغرب بايجاز، ودقة، وعمق . والكتاب عبارة عن حصيلة قيمة للفكر المذهبي ببلاد المغرب، منذ العصور القديمة، وان كان عنوانه محددا بالفتح الاسلامي . وعليه فقد افاد الباحث كثيرا . خاصة في تتبع النظم الدينية، والثقافية بالمغرب، واثر بعض القبائل تجاه تلك النظم . أما الأصل الفرنسي فقد نشر في باريس من طرف مكتبة المستشرقين (سنة 1357هـ/1938م) تحت عنوان .

La religion Musulmane en Berberie (Esquisse d'histoire et de Sociologie religieuses).

31 — **كتاب الفكر الاخلاقي عند ابن خلدون** : لعبد الله شريط . من منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر (سنة 1395هـ/1975م) . وهو ذو طابع فلسفي بحت . وقد بوبه صاحبه في ثلاثة ابواب : الأول للفكر الاخلاقي والحضارة ، والثاني للفكر الاخلاقي والسياسة ، والثالث للفكر الاخلاقي والثقافة . وقد استفاد الباحث من الباب الثاني الذى عالج موضوع الدولة العربية في فكر ابن خلدون ، بالاضافة الى موضوع البداوة وآثارها . كما أن الفصل السادس (مشكلة الانسان العربي) من الباب الأول أيضا يستحق التنويه ، لما فيه من الفائدة .

32 — **كتاب فلسفة ابن خلدون الاجتماعية** : لطه حسين . طبعته دار الكتاب اللبناني ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين (سنة 1395هـ/1975م) . وهو عبارة عن اطروحة دكتوراه قدمها صاحبها بالفرنسية للسوربون . وقد نقلها عبد الله عنان الى العربية . وهذا الكتاب مبوب الى عشرة فصول صغيرة ، استفاد منها الباحث ، وخاصة الفصول : الخامس ، والسادس ، والسابع ، والثامن ، والتاسع . لأنها تدرس المفهوم الخلدوني للدولة ، والعصبية . غير انه يجب التنبيه هنا أن كتاب طه حسين هذا قد تعرض مؤخرا لنقد كثيف من قبل المختصين ، بحيث ظهر انه يحتوى على اخطاء كثيرة ، ويعزى ذلك الى قلة الدراسات الخلدونية عندما كتب طه حسين كتابه ، خاصة بالعربية . كما انه كتبه في مستهل حياته العلمية .

33 — **كتاب القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين وبني مرين** : لأبي ضيف أحمد عمر . وهو من منشورات ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر (سنة 1403هـ/1982م) . وقد درس هذا الكتاب القبائل العربية بالمغرب ، وتتبع أدوار تلك القبائل في تاريخ دول المغرب ، في عهود كل من : الموحدين ، والحفصيين ، والعبد الواديين ، والمرينيين . ثم عالج أثر القبائل العربية في الحياة المغربية ، ومدى تأثير القبلية على الدول ونظمها . وبذلك يتضح أن لكتاب

القبائل العربية أهمية خاصة بالنسبة لهذا البحث .

34 - **كتاب قبائل المغرب** : لعبد الوهاب بن منصور . نشر المطبعة الملكيـــة بالرباط . (سنة 1388هـ/1968م) . خصص هذا الكتاب لتاريخ المغرب الاسلامي، وتاريخ قبائله . والذي يهم فيه في الحقيقة لا يتجاوز المعلومات التي تخص القبائـل الامازيغية ، والعربية المنتشرة في بلاد المغرب كافة . وعليه فقد استغل من هــذا الجانب .

35 - **كتاب المغرب الاسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخــوارج (سياسة ونظم)** : لموسى لقبال . وهو من منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيـع بالجزائر (سنة 1402هـ/1981م)، استغل هذا المرجع في اعداد الفصل الأو ل من هذا البحث . كما انه قد تضمــن فصلا صغيرا درس فيه لقبال موضوع العصبية وهو تحت عنوان : أثر العصبية القبلية في الولاية الجديدة وتوابعها . والمقصــود هنا ولاية افريقية ،وعليه فان هذا الكتاب جدير بالتنويه .

36 - **كتاب منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته** : لعلي الــــــوردي . نشرته الشركة التونسية للتوزيع (سنة 1398هـ/1977م) . وهذا المرجع وأن كان يميل الى التفسير الفلسفي والمنطقي ،فانه لا يخلو من فائدة . وبالفعل فـــان فائدته كبيرة ،لانه يقرب الفكرة التي ارادها ابن خلدون الى الاذهان،خـــاصة فيما يتعلق بنشأة الدولة، والعصبية .

37 - **كتاب ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية** : لحسن حسني عبــد الوهاب . وهو من منشورات مكتبة المنار بتونس (ما بين سنتي 1386هـ/ 1966م - 1392هـ/1972م) . وهذا الكتاب يبحث المواضيع الثقافية ، والحضاريـــة ، والعمرانية ببلاد تونس حتى العهد الحفصي ،وهو مفيد للغاية ،وقد ساعد الباحث في تتبع بعض النظم الثقافية ، والدينية ، والاجتماعية ،واثر القبلية فيها .

38 - La Berberie orientale sous les Hafside (DES ORIGINES A LA FIN DU XVe SIECLE) : PAR ROBERT BRUNSCHVIC. LIBRAIRIE D'AMERIQUE ET D'ORIENT , PARIS 1982.

لهذا الكتاب اهمية كبيرة بالنسبة للبحث ،لأنه يتزامن معه ، ويدرس مجتمعا يهمه . والأهم من ذلك المنهج الذى كتب به هذا الكتاب الذي يبرز من خلاله النظم السائدة فى العهد الحفصي ،كما يدرس نشاط القبائل بالمغرب ، وعلاقاتها بالدولة ،وبالنظم السائدة آنئذ . وجملة القول فان هذا الكتاب ،وأن انتمى صاحبه الى المدرسة الاستعمارية ، الا أنه اكثر نزاهة من زميله غوتييه . وعليه فقد استغل الباحث هذا المرجع فى اعداد بحثه على احسن وجه .

39 - <u>La Berberie Orientale sous les ZERIDES (Xe - XII SIECLES)</u> : Par HADY ROGER Idris .

Librairie d'Amérique et d'Orient , PARIS 1962.

كتب هذا الكتاب على غرار كتاب بروشفيق ،حيث أن روجي أدريس كان متأثرا تأثيرا واضحا بسلفه صاحب كتاب بلاد البربر الشرقية فى ظل الحفصيين . ولقد ساعد هذا المرجع الباحث فى تتبع حركة القبائل الصنهاجية ،والزناتية ، والهلالية . كما ساعده أيضا على ملاحظة أثر القبلية على مؤسسات الدولة ونظمها . وأهم ما في الكتاب هو المنهج الجيد الذى اعد به . وعليه فقد استفاد منه الباحث ،واستغله فى كتابة الفصل الأول بصفة خاصة .

40 - <u>La Berberie Musulmane et l'Orient au moyen Age : Par GEORGES MARCAIS</u> .

Edition montaigne , PARIS.

كتب هذا المرجع بعقلية لاتختلف كثيرا عن عقلية غيره من المؤرخين الفرنسيين . واهم ما فيه انه يشرح حركة القبائل العربية والامازيغية ،والعلاقات التي تمت بين الطرفين ،واثر القبلية على نظم الدول التى نشأت ببلاد المغرب كافة . ومع هذا فهو لايخلو من فائدة . هذا وقد كتب هذا المؤرخ كتابا آخر تتبع خلاله حركة القبائل العربية بالمغرب ،واعتمد فيه على ابن خلدون . وهو مفيد جدا وعنوانه :

Les arabes en Berberie (du XI - au XIVe SIECLE , CONS-- TANTINE et PARIS , 1913 .

41 - Les états de l'Occident Musulman aux XIIIe , XIVe et XVe SIECLES : Par ATALLAH DHINA , Office des Publications Universitaires , ALGER, 1984.

يبحث هذا المرجع في نظم دول المغرب والاندلس خلال العصر مابعد الموحدين . وضمن ابحاث الكتاب تتجلى الادوار التى لعبتها قبائل المغرب ، وأثرها على النظم آنئذ . وعليه ففائدة الكتاب أمر لاشك فيه ، لكون النظم ، والقبلية من الاهتمامات الأساسية للباحث ، وخاصة عندما تتزامن الاحداث والظواهر مع بعضها بعضا .

42 - Le passé de l'Afrique du nord (Les Siècles Obscurs):

Par EMILE FELIX GHAUTIER . PAYOT , PARIS, 1952.

فعلى الرغم من النفسية المظلمة ، والعقلية القاتمة التي كتب بها هذا الكتاب ، الا أنه لا يخلو من فوائد . خاصة فيما يتعلق بتتبع حركة التجمعات القبلية في بلاد المغرب ، بالاضافة الى الفصل بين القبائل البدوية ، والقبائل الحضرية . أن كل قارئ لكتاب غوتييه يتوهم منذ اللحظات الاولى بأن كاتب الكتاب يتصف بالدقة وضبط المنهج ، ولكن سرعان ما تنكشف حقيقة ذلك الكاتب . اذ لا يختلف عن أى مؤرخ استعماري ، يحاول ايجاد تبريرات ، وفتاوى للواقع الاستعماري . وعليه فان التحري والحذر عند قراءة هذا الكتاب واجب ومطلب منهجي وضروري . لذا فان ما يبدو جرأة وطرافة لدى بعضهم في كتابات غوتييه ليس في الحقيقة الا من باب خالف تعرف ، أو من باب تعتيم الحقائق بالاساليب الشاذة والغريبة . ومع هذا فان الباحث استفاد بقدر الامكان من هذا الكتاب .

43 - La pensée Sociologique d'IBN KHALDOUN :

PAR ABDELGHANI MEGHERBI, ENTREPRISE NATIONALE DU LIVRE , ALGER 1977.

اعد هذا الكتاب بمنهج علمي دولمس الغاية ، وقد اشتمل على فصول هامة جدا مثل : الفصل الخامس وعنوانه : البادية ، والفصل السادس وعنوانه : العصبية ، والفصل السابع وعنوانه : الحضارة .

وقد استفاد الباحث من هذا المرجع فائدة كبيرة خاصة في فهم نظرية ابن خلدون تجاه العصبية ، والحضارة ، والبداوة . هذا وقد نشر عبد الغني مغربي من قبل خلاصة لهذا الكتاب باللغة العربية ضمن سلسلة ((للجميع)) التي نشرتها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر (سنة 1971) ، وهي على الرغم من صغر حجمها الا أنها ذات فائدة كبيرة .

44- LE ROYAUME ABDELOUADIDE A L'EPOQUE D'ABOU HAMMOU MOUSSA 1° ET D'ABOU TACHFINE 1° PAR ATALLAH DHINA .OFFICE DES PUBLICATIONS UNIVERSITAIRES . ALGER , 1985 .

يدرس هذا الكتاب تاريخ الدولة العبد الوادية في عهد اثنين من سلاطينها الأقوياء . وقد تضمن الكتاب على معلومات هامة جدا ، تتعلق بالنظم ، ونشاط القبائل آنئذ . وعليه فقد افاد الباحث ، ويستحق التنويه .

وثمة مصادر ومراجع اخرى تم الاطلاع عليها ولكنها لم تحتل المرتبة الاولى ، وعليه فقد اكتفى الباحث بالاشارة اليها ضمن قائمة المصادر والمراجع بآخر البحث .

الفصل الاول

دور العصبية القبلية في قيام الدول وسقوطهـا
ونشاط الحضارة وافولهـا بالمغرب منذ الفتح

يتضح من عنوان هذا الفصل التمهيدي بأن للموضوع شقين : أولهما يتعلـق بنشأة الدولة وسقوطها ،وثانيهما يعالج نشاط الحضارة وافولها ،وذلك من خـلال تأثير ظاهرة العصبية القبلية عليهما . وستتم معالجة الشقين ـ ضمن هذا المجـال ـ في سياق واحد ،دون اللجوء الى الفصل بينهما ،لانهما متكاملان ، ويـدوران معا في حلقة واحدة .

فعند التأمل في موضوع نشأة الدولة ينساق الذهن للوهلة الأولى نحو ايجاد تصور للكيفية التي نشأت بها الدولة الأولى في المجتمع الانساني عموما . ويبـدو أن هذا أشد اغراء من الاكتفاء باستقراء الطريقة التي قامت بها دولة على انقـاض دولة أخرى ،وبفضل هذا الفصل والفصل الموالي ستتضح الصورة للكيفية التي تنشأ بهـا الـدولة .

وفي هذا السياق سيتحتم على الباحث الاعتماد على نظرية ابن خـلـدون، لكونه اصدق مفسر لنشأة الدولة بالمغرب الاسلامي بصورة خاصة والمجتمعات الاسلامية عامة . ونشأة الدولة ـ في الحقيقة ـ ليست سوى خطوة سبقتها خطوات عديدة فـي مسيرة الانسان نحو التمدن والتحضر ،حيث يتبع نشأة الدولة في الغالب نشـاط حضاري ،وازدهار تمدني . وبالمقابل ينجر عن سقوط الدولة انهيار حضاري ،وتقهقـر في المكتسبات المدنية .

أن المجال هنا لايتسع للحديث عن أثر العصبية القبلية في بلاد المغـرب قبل الفتح الاسلامي . وتكفي الاشارة باختصار لاثرها في المغرب الاسلامي منذ الفتح ، وذلك رغبة في التوضيح واستكمال الصورة .

تتميز بلاد المغرب بظاهرة اجتماعية بارزة اثرت في مسار تطورها ،واستقـرار

دولها . وتتمثل تلك الظاهرة في كثرة القبائل ،وتباينها ،وتعدد العصبيات واختلافها . وقد اكتشف هذا عبد الرحمن بن خلدون ،فخصص فصلا في مقدمته لهذه الظاهرة بعنوان : ((فصل في أن الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلّ أن تستحكم فيها دولة)) (1) .

وقد أعطى امثلة في هذا الباب من بلاد افريقية والمغرب دوقارن ذلك الامر ببلاد اخرى تتميز بضعف العصبية ،وقلة القبائل . وذكر بأن المسلمين عند الفتح واجهوا في افريقية والمغرب مقاومة شديدة لم يلقوها في بلدان اخرى آنئذ . ثم ضرب مثلا بالعراق والشام أيام الفتح الاسلامي . وعلل استقرار الامر في تلك الديار بكون حامية الدولة آنذاك كانت من الفرس والروم . أما بقية السكان فكما يقول : ((دهماء وأهل مدن وأمصار)) (2) .

ومع ذلك عقد مقارنة مع بلاد المغرب فقال : ((والبربر قبائلهم أكثر من أن تحصى وكلهم بادية ،وأهل عصائب ،وعشائر وكلما هلكت قبيلة عادت الاخرى مكانها ،والى دينها من الخلاف والردة ،فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن افريقية والمغرب)) (2) . ثم يذكر بأن سكان المغرب قد ارتدوا اثنتي عشر مرة . (2)

فما الذي يفهمه القارئ من هذه الاقوال ؟

يبدو أنها بمثابة شاهد على ما للعصبية من اثر في نشأة الدول وسقوطها بهذه الديار . ففي بلاد المغرب تعرض المسلمون لصعوبات جمة ،في سبيل ترسيخ سلطانهم ،وتثبيت دعائم الدولة الاسلامية . وربما لم يتحقق لهم شيء من ذلك الا في عهد موسى بن نصير (3) ،ولكن استتباب الأمر لم يدم طويلا ،ثم عادت الفتن والانشقاقات من جديد ،ودون توقف . ويرجع السبب في ذلك الى

(1) — ج : 2 ،ص : 649/646 .

(2) — ابن خلدون : المقدمة ،ج : 2 ،ص : 647 .

(3) — ابن خلدون : العبر ،ج : 6 ،ص : 205 . المقدمة ،ج : 2 ،ص : 647 . ويرى المالكي في رياض النفوس بأن افريقية قد استقام حالها في عهد حسان بن النعمان ،ج : 1 ،ص : 57 . وذلك ما قاله الرقيق القيرواني في تاريخ افريقية والمغرب ،ص : 64 .

العصبية الجياشة ، والطابع القبلي الذي يتميز به المغرب ، وظاهرة البداوة في تلك الربوع .

لأنّ الامازيغ كما سبق ذكره أهل عصبيات وانساب . ثم يضيف ابن خلدون في موضع آخر : ((وأيضا الصنائع بعيدة عن البربر ، لأنهم أعرق في البداوة ، والصنائع من توابع الحضارة .... وأيضا فهم أهل عصبيات وانساب ، ولا يخلو من ذلك جمع منهم ، والانساب والعصبية أجنح الى البدو)) . (1)

حقيقة أن المقاومة التي واجهها المسلمون عند بداية فتحهم لافريقية والمغرب كان يغذيها البيزنطيون في غالب الأحيان . وكانت مقاومة تقتضيها طبيعة الاحداث ، لأن الامازيغ لم يتعرفوا خلالها على الاسلام والمسلمين كما هو مطلوب ، وعليه فان العصبية الامازيغية لعبت دورا خطيرا على استقرار الاسلام في المغرب . وماتكث كسيلة (2) وحربه للمسلمين الانمرة من نعرات العصبية ، وربما دخلت في هذا الاعتبار مقاومة الكاهنة (3) ، وقومها جراوة للفاتحين أيضا .

---

(1) — ابن خلدون : المقدمة ، ج : 3 ، ص : 989/990 .

(2) — أنظر المالكي : رياض النفوس ، ج : 1 ، ص : 40/41 . وابن عذاري : البيان المغرب ، ج : 1 ، ص : 28/29 . موسى لقبال : المغرب الاسلامي ص : 44/48 .

(3) — كانت الكاهنة (اقليدة) ، أي رئيسة على قبيلة جراوة من البتر ، وهم أهل بداوة ، وانساب ، وعصبية . وتصرفها المتناقض تجاه المسلمين يبعث على الحيرة . فاطلاقها لاسرى المسلمين الثمانين ، وتبنيها لخالد بن يزيد وعدم محاسبته على عملية التجسس التي قام بها ، كل ذلك يتناقض ولا ينسجم مع شدة مقاومتها للمسلمين ، تلك المقاومة التي كان من المفروض أن يغذيها الحقد والكراهية . وموقفها هي ذاتها تجاه الاسلام ، يتناقض أيضا مع وصيتها لولديها ، حيث فضلت المقاومة حتى الموت ، بينما أوصت ولديها بالالتحاق بالمسلمين . كل هذه التساؤلات تبحث عن اجابة ، وربما تسنى ذلك في مجال غير هذا (انظر خبر الكاهنة في كتاب ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص : 270/271 . والمالكي : رياض النفوس ، ج : 1 ، ص : 50/55 . وابن عذاري : البيان المغرب ، ج : 1 ، ص : 35 / 38) .

ومع هذا فان الامر استتب للمسلمين بعض الوقت ، بفضل حنكة بعض الـــولاة ، وحسن سياستهم . (1) غير أن ذلك لم يدم طويلا . وقد كانت العصبية القبليـــة اهم عوامل الهدم والتفريق ، التي اشعلت أتون الفتنة بالمغرب كافة . فانقســـم المغرب الاسلامي الى عصبيات عديدة متضادة ، فنشأ صراع بين العرب الامويين من جهة ، وبين الامازيغ من جهة اخرى ، (2) ثم انقسم العرب كذلك الى عـــرب القيروان وعرب مستجدين ، (3) قدموا الى افريقية حديثا ، بالاضافة الى انقســام الفاتحين الى قيسية ، وكلبية (4) .

---

(1) — كأبي المهاجر ، وحسان ، ومحمد بن يزيد ، اسماعيل بن عبد اللـــه ابن أبي المهاجر .

(2) — أنظر الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ، ص : 109/111 . ابن عذاري : البيان المغرب ج : 1 ، ص : 51/54 . وحسين مؤنـــس : فجر الاندلس ، ص : 142/208 . وموسى لقبال : المغرب الاسلامـــي ، ص : 155/174 . ومحمد بن عميرة : دور زناتة في الحركة المذهبية ، ص : 54/55 .

(3) — انظر قدوم جند الشام بقيادة كلثوم بن عياض ، وما جرى بينهم وبين أهـــل القيروان لدى الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ، ص : 112 / 113 . وابن عذاري : والبيان المغرب ج : 1 ، ص : 54/55 .

(4) — يقولون القيسية أو المضرية ، أو النزارية ، والمعدية ، أو العدنانيـــة ، نسبة الى قيس عيلان بن مضر بن نزار بن عدنان ، وهم عرب شمال شبه الجزيرة . أما اليمنية ، والكلبية ، والقحطانية ، فهم عرب الجنوب ، وينتسبون الى حمير ابن سبأ بن قحطان . ويبدو أن تقسيم العرب الى عصبية قيسية ، وعصبية يمنية لم يكن متهما في الجاهلية ، حيث كان التقسيم محصورا ضمن عصبيات ضيقـــة بعض الشيء . أي في مستوى القبيلة أو البطن . ولم تتسع ظاهرة العصبيـــة بحيث تشمل الشعب أو الجذم . وقد ظهرت القيسية واليمنية أول مرة فـــي صدر الاسلام ، وبالتحديد في عهد بني امية (انظر جواد علي : المفصـــل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج : 1 ، ص : 493/494 . واحسان النص : العصبية القبلية وأثرها في الشعر الاموي ، ص : 141/144) .

وهكذا كان المغرب آنئذ يتخبط في صراعات لا نهاية لها . أخطرها كانت تلك الصراعات ، والفتن ، التي نشبت بين الامازيغ ، والامويين ، بسبب تعسف بعض ولاة الدولة الاموية . وسوء تسييرهم وعصبيتهم . (1) وقد ادى ذلك كله الى نمو وترعرع الاحزاب ، والفرق المعارضة لطبيعة الحكم الاموي ، والحكم العباسي فيما بعد ، ومن تلك الفرق الخوارج (2)

---

(1) — كيزيد بن أبي مسلم وعبيد الله بن الحبحاب (انظر الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب . وحسين مؤنس : فجر الاندلس ، ص : 145 ، موسى لقبال : المغرب الاسلامي ، ص : 104 — 155/157 .)

(2) — ظهر المذهب الخارجي في عهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، بعد التحكيم ، بوقعة صفين . ولهذا المذهب طابع سياسي ، ممزوج باصول دينية ، تدور اساسا حول فكرة الامامة ، ونظرية الحكم في الاسلام . وعرفوا بالخوارج لخروجهم وانفصالهم عن علي واتباعه ، وخلعهم له ، فاعتبرهم أهل السنة بذلك خارجين عن الصف . وقد رفض اصحاب هذا المذهب شعار ((الائمة من قريش)) ، وقالوا بشرعية الامامة لكل مسلم صالح ، ويتم اختياره بحرية مطلقة . ولا فرق في ذلك بين عربي أو أعجمي ، أو بين حر وعبد . ومع مرور الوقت اختلفت آراء اصحاب المذهب الخارجي ، فانقسموا الى عدة احزاب فرعية ، وصلت الى العشرين حزبا تقريبا ، اشهرها : الازارقة ، نسبة الى نافع بن الازرق ، وهم من غلاة الخوارج ، ثم النجدات ، ويتبعون نجدة بن عامر ، والاباضية ، وهم اتباع عبد الله ابن اباض التميمي ، وهم من أقرب هذه الفئات للمذهب السني ، اذ لم يغالوا في احكامهم تجاه غيرهم من المسلمين . ثم الصفرية أصحاب زياد ابن الاصفر ، وهم اقرب الى الازارقة في الغلو . وقد دخل المذهب الخارجي الى افريقية والمغرب ، مع الفاتحين المسلمين ، فاعتنقه بعض الامازيغ ، انبهارا منهم بتلك التعاليم التي تدعو الى الديمقراطية ، والمساواة ، والحرية . وساعد على انتشار ذلك المذهب سلوك بعض الفاتحين والولاة ، ذلك السلوك السيء الذي يبعث على الثورة والتمرد . (وللمزيد من التفاصيل انظر الشهرستاني : الملل والنحل ، ج : 1 ، ص : 114 / 138 . ورينهارت دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا ، تعريب حسن حبشي ، ج : 1 ، ص : 91/108 . والفردبل : الفرق الاسلامية ، تعريب

والشيعة (1)، بالاضافة الى برغواطة (2)، المرتدين عن الاسلام .

والذى ساعد على استفحال الروح العصبية واتساع نطاقها ، أن بعض الفاتحين لم يتخلصوا من الطابع القبلي ، والعُبِيَّة الجاهلية ، فاضحى المغرب نتيجة لذلك مسرحا للصراعات القبلية، ومرتعا للعصبية الجياشة ، فانقسم الفاتحون الى عصبية قيسية ، وعصبية كلبية . والغلبة تكون للعصبية التى ينتمي اليها الوالى الذى يعينه الخليفة الاموى على افريقية

= عبد الرحمن بدوى ، ص : 140 / 150 . وأحمد أمين : فجر الاسلام ، ص : 256 / 265 . وموسى لقبال : المغرب الاسلامي ، ص : 151 / 163 . وموسى لقبال وآخرون : الجزائر في التاريخ ، ج : 3 ، ص : 62 / 67 .

(1) — الشيعة هم أصحاب واتباع علي كرم الله وجهه . ويعتقدون بأنه أحق الناس بخلافة رسول الله . ويقولون بوجوب حصر الخلافة أو الامامة فى أهل بيت رسول الله فقط . وقد انقسمت الشيعة أيضا الى فرق عديدة ، منها : الزيدية ، وهم اصحاب زيد بن حسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . ثم الامامية التى تفرعت عنها احزاب عديدة اشهرها الاثنا عشرية . وتاريخ دخول المذهب الشيعي بشكل واسع الى المغرب يمكن تحديده بدخول الدعوة الفاطمية فى أواخر القرن الثاني الهجرى ، لأن صاحب الدولة الادريسية — وأن كان من أهل البيت — لم يسن أو يعلن مذهبا شيعيا ، كما هو الشأن فى الدولة الفاطمية . (للتوسع انظر الشهرستاني : الملل والنحل ، ج : 1 ، ص : 146 / 198 . وابن خلدون : المقدمة : ج ، ، ص : 697 / 708 . والفردبل : الفرق الاسلامية ، تعريب عبد الرحمن بدوى ، ص : 151 / 166 . وأحمد أمين : فجر الاسلام ، ص : 266 / 278 . وموسى لقبال : المغرب الاسلامي ، ص : 147 / 151 . ودوركتامة فى تاريخ الخلافة الفاطمية ، ص : 193 / 209 .

(2) — انتشر هذا المذهب ، أو بالاحرى النحلة — فى ظل برغواطة . ويقول ابن خلدون بانهم من المصامدة ، ويقول غيره بانهم مجموعة قبائل مختلفة كان يرأسها (طريف) فى البداية ، وهو من الصفرية واحد قادتهم ، تحت ميسرة المطغرى ، وكذلك ابنه صالح الذى رافق والده فى قتال جيوش بني امية . ولكن صالحا هذا نسبت اليه النبوة فيما بعد ، حيث انتحل اتباعه ديانة وقرآنا ، وربما =

والمغرب (1) .

لقد انتقلت عدوى العصبية القيسية ، واليمنية ، الى افريقية والمغـــرب بواسطة الفاتحين . وشجع تلك الظاهرة خلفاء بني امية ، خاصة : يزيد بن عبد الملك ، (2) وهشام بن عبد الملك . (3) ولما كان المغرب الاسلامي منـــذ البداية يعج باهل اليمن ، فان القادمين من أهل الشام ، وشمال شبه الجزيرة اضحوا غير مرغوب فيهم ، بذلك اضطهد الولاة من كلتا الفئتين بعضهم بعضا (4) . وقد يكون بشر بن صفوان الكلبي أول من التجأ الى أهل عصبيته ، فاحاط نفسه بهم (5) . ولكنه سرعان ما عزل ، بعد موت يزيد بن عبد الملك ، واعتلاء هشام ،

---

* تكون هذه النحلة قد ظهرت في سنة 227هـ/841م ، في عهد هشام بن عبـــد الملك . وقد استفحل امر برغواطة ، ولم تتمكن من اسقاط دولتهم الاجيوش لمتونة ، من المرابطين ، في النصف الاخير من القرن الخامس الهجري (انظر البكـــري : المغرب في ذكر بلاد المغرب ، ص ص : 134/141 . وابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص ص : 428/435 . وابن عذاري : البيان المغرب ، ج : 1 ، ص ص : 56 / 57 ــ 223/227 . والفردبل : الفرق الاسلامية ، تعريب عبد الرحمن بـــدوي ، ص ص : 173/180) .

(1) ــ انظر دوزى : تاريخ مسلمي اسبانيا ، تعريب حسن حبشي ، ص ص : 138/ 153 . وحسين مؤنس : فجر الاندلس ، ص ص : 209/239 . وموسى لقبال : المغرب الاسلامي ، ص ص : 104 ــ 119/120 . وموسى لقبال و آخـــرون : الجزائر في التاريخ ، ج : 3 ، ص ص : 60/62 .

(2) ــ حكم من 101هـ/720م الى 105هـ/724م .

(3) ــ حكم من 105هـ/724م الى 125هـ/743م .

(4) ــ القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ، ص ص : 102/109ــ112/113 ، 123/125 . ابن عذاري : البيان المغرب ، ج : 1 ، ص ص : 49/52 ــ 54/56ــ60/63 . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج : 4 ، ص ص : 223ــ 260ــ278/279 . ودوزى : تاريخ مسلمي اسبانيا ، ج : 1 ، ص ص : 150/ 151 . ومؤنس : فجر الاندلس ، ص ص : 142/145 ــ وموسى لقبـــال : المغرب الاسلامي ، ص ص : 105/106ــ119/120 .

(5) ــ موسى لقبال : المغرب الاسلامي ، ص : 105 .

الذي عين قيسيا متعصبا (وهو عبيدة بن عبد الرحمن السلمي القيسي)واليا على افريقية والمغرب ،فاضطهد هذا الأخير أهل اليمن من الكلبيين ،(1) مما حدا بأبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي (2) ،الى ارسال ابيات من الشعر للخليفة هشام ذكره فيها بمواقف الكلبيين من بني أمية وفيها يقول :(3):(طويل)

أفَأْتُمْ بَنِي مَرْوَانَ قَيْسَا دِمَاءَنَا ... وَفِي اللَّهِ إِنْ لَمْ تُنْصِفُوا حَكَمٌ عَدْلُ
كَأَنَّكُمْ لَمْ تَشْهَدُوا مَرْجَ رَاهِطٍ ... وَلَمْ تَعْلَمُوا مَنْ كَانَ ثَمَّ لَهُ الْفَضْلُ
تَعَامَيْتُمُ عَنَّا بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ ... وَأَنْتُمْ كَذَا مَا قَدْ عَلِمْنَا لَنَا فِعْلُ

فاغتاظ هشام من عبيدة بن عبد الرحمن ،فعزله ،وعين في مكانه قيسيا آخر ،وهو عبيد الله بن الحبحاب (4) ،الذي تمادى

---

(1) - القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ،ص : 104/106 .ابن عذارى : البيان المغرب مج :1 ،ص : 50/51 . موسى لقبال : المغرب الاسلامي ،ص : 105/120 .

(2) - تولى بعد هذه الحادثة امرة الاندلس ،فكان شديد العصبية ،فاودت به عصبيته الى الهلاك ،بعد أن اشعل الاندلس بالفتن ، والاضطرابات.

(3) - نقلت هذه الابيات من كتاب ابن عذارى : البيان المغرب مج :1 ،ص : 50 . وقد وردت في كتاب القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ، ص : 105 . هكذا : (طويل)

أفَادَتْ بَنُو مَرْوَانَ قَيْسًا دِمَاءَنَا ... وَفِي اللَّهِ إِنْ لَمْ يَعْدِ لُوا حَكَمٌ عَدْلُ
وَقَيْنَاكُمُ حَرَّ الْقَنَا بِصُدُورِنَا ... وَلَيْسَ لَكُمْ خَيْلٌ سِوَانَا وَلَا رَجْلُ
فَلَمَّا بَلَغْتُمْ نَيْلَ مَا قَدْ أَرَدْتُمْ ... وَطَابَتْ لَكُمْ فِيهَا الْمَشَارِبُ وَالْأَكْلُ
تَغَافَلْتُمُ عَنَّا كَأَنْ لَمْ نَكُنْ لَكُمْ ... صَدِيقًا وَأَنْتُمْ مَا عَلِمْتُ لَنَا وَصْلُ

(4) - رينهارت دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا ،تعريب حسن حبشي ، ج :1 ، ص : 142/143 .

في لعبة العصبية . (1) وفي عهده نشبت الثورة التي قادها ميسرة وهي التي كادت أن تنهي الحكم الاموى نهائيا في المغرب ،كل ذلك من جراء النعـــرة القبلية ،والنزعة العصبية .

وبالفعل فان اللعب بالنار يحرق احيانا ،حيث استفحلت ظاهـــرة العصبية القبلية ، واخذت تنخر كيان الدولة الاموية ،وانحدرت بها الــى مهاوي السقوط (2) . وقد غفل خلفاء بني أمية عن الخطورة التي تمثلهـــا العصبية ،وعن فعاليتها و أثرها على استقرار الدولة . ولم يكتشفوا جوانبهـــا السلبية ،اذ اغرتهم بعض الايجابيات الظرفية الزائفة . وهكذا تسببت ظاهرة العصبية في تفكك الدولة ،حيث أقامت بعض القبائل و العصبيات دولا مستقلة في الاطراف ،والقاصية .

ففي المغرب مثلا تمكن زعماء بعض القبائل و الاحزاب من اقامة كيانات، ودول مستقلة عن الدولتين : الاموية والعباسية ،تستند بدورها الى عصبيــة القبائل الأمازيغية .

لقد كان الامازيغ في المغرب الاسلامي يعيشون ضمن قبائل وشعـــوب عديدة ،متفرقة في تلك الربوع . ويرأس هذه القبائل و الشعوب رؤساء وشيوخ لم يصل بهم الحال الى مرتبة الملك القاهر المتحكم في الرقاب .

وحدثت بعض المحاولات الفاشلة منذ البداية لتأليف بعض الـــدول

---

(1) — أنظر القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ،ص ص : 107/109 .— وابن عذاري : البيان المغرب ،ج : 1 ،ص ص : 51/52 .

(2) — جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ،ج : 1 ،ص : 495 . احسان النص : العصبية القبلية واثرها في الشعر الاموي ، ص : 243 . حسين مؤنس : فجر الاندلس ، ص : 142 . موسى لقبال : المغـــرب الاسلامي ، ص : 119 .

والامارات هنا وهناك (1). ويعود سبب فشلها على ما يبدو الى ضعف اللحمة، وعدم تغلب عصبية ما على بقية العصبيات الامازيغية المتحالفة (2). وبالتالي فان تلك الكيانات عجزت عن الوصول الى الملك المتغلب. وظلت في طور الرئاسة والسؤدد الذى يتميز بضعف السلطة، حيث يكون الوازع أو الحاكم في هذه الحال متبوعا دون أن تكون له سلطة قاهرة.

---

(1) — كمحاولة كسيلة الذى بقي 5 سنوات في الحكم، دون أن يصل بقبيلته أوربة الى مرتبة الملك القاهر والمتغلب. (أنظر ابن عذاري : البيان المغرب، ج : 1، ص : 30/32. وابن خلدون : العبر، ج : 6، ص: 217). وكمحاولة الكاهنة التى حكمت هي أيضا 5 سنوات بعد انتصارها على المسلمين، دون أن تحقق لقبيلتها جراوة البترية الملك بعامل الغلبة والقهر. (ابن عذاري : البيان المغرب، ج : 1، ص: 35/38. ابن خلدون : العبر، ج : 6، ص : 119). وربما كانت مدة حكم الكاهنة كلها 35 سنة (العبر، ج : 7، ص : 17). وكمحاولة ميسرة المطغري، وخلفه خالد بن حميد الزناتي من 122 هـ/739م الى 124هـ/741م (ابن عذاري : البيان المغرب، ج : 1، ص: 52/55. ابن خلدون : العبر، ج : 6، ص : 221/222). وكغيرها من المحاولات التى قام بها زعماء الصفرية مثل عكاشة بن محصن الفزاري (وهو في الحقيقة عربي من جند الشام، جاء الى المغرب مع عبيد الله ابن الحبحاب) وعبد الواحد بن يزيد الهواري الصفري الذى تعاون مع عكاشة سنة 124 هـ للقضاء على الامويين بالقيروان (ابن عذاري : البيان المغرب، ج : 1، ص : 58/59. ابن خلدون : العبر، ج : 6، ص : 222/223. ... دبوز : تاريخ المغرب الكبير، ج : 2، ص : 280/ 283). ثم محاولة الاباضية في طرابلس بزعامة الحارث بن تليد الحضرمي، واسماعيل بن زياد النفوسي، ثم أبي الخطاب عبد الاعلى بن السمح (سليمان الباروني : مختصر تاريخ الاباضية، ص : 33. ... دبوز : تاريخ المغرب الكبير، ج : 2، ص : 408/416_432/433).

(2) — أكد ابن خلدون ضرورة توافر بعض الشروط لنجاح العصبية في اقامة دول

وهذا يصدق على الكيانات الصفرية والاباضية . (1) أما الكيانات التي سبقتها كامارة أوربة البرنسية الحضرية بإمرة كسيلة ، وامارة جراوة البترية البدوية بإمرة الكاهنة . فان اهم عوامل فشلهما على ما يبدو هو العامل الديني الذي كان في صف الفاتحين (2) . وذلك بالاضافة الى ماسبق ذكره ، لانهما في الحقيقة لم يتوصلا الى مرتبة الملك الغالب ، والقاهر . لذا فقد فشل جميعهم في انشاء ملك مستقل وقاهر ، وتوقفوا في طور الرئاسة ، ذات السلطات المحدودة . غير أن بعض القبائل الاخرى تمكنت من اقامة دول مستقلة عن الخلافة الاموية والعباسية بعد ذلك . ويرجع السبب في هذا الى وهن عصبية بني امية وتلاشي ظلها عن المغرب .

وبعد سقوط الخلافة الاموية وقيام الخلافة العباسية لم تتمكن هذه الاخيرة من اسقاط تلك الدول المنفصلة عن الخلافة ، بسبب حداثة الدولة العباسية ، وبداية عهدها . وبالمقابل فان تلك الدول المستقلة تتميز بعصبية جياشة ، التحمت بها عصبيات أخرى ، فجعلت منها قوة لا يستهان بها . هذا بالاضافة الى العامل الديني الذي يشد افراد القبائل بعضهم الى بعض ، على انه لايمكن تجاهل ما للعامل الجغرافي من أثر . ومن تلك الدول المستقلة :

= بالغلبة . (أنظر ذلك في بعض الفصول من المقدمة ، ج : 2 ، ص : 598 — 599 — 609) . كما سيأتي شرح ذلك في الفصل الموالي في هذا البحث .

(1) — باستثناء بني مدرار ، والرستميين .

(2) — شرح ابن خلدون نظريته بخصوص فعالية العامل الديني في تعزيز العصبية ومساندتها ضمن الفصول التالية : ((فصل أن العرب لا يحصل لهم ملك الا بصبغة دينية من نبوة ، أو ولاية ، أو اثر عظيم من الدين على الجملة)) . (المقدمة ، ج : 2 ، ص : 626) . ((فصل في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين ، اما من نبوة ودعوة حق)) . (المقدمة ، ج : 2 ، ص : 636) ، ((فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها)) . (المقدمة ، ج : 2 ، ص : 637 / 638) . و ((فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لاتتم)) . وسيأتي شرح ذلك في الفصل الموالي .

1 ـ دول المـــــوان (1) :

يمكن حصرها ضمن ثلاث دول ،نجحت في البقاء ،رغم الاضطرابات التـي اجتاحت المغرب الاسلامي انذاك ،متحدية بذلك الخلافة الاموية ،والخلافـة العباسية . تلك الدول هي : دولة برغواطة (2)، ودولة بني مدرار بسجلماسة والدولة الرستمية بتيهرت . وقد اضفت هذه الدول على نفسها طابعا مذهبيا ، مع شيء من التفاوت بينها .

وفي البدء يجب الاشارة الى أن هذه الدول يغلب عليها جميعا الطابع القبلي البدوي المحض ،معززا بمبادئ مذهبية ،وعقائدية ،اعطتها صبغـــة دينية بارزة ،علما بأن دولة تيهرت كانت متفوقة في نظمها عن اختيها ،وأكثـر استقلالية منهمـــــا (3) .

---

(1) ــ اكتفى الباحث بالدول التي نجحت في البقاء مدة زمنية معقولة . أمـا المحاولات التي ظهرت ثم فشلت فقد اكتفى بالاشارة الى بعضها تـاركـا أمر البقية الى مجال آخر.

(2) ــ أن ايراد دولة برغواطة بين الدول الخارجية مقصود ،لأنها فـــي الحقيقة نشأت في ظل المذهب الصفري ، ثم تمادى احفاد مؤسسها فـي التطرف حتى خرجوا عن الدين الاسلامي نهائيا ،بابتداعهم للنحلــة البرغواطية ،وادعائهم النبوة . وحتى ديانتهم المزعومة لم تظهر الا فـي عهد يونس رابع امرائهم . (أنظر البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقيـة والمغرب ،ص : 136 . ابن عذاري : البيان المغرب ،ج : 1،ص: 224. ابن الخطيب : اعمال الاعلام ،القسم : 3،ص : 184 . ابن خلـــدون: العبر ،مج : 6،ص: 430) .

(3) ــ كانت دولة برغواطة تقدم ولاءها الى الدولة الاموية بالاندلس(انظـر البكري : المغرب ،ص : 135 . ابن الخطيب : اعمال الاعلام :ص : 183. ابن عذاري : البيان المغرب ،ج :1،ص : 224 . ابن خلدون : العبر، مج : 6،ص : 130) . وأما امارة سلجماسة فكانت تدعو لخلفاء بني العباس (ابن خلدون : العبر ،مج :6،ص : 268 . القلقشندي : صبـــح الاعشى ،ج :5،ص: 165).

ومع هذا فان منعة تلك الدول وتحديها للدول الكبرى آنذاك يحث على ذكرها في هذا المجال ،غير أن المعلومات الضئيلة التي أوردها بعض المؤرخين بخصوص تلك الدول لا تفي بالحاجة المطلوبة . وسيبقى أمرها مغلفا بالغموض ما دامت النصوص التاريخية مفقودة .

نشأت الدول الثلاث المذكورة في اعقاب الفشل الذي لحق بالقبائل الصفرية والاباضية ،أمام ولاة افريقية ،والمغرب بالقيروان ،طوال الفترة الزمنية الممتدة من عام 124هـ/741م الى عام 144هـ/761م . فتفرقت القبائل الامازيغية (الصفرية والاباضية) نتيجة لذلك في ربوع المغرب الاقصى والاوسط ،وخاصة في المناطق النائية ،في أقصى البلاد ،وجنوبها .

أن ذلك الفشل الذي لحق بالصفرية والاباضية انجر عنه قيام الدولة الصفرية الاولى بالمغرب الاقصى . وذلك عندما التجأ طريف العقرى (1) الى اقليم تامسنا (2) ،حيث ترأس بعض القبائل

---

(1) ـ يقول البكرى نقلا عن مغير برغواطة للخليفة الاموى بقرطبة : أن طريفا هذا من ابناء شمعون بن يعقوب بن اسحاق (المغرب ، ص : 135) . ويرى ابن الخطيب بأنه مصمودي الاصل ،وأن كان قد اورد ما اشيع عنه ،كونه من بني اسرائيل (أعمال الاعلام ، ص ص : 182/181 . أما ابن خلدون فينسبه لمصمودة ، (العبر ، مج : 6 ،ص ص : 428ـ435/434) .

(2) ـ تامسنا هي المنطقة التي تتواجد بها الآن الدار البيضاء وهي موطن لزناتة . (أنظر الحسن الوزان : وصف افريقية ،تعريب حجي : ج 1، : ص ، 194 . عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ،مج : 1 ،ص : 323) . أما ابن خلدون فيرى بأن اقليم تامسنا موطن للمصامدة ،وليس لزناتة (العبر ، مج : 6 ،ص ص : 428 ـ 435/434) .

هناك من زواغة و زناتة (1) . وبعد موته خلفه ابنه صالح الذى نسبت اليه النحلة البرغواطية (2) .

وقد يتسائل بعضهم : كيف وصل طريف وابنه صالح من بعده الى مرتبة الرئاسة ، والزعامة على قبائل متعددة ، وهما لا ينتميان الى عصبيتها .

يجيب على ذلك ابن خلدون في ((فصل في أنه يحدث لأهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية)) (3) . و بالطبع فان المقصود هنا عصبية صاحب النصاب الذى يلجأ الى عصبية أخرى اذا افتقر لعصبيته الخاصة . وفي هذا الفصل يرى ابن خلدون بأن معرفة الناس لصاحب النصاب الملتجىء اليهم ، و تقديرهم لمنزلته السابقة ، يجعلهم يقبلون برئاسته وسلطانه وبذلك يستعين بعصبية أخرى غير عصبيته ، فيؤسس بواسطتها دولته (4) .

(1) ـ البكري : المغرب ، ص: 135 . وفي موضع آخر يحصي البكري القبائل الخاضعة للامارة البرغواطية فيقول نقلا عن زمور : ((أن بني صالح بن طريف رأس البرغواطيين يركبون وقت أخباره في ثلاثة الاف و مائتي فارس ، وأن قبائل برغواطة الذين يدينون لهم ، وهم على ملتهم : جراوة ، و زواغة ، والبرانس ، وبنو ابي ناصر ، و منجصة ، وبنو ابي نوح ، وبنو واغمر ، ومطغرة ، وبنو بورغ ، وبنو دمر ، ومطماطة ، وبنو وزكسيت ، وعددهم ينتهي أزيد من عشرة آلاف فارس ، وممن يدين لهم من المسلمين ، ينضاف الى ملكهم زناتة الجبل ، و بنو يليت وتمالتة ، وبنو واوسين ، وبنو يفرن ، وبنو ناغيت ، وبنو النعمان ، وبنو افلوسة ، وبنو كونة ، وبنو يسكر ، واصادة ، وركانة ، وايزمين ، ومنادة ، وماسينة ، ورصانة ، وترارتة . ويبلغ عددهم نحو اثني عشر الف فارس ، وليس في عسكرهم طبول ولا بنود)) . نفسه ، ص: 140 / 141) .

(2) ـ نسب احفاد صالح اليه نحلتهم ، لأن هذا الاخير لم يعلنها في حياته . ولم يظهر عليه ما ينكره أو يخالف تعاليم الدين الاسلامي . (وللاستزادة أنظر البكري : المغرب ، ص: 134 / 141 . ابن عذارى : كتاب البيان المغرب ، ج : 1 ، ص: 56 / 57 ـ 223 / 227 . ابن الخطيب : كتاب اعمال الاعلام ، ص: 180 / 187 . ابن خلدون : كتاب العبر ، ج : 6 ، ص: 428 / 435 . السلاوى : كتاب الاستقصا ، ج : 2 ، ص: 15 / 19) .

(3) ـ أنظر ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص: 635 / 636 .

(4) ـ كما حدث في دولة الادارسة ، ودولة الفاطميين (نفسه : ج : 2 ، ص: 635 / 636) .

وهذا ما حدث لطريف وابنه صالح ،لأن طريفا كان وزيرا لميسرة المطغرى (1)، أو قائدا من قواده . (2) فسهل انقياد القبائل المتواجدة بتامسنا لـــــه، تسليما منها لمكانته وفضله . خاصة وأن العامل الديني (المذهب الصفـــرى) عزز اللحمة . لأن الدين يزيل خلق التكبر ،والحسد ،والتنافس (3) . ومــع مرور الوقت نسيت قبائل تامسنا أمر نسب عائلة طريف هذا ،فأضحى منسوبـــا اليهــــــم (4) .

لا شك فى أن عامل العقيدة الممثل بالمذهب الصفرى ــ فى البدايـــة ــ قد لعب دورا هاما في تعزيز التحالف القبلي ،الذى أنشأ امارة برغواطـــة . ومن جهة أخرى فان الروح العصبية للامازيغ التى انبثقت فى شكل مقاومــــة للعصبية الاموية ،قد حثت بعض العشائر ،والقبائل الامازيغية على التحالـــف ضمن عصبية واحدة ،لمواجهة الخطر الذى يهددهم .

كما أن ظهور النحلة البرغواطية ــ فيما بعد ــ قد ساعد على جمع القبائـــل المؤمنة بها (5) ضمن عصبية موحدة وقوية . بالاضافة الى أن تلك النحلـــة المزعومة لاتخلو من النزعة الشعوبية ،التى متنت اللحمة بين العشائر الامازيغية وذلك أن تعاليمهم نشرت بلهجة أمازيغية ،فما يدعون من قرآن ،وطقوس كانـــت

---

(1) ــ ابن الخطيب : أعمال الاعلام ،ص : 181 .

(2) ــ ابن عذاري : البيان المغرب ،ج : 1 ،ص : 57 . ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ،ص : 428 .

(3) ــ ابن خلدون : المقدمة ،ج : 2 ،ص : 626ــ636ــ638/637 .

(4) ــ نفسه : ((فصل فى أن العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب أوما فى معناه)) ج : 2 ،ص : 595/594 . ويقصد ابن خلدون : بعبارة ((أو ما فى معناه)) الولاء والحلف ،وسيأتي شرح ذلك فى الفصـــل المواليـــي .

(5) ــ ذكرت المصادر بان يونس حفيد صالح هو الذى اشاع النحلة البرغواطية ، واجبر الناس عليها بالقوة ،بعد أن قوي سلطانه ،واشتد ملكه ،ولم يقبل الناس نحلته حتى دمر 387 مدينة ،وقتل منهم 7770 قتيلا (البكـــرى : المغرب ،ص : 136 . ابن عذاري : البيان المغرب ،ج : 1 ،ص : 224).

كلها بالامازيغية (1) . وهذا بالطبع قوى اللحمة وعزز النعرة ، فقويت عصبيتهم التى حققت لدولتهم البقاء والاستمرار الى عهد المرابطين (2) . الـذيـن أسقطوا تلك الامارة ، بما امتازوا به من عصبية جياشة معززة بالتعاليم الدينية الفياضة .

يبدو أن هذه الدولة بقيت على طابعها البدوى ، لأنها لم تخلف أية مآثر حضارية تستحق الذكر ، وعليه فقد بقيت دولة البرغواطيين تستند على النظم القبلية حتى سقوطها . ولم تعرف ما عرفته الدول من تطور حضارى ينقاد باصحابها نحو الترف والبذخ . والراجح أن هذه الظاهرة ساعدت على ابقاء هذه الدولة البدوية حتى عهد المرابطين .

---

(1) ـ أورد البكرى بعض الامثلة عن تلك الطقوس باللهجة الامازيغية فيقول :
((وهم يسجدون ثلاث سجدات متصلة ، ويرفعون جباههم وايديهم عن الارض مقدار نصف شبر ، واحرامهم أن يضع احدى يديه على الاخرى ويقول : ابسمن ياكش ، تفسيره بسم الله . مقر ياكوش ، تفسيره الكبير الله . . . ويقولون فى تسليمهم بالبربرية الله فوقنا لم يغب عنه شيء فى الارض ولا فى السماء ، ثم يقول : مقر ياكش ، خمسا وعشرين مرة ، ايحن ياكش ، مثل ذلك ، ومعناه الواحد الله ، وردام ياكش مثل ذلك ، ومعناه لا أحد مثل الله)) ، (المغرب ، ص : 139) .

(2) ـ اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ سقوط الامارة البرغواطية ، فالبكرى يعتقد بأن انقطاع امرها تم على يد الامير تميم اليفرني سنة 420هـ/1029م (المغرب ، ص : 151) . وابن عذاري يقول : ((لم يزل كثير من القبائل على مذهبهم الى عام 352هـ/963م)) . (البيان المغرب ، ج : 1 ، ص : 227) . وابن الخطيب : يرى بأن اللمتونيين هم الذين قضوا على البرغواطيين حوالى 452هـ/1060م . (أعمال الاعلام ، ص : 186) . أما ابن خلدون فيقول بأن تميم بن زيرى بن يعلى (اليفرني) اثخن فى برغواطة ، وشردهم بعد أن استولى على تامسنا ، وذلك سنة 420هـ/1029م . ولكنهم عادوا فيما بعد حتى ظهور المرابطين الذين ابادوهم ، وقضوا على كيانهم حوالي 450هـ/1058م . (العبر ، مج : 6 ، ص : 424) . أما السلاوى فيجعل سنة 451هـ/1059م هي سنة القضاء على البرغواطية نهائيا (الاستقصا ، ج : 2 ، ص : 19) .

أما امارة سجلماسة (1) فنشأت بنشوء المدينة المنسوبة اليها ، وتقـــول المصادر أنها تأسست في سنة 140هـ/757م (2) ، بعد تجمع فئة من قبيلة مكناسة (3) البترية ، وكانوا على نحلة الصفرية ، فشيدوا مدينة سجلماســـة ، ونصبوا أماما عليهم وهو عيسى بن يزيد بن سعد المكناسي (4) : ثم تنكـــروا له وقتلوه شر قتلة ، وولوا عليهم ابا القاسم سمغون بن واسول المكناسي (5).

واستطاعت هذه الامارة أن تحقق بعض الاستقرار والازدهار ، بحكـــم تواجدها في الطريق التجاري الذي يربط غانة بشمال المغرب . وعلـــى الرغم من كونها صفرية المذهب ، خارجية النزعة الا أنها كانت — كسابقتهـا — دولة برغواطة تتبع في نظامها السياسي نظاما ملكيا وراثيا (وهذا يخالـــف المعتقد الصفري) . غير أن نظمها في الحقيقة يغلب عليها الطابع القبلـــي المتميز بروح البداوة الساذجة .

---

(1) — تنسب هذه الامارة الى مدينة سجلماسة ، وتسمى ايضا امارة بني مدرار ، أو امارة بني واسول . وسجلماسة مدينة اندثرت الآن . وكانت تقع في منطقة تافيلالت ، بجنوب المغرب الاقصى . (انظر محمد بن عبد المنعـــم الحميري : الروض المعطار في خبر الاقطار ، ص ص : 305/307) .

(2) — ابن عذاري : البيان المغرب ، ج : 1 ، ص : 156 ، ابن الخطيـــب : أعمال الاعلام ، ص : 139 . ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 267 . محمد بن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار في خبر الاقطار ، ص : 305 .

(3) — مكناسة من بطون ورصطيف بن يحي : وهم من البتر : وأبناء عمـــومة زناتة .

(4) — ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص : 139 . أما عند ابن عـــذاري فاسمه عيسى بن سعيد الاسود (البيان المغرب ، ج : 1 ، ص : 156) . وعند ابن خلدون عيسى بن يزيد الاسود (العبر ، مج : 6 ، ص : 267) .

(5) — أنظر ابن عذاري : البيان المغرب ، مج : 1 ، ص : 156 . ولـــدى ابن خلدون : اسمه سمقو بن مسلان بن أبي يزول (العبر ، مج : 6 ، ص : 267) . أما ابن الخطيب : فقد سماه : أبا القاسم سمغون بن يزيـــلان الصفري ، وينسبه الى زناتة ، واتضح بأنه يخلط بين زناتة ومكناسة (أعمال الاعلام ، ص ص : 139/141) .

ومن جهة أخرى فقد كانوا يخطبون على منابرهم ويدعون لبني العباس (1). وهذا الامر أيضا مخالف لمبادئ الخوارج ، والصفرية بالخصوص . ويبدو أن العصبية الامازيغية المكناسية قد لعبت دورا هاما في نشأة هذه الامارة واستمرار بقائها ، وما المذهب الصفري سوى عامل اضافي عزز العصبية المكناسية وقواها .

ولما هرمت دولة سجلماسة ، نتيجة لضعف العصبية المكناسية ، بدأت الخلافات على السلطة بين أفراد البيت المالك (2) . وهذا الامر أضعف الدولة مما جعلها عرضة للاعتداءات ، فسقطت لقمة سائغة ، في أيدي قبائل كتامة بقيادة ابى عبد الله الشيعي (3) سنة 297هـ/909م . ثم مصالة ابن حبوس المكناسي في جيش من كتامة ومكناسة (4) سنة 309هـ/921م ، ثم اسقطها نهائيا جوهر الكاتب (5) في جيوش كتامة وصنهاجة سنة 347هـ/958م (6) .

---

(1) ـ ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 268 . القلقشندي : صبح الاعشى ، ج : 5 ، ص : 165 .

(2) ـ يمكن الرجوع الى إخبار تلك الامارة وما حدث بين اصحابها من خلاف وانتقاض في كتاب البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص : 148/152 . وابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم : 3 ، ص : 138 / 149 . ابن عذاري : البيان المغرب ، ج : 1 ، ص : 156/157 . وابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 267/273 .

(3) ـ أنظر البكري : المغرب ، ص : 150 . ابن عذاري : البيان المغرب ، ج : 1 ، ص : 157 . ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص : 145 ، وابن خلدون حدد السنة في العبر ـ 296هـ/908م ، مج : 6 ، ص : 262 .

(4) ـ هنا يظهر ضعف عصبية مكناسة ، فهي تحارب الى جانب كتامة ضد أهل عصبيتها اصحاب سجلماسة (ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 270) .

(5) ـ وهو القائد ابو الحسن جوهر الصقلي الذى فتح مصر ، وشيد مدينة القاهرة .

(6) ـ أنظر البكري : المغرب ، ص : 151 . ابن عذاري : البيان المغرب ، ج : 1 ، ص : 222 . ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 271 . أما

فعلى الرغم من الازدهار الاقتصادي النوعي الذى حققته دولة بني مدرار، فانها بقيت دولة بدوية، ذات حضارة محدودة وربما اعاق تطورها الحضاري نظامها القبلي الذى كان سائداآنئذ .

أما دولة تيهرت (1) الاباضية فهي الاخرى خارجية المذهب حسب المصطلح السني . وهذه الدولة تأسست في اعقاب الاضطرابات التى حدثت بين الصفرية والاباضيين من قبائل : هوارة، ونفوسة، وزناتة، ولواته من جهة، وبين ولاة القيروان من جهة أخرى . حيث التحق جل الاباضيين بعبد الرحمن ابن رستم بتيهرت أين اقام دولة الاباضيين الثانية (2) .

وقامت هذه الدولة في حماية قبيلة لماية (3) المتواجدة في جنوب تيهرت، ثم تدعمت بمساندة قبيلتي:

= ابن الخطيب فيجعل سنة سقوط سجلماسة بين ايدى جوهر هي 349 هـ / 960م . (أعمال الاعلام، ص: 148) .

(1) — تقع تيهرت عاصمة الدولة الاباضية على سفح جبل (كزول) على مقربة من (تيارت الحالية)، وربما بعدت عنها بـ خمسة أميال (أنظر البكرى: المغرب، ص: 66/67 . محمد بن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار في خبر الاقطار، ص: 126/127) .

(2) — الامارة الاولى نشأت في طرابلس سنة 140هـ/757م، وسقطت سنة 144هـ/761م، تحت ضربات الجيش العباسي بقيادة محمد بن الاشعث . وقد ساعد على سقوط امارة طرابلس الخلافات التى حدثت بين قبيلة زناتة، وقبيلة هوارة ، بعد أن اتهمت زناتة أبا الخطاب بالتحيز لقبيلة هوارة، فانسحب بعض الزناتيين من الميدان . وهكذا سقطت تلك الامارة الفتية نتيجة لقوة العدو من جهة ، والنعرة والعصبية القبلية ذات النزعة السلبية من جهة ثانية (أنظر ابن عذاري : البيان المغرب، ج: 1، ص: 72) . ابو زكرياء يحي بن أبي بكر : كتاب سير الائمة وأخبارهم (المعروف بتاريخ أبي زكرياء)، ص: 59/87 .

(3) — ابن خلدون : العبر، مج: 6، ص: 246/250 . مبارك الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج: 2، ص: 437 . دبوز : تاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص: 253 .

لواته (1) ، وهوارة (2) ، بالاضافة الى حلفائهم من مزاتة ، ونفوسة (3) .

أن دولة تيهرت تختلف عن الدولتين السابقتين ، من حيث نظامها ، وسيادتها وسعة رقعتها . فدولة بني رستم — في الحقيقة — كانت متينة الاسس ، ديمقراطية النظام والتسيير ، وسيدة القرار والتنفيذ ، واسعة الاطراف والاقاليم ، يرأسها امام يحكم الناس بمساعدة مجلس للشورى ، واعضاؤه هم أهل الحل والعقد (4) .

أن للعصبية القبلية دورا — ولا شك — في نشأة دولة بني رستم (5) ، وكان العامل الديني سائدا ، ومهيمنا على حياة تلك الدولة ، فحسب بذلك ما قرره ابن خلدون من أن ((الدولة العامة الاستيلاء ، العظيمة الملك أصلها الدين ، أما من نبوة أو دعوة حق)) (6) ، وأن ((الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها)) . (7) فالعصبية في الحالات كافة لازمة وضرورية .

---

(1) — ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 234/238 . دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج : 3 ، ص : 253 .

(2) — ابن خلدون : المقدمة ، مج : 6 ، ص : 288/293 . ودبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج : 3 ، ص : 254 .

(3) — دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج : 3 ، ص : 254—518 .

(4) — أنظر الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، ج : 2 ، ص : 438/461 . دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج : 3 ، ص : 245/623 ، عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج : 1 ، ص : 165/178 .

(5) — لا شك في أن العامل الديني قد هذب العصبية التي اقامت الدولة الرستمية . ومع هذا فان اختيار عبد الرحمن بن رستم : للامامة جاء نتيجة معرفتهم بفضله ، حيث أنه من أهل النصاب الملكي ، ومع هذا فان القبائل اختارته أيضا لكي تتجنب الصراع فيما بينها على السلطة ، بتأثير العصبية . (أنظر دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج : 3 ، ص : 293 / 294—528 .

(6) — المقدمة ، ج : 2 ، ص : 636 .

(7) — نفسه ، ج : 2 ، ص : 637/638 .

اذن فدولة بني رستم تأسست بفضل العصبية التي تمثلها قبائل : لمايـــة ولواته ، و هوارة المتحالفة . وقد تعززت تلك العصبية بالعامل الديني ، الذى ألف قلوب العصائب ، و أثار عقولهم ، وحدد صفوفهم ، وازال علة التنافس والحسد بينهم ، فأضحت تلك الدولة من القوة بحيث استقلت بنفسها ، و اعتمدت علـــى ذاتها ، بل ضاهت الدول الكبرى آنئذ ، في نظمها ، وسعة ممتلكاتها وكثـــرة اتباعهـــــا .

وبمرور الوقت بدأ العامل الديني يضعف في حياة تلك الدولة ، وبالتـــالى فان العصبية فقدت تلاحمها ، وعلة وحدتها ، وعندما برزت عيوب العصبيـــة ، وسلبياتها التي هذبها الدين من قبل . أخذ التنافس و التحاسد يدبـــان في جسم التحالف القبلي (1) ، ثم انتقلت العدوى بعد ذلك الى العائلـــة الحاكمة ، حيث شرع أفرادها في قتل بعضهم بعضا ، وبذلك خطت الدولـــة الرستمية أول خطواتها نحو هوة الانهيار و السقوط ، بحيث سهل أمر الاطاحـة بالدولة - فيما بعد - بواسطة عبد الله الشيعي الذى قاد قبيلة كتامة وذلـــك بتحريض دواسر بنت (2) أبي حاتم الامام الرستمي الذى اغتاله ابناء اخيـــه اليقظـــــان .

فهذه الدولة - على خلاف الدولتين السابقتين - تميزت بالازدهـــــار الحضارى ، حيث عرفت تطورا ملحوظا في نظمها الثقافية ، و الاقتصاديـــة والسياسية . ولكن قانون العصبية الذى يدفع بالحكام الى محاولة الانفـــراد بالسلطة يدفعهم دوما الى كبح جماح أهل العصبية الخاصة أولا ثم العامـــة ثانيا ، وهذا ما جرى بالفعل في الدولة الرستمية ، فانجر عن ذلك انهيار فـى النظام السياسي لتلك الدولة ، وبالتالى سقوطها نهائيا في ايدى اعدائهـــا . وهكذا اندثرت حضارة تلك الدولة باندثار مؤسساتها .

---

(1) - أنظر اخبار تلك الخـــلافات و الصراعات في كتاب محمد على دبـوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج : 3 .

(2) - انظر أبا زكرياء يحي بن أبي بكر : تاريخ الأئمة واخبارهم ، ص : 169 / 170 . دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج : 3 ، ص : 621 .

* * *

وظهرت في تلك الاونة كيانات بالمغرب الاسلامي،لا يمكن تصنيفها ضمن مصاف الدول ، وأن كانت تخضع لمقياس الامارة في حالات . ومن تلك الكيانات الكيان الذى ترأسه أبو قرة بن دوناس اليفرني (1) .

وقد يكون ابو قرة هذا هو الذى خلف خالد بن حميد الزناتي الذى تولى أمر الصفرية بعد مقتل ميسرة المطغرى (2) . الا أن مساوئ العصبية القبلية وسلبياتها وغياب العامل الديني الصحيح اطاقا ابا قرة وسلفه عن اظهار كيانهما بمظهر الدولة القوية . وقد برز ضعف اللحمة و التماسك بين عصبيات الكيان الصفرى بقيادة أبى قرة عندما اشترك الاباضيون و الصفرية في حصار عمر بن حفص والى القيروان بمدينة طبنة ،حيث انشق التحالف القبلي الصفرى ، وانحلت عصبيتهم — فيما بعد — دون الوصول الى نتيجة تستحق الذكر (3) .

2 — الدول العلوية :

وهما دولتان : أولا هما الدولة الادريسية (4) والثانية الدولة الفاطمية(5). قامت الدولة الادريسية بامرة ادريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى

---

(1) — جاء في العبر أنه ملك 40سنة ،مج :6،ص : 225 .
(2) — ابن خلدون : العبر ،مج :6،ص : 24.
(3) — العبر ،مج :6،ص : 25/24. دبوز : تاريخ المغرب الكبير،ج :3، ص ص : 50/49.
(4) — نسبة الى ادريس ،وقد نشأت سنة 172هـ/788م . بوليلي ،تم ذلك بدعم من قبيلة اوربة البرنسية . (البكرى : المغرب ،ص : 118،ابن عذارى: البيان المغرب ،ج :1،ص : 83. ابن الخطيب : أعمال الاعلام ،ص:190، ابن أبي زرع : الانيس المطرب بروض القرطاس ،ص : 6. ابن خلدون : العبر، مج :4،ص : 24).
(5) — شرع في الدعوة داعيها ابو عبد الله الشيعي سنة 280هـ/893م. (أنظر،

ابن الحسن السبط بن أبى طالب كرم الله وجهه . أما الدولة الفاطمية فنشأت بإمرة عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل الثاني بن محمد بن اسماعيل ابن جعفر الصادق .

ونشوء هاتين الدولتين تم بفضل عصبية بعض قبائل المغرب الاسلامي القوية (1) . ويرجع سبب اجتماع تلك القبائل و تحالفها لنصرة ادريس من جهة وعبيد الله من جهة أخرى،والى ما ذكره ابن خلدون فى فصل : ((أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية)).(2) كما سبق ذكره عند التطرق لدولة برغواطة ،فان المقصود هنا أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي انشاء دولة بفضل عصبية أخرى غريبة عنه ،حيث تغنيه عن عصبيته . وقد استشهد ابن خلدون فى سياق حديثه بالدولتين : الادريسية بالمغرب الاقصى ،والفاطمية (العبيدية) بافريقية ومصر،حيث قال : ((لما انتبذ الطالبيون بالمشرق الى القاصية ،وابتعدوا عن مقر الخلافة ،وسموا الى طلبها من ايدى بنى العباس،بعد أن استحكمت الصبغة لبني عبد مناف ،لبني أمية أولا ثم لبني هاشم من بعدهم فخرجوا بقاصية من المغرب ودعوا لانفسهم ،وقام بامرهم البرابرة مرة بعد

= القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ،ص : 71 . ابن خلدون : العبر، مج : 4 ، ص : 66 . لقبال : دور كتامة فى تاريخ الخلافة الفاطمية ،ص : 224)

(1) ــ وذلك ببيعة عبيد الله المهدى ،أول ملوك الدولة سنة 296هـ/908م. (أنظر القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ،ص : 236 . المقريزى : اتعاظ الحنفاء باخبار الأئمة الخلفاء ،89) .

(2) ــ فى نشوء الدولة الادريسية برزت عصبية أوربة البرنسية ،وبعض القبائل الحليفة : كمغيلة ،وزواغة ،ولواتة ،وسدراتة ،وغياثة ، ونفزة ،ومكناسة ، وغمارة . (أنظر ابن خلدون : العبر ،مج :6، ص : 330) . أما الدولة الفاطمية فاعتمدت على عصبية كتامة صنهاجة . (ابن خلدون : المقدمة ،مج :2،ص : 635 . موسى لقبال : دور كتامة فى تاريخ الخلافة الفاطمية) .

أخرى ،فاورية ومغلية للادارسة ،وكتامة ،وصنهاجة ،وهوارة للعبيديين ، فشيدوا دولتهم ومهدوا بعصائبهم أمرهم ، واقتطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله ثم افريقية ... الى أن ملكوا مصر والشام ،والحجاز .. وهؤلاء البرابرة القائمون بالدولة مع ذلك كلهم مسلمون للعبديين أمرهم مذعنون لملكهم . وانما كانوا يتنافسون في الرتبة عندهم خاصة ،تسليما لما حصل من صبغة الملك لبني هاشم ،ولما استحكم الغلب لقريش ومضر على سائر الامم))(1).

وقيام الدولتين : الادريسية والفاطمية جاء كنتيجة طبيعية لما وصلت اليه عصبية بني هاشم من ضعف وانقسام ، وذلك بعد استفحال امر بني العباس وتصفيتهم لابناء علي بن أبي طالب ،فالجأوهم الى التقية والتستر ،والالتحاق بالقاصية من أطراف الدولة (2).

---

(1) ـ ابن خلدون : المقدمة ،ج :2،ص : 636/635.

(2) ـ شرح ابن خلدون هذه الظاهرة في فصلين من مقدمته الأول هو ((فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين))(ج :2،ص : 859/ 862). والثاني هو ((فصل في كيفية طروق الخلل للدولة))،ج :2 ، ص: 866/863). ففي الفصل الاول ينتهي بعد التحليل الى ذكر آل ادريس فيقول : ((ثم نزع ادريس الى المغرب ،وخرج به ،وقام بامره وامر ابنه من بعده البرابرة من أوربة ،ومغيلة ،وزناتة ،واستولى على ناحية المغربين ... ثم خرج الشيعة وقام بامرهم كتامة ،وصنهاجة ، واستولوا على افريقية ،والمغرب ،ومصر ،والشام والحجاز ،وغلبوا على الادارسة .)). وفي الفصل الثاني يتدرج بعد الشرح والتحليل الى طرح الامثلة بما جرى للادارسة والفاطميين فيقول : ((واعتبر هذا في دول العرب في الاسلام ... وكان امر بني امية نافذا في جميع العرب بعصبية بني عبد مناف .. ثم تلاشت عصبية بني أمية بما اصابهم من الترف فانقرضوا وجاء بنو العباس ... وقتلوا الطالبيين ،وشردوهم ، فانحلت عصبية بني عبد مناف ، وتلاشت ،وتجاسر العرب عليهم ...ثم خرج بنو ادريس بالمغرب ،وقام البربر بامرهم ،اذعانا للعصبية التي لهم ،أمنا أن تصلهم مقاتلة ،أو حامية للدولة)).

وسيأتي في الفصل الموالي شرح الكيفية التي تسقط بها الدول عندما يتسرب الخلل الى الدولة ، وذلك بعد تنكر صاحب الدولة لاهل عصبيته ، فيسعى لاذلالهم وتأديبهم ، بحيث يشردهم في أقصى البلاد ، عندما يتطلعون الى اقامة دولة خاصة بهم ، يؤازرهم فيها الخارجون على الدولة الام . وهذا ما حدث للعلويين .

ويستشهد ابن خلدون في هذا الامر بما حدث لعصبية بني عبد مناف الممثلة ببني أمية ، وهي عصبية مركبة يجتمعون فيها مع بني هاشم ، ثم خرج عنهم بنو العباس في عصبية بني هاشم، ثم خرجت عصبية بني أبي طالب عن العصبية المركبة الممثلة في بني هاشم .

وهكذا يتضح بأن استقراء ابن خلدون كان صحيحا فيما يخص هاتين الدولتين : فالدولة الادريسية نشأت في اعقاب الاضطهاد الذي لحق ببني علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فالتجأ أحدهم وهو ادريس الى المغرب ، حيث ناصرته عصبية أخرى غير عصبيته ممثلة بقبيلة أوربة البربرية ، تقديرا واجلالا منها لجده علي كرم الله وجهه .

أما الدولة الفاطمية فقد نشأت هي الاخرى من جراء تشريد احفاد علي ابن أبي طالب أيضا ، فقامت فئة منهم بالتستر والاختفاء ، واللجوء الى الدعوة العلوية في الخفاء ، والعلن احيانا ، ومن جراء ذلك قدم الى المغرب أحد دعاتهم وهو أبو عبد الله الشيعي فأعلن الدعوة الشيعية في قبيلة كتامة التي تمكن من توحيد صفوفها ضمن عصبية موحدة و معززة بالتعاليم الدينية التي زادتها قوة على قوتها (1) .

وقد صح في الدولة الفاطمية ما قاله ابن خلدون في فصل ((أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين أما من نبوة أو دعوة

(1) — أنظر ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص ص : 636/635 . موسى لقبال : دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، ص ص : 258/216 .

حق،(1) وفصل ((أن الدعوة الدينية من غير عصبية لاتتم))(2)،وفصل ((فى أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها من القلة والكثرة))(3).

فكانت هذه الدولة ذات عصبية قوية ،واتباع لا يحصى عددهم ،فتغلبت على افريقية والمغرب كافة ،ثم امتد سلطانها حتى شمل مصر، والشام، والحجاز، بل امتد نفوذها حتى وصل بغداد نفسها (4).

والسبب فى ذلك — على ما يبدو — انها استطاعت جمع الشروط والمقاييس — التى ذكرها ابن خلدون — كافة ،بينما لم تتمكن الدولة الادريسية من تحقيق الشروط جميعا . فاكتسفت ببعضها ،وبذلك اقتصر أمرها على المغرب الاقصى وجزء من المغرب الأوسط .

وهكذا فقد امتد الامر بها تين الدولتين حتى سقطتا ،بعد

---

(1) — المقدمة : ج ، 2 ،ص: 636.

(2) — نفسه ،ج : 2 ،ص : 638/637.

(3) — نفسه ،ج : 2 ،ص : 646/644.

(4) — تم ذلك بالمطاولة حيث صح فيها ما جاء به ابن خلدون فى فصل ((أن الدولة المستجدة انما تستولى على الدولة المستقرة بالمطاولة لابالمناجزة))، (ج : 2 ،ص : 878/873). وفى هذا الفصل يصنف ابن خلدون الدول المستجدة الى صنفين : الاول تنشأ فيه الدولة بالاطراف ،فى حال عجز الدولة عن حمايتها ،وهذا الصنف قاصر ومحدود القوة . أما الصنف الثانى فهو الذى يعتمد على دعاة من الخارجين على الدولة و يطالبون بها مثل الفاطميين ثم يقول ((وكذا العبيديون اقام داعيتهم بالمغرب أبو عبد الله الشيعي ببني كتامة من قبائل البربر عشر سنين ويزيد ، يطاول بني الاغلب بافريقية حتى ظفربهم ،واستولوا (العبيديون) على المغرب كله وسموا الى ملك مصر ،فمكثوا ثلاثين سنة ونحوها فى طلبها ،يجهزون اليها العساكر والاساطيل فى كل وقت . . . ،وملكوا الاسكندرية ،والفيوم ،والصعيد ،وتخطت دعوتهم من هناك الى الحجاز ،وأقيمت بالحرمين ،ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر ،واستولى عليها واقتلع دولة طغج من اصولها ، واختط القاهرة فجاء الخليفة المعز لدين الله ،فنزلها لستين سنة أو نحوها منذ استيلائهم على الاسكندرية)) . (المقدمة ،ج: 2 ،ص: 877/876) .

أن التهمت الدولة الفاطمية الدولة الادريسية (1) بفضل ما تمتاز به عليها من قوة العصابة وكثرة الاتباع و تأثير الدعوة . وبالتالي فانه بمرور الوقت أخذت أعراض الشيخوخة تدب في جسم الدولة الفاطمية ،حيث فسدت عصبيتها - كما تقتضيه طبيعة الدول . وانتهى الامر بها كغيرها من دول ذلك العصر الى السقوط والزوال ،وذلك سنة 567هـ/1171م على يد صلاح الدين الايوبي .

ومن الزاوية الحضارية فان دولة الادارسة لم تترك معالم حضارية ذات قيمة كبيرة ، وذلك راجع على ما يبدو الى الوسط القبلي الذى يكتنفها . أما الدولة الفاطمية فقد شرع اصحابها في بعث بوادر حضارية ،ولكن الفتن القبلية التي واجهت الدولة عطلت مسيرتها . ولم تتمكن من تشييد حضارتها الممتازة الا بعد التخلص من الوسط القبلي الذى نشأت فيه ، (ببلاد المغرب) ،وانتقالها الى وسط آخر يختلف كل الاختلاف عن الاول ،في كونه انتقال من طور القبلية الى طور التمدن .

3 - دولة القيروان (2) :

حكومة القيروان (3) هي أقدم حكومة :اسلامية بالمغرب الاسلامي ،ولكنها

---

(1) - سقطت الدولة الادريسية في ايدى الفاطميين أول مرة سنة 305هـ/917م، ومنذ هذا التاريخ تضعضعت الدولة وأصبحت تابعة للفاطميين تارة وللامويين تارة اخرى ،حتى سقطت نهائيا سنة 375هـ/985م ،في عهد أخر ملوكها الحسن كنون ، (أنظر ابن أبى زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس ،ص: 48-59) .

(2) - تدخل في هذا الاعتبار مدينة القصر القديم التي بناها ابراهيم بن الاغلب سنة 184هـ/800م ،والتي تبعد بثلاثة اميال فقط على القيروان (البكرى : المغرب ،ص : 28 . وابن عذاري : البيان المغرب ،ج :1 ،ص : 93)وكذلك مدينة رقادة التي تبعد حوالي اربعة اميال عن القيروان ،وقد شرع في بنائها ابراهيم بن أحمد بن الاغلب : 263هـ/876م . (البكرى : المغرب ،ص: 27 . ابن عذاري : البيان المغرب ،ج :1 ،ص: 117) .

(3) - شرع في تأسيس القيروان عقبة بن نافع سنة 51هـ/671م . وهو أول الولاة الذين حكموا من القيروان . وقد تعاقب عليها عدد من الولاة : 1 - زهير =

كانت عبارة عن ولاية تابعة للخلافة الاموية ثم العباسية فيما بعد موعرفت تلك الولاية بعض المحاولات التي ترمي الى الانفصال والاستقلال ،ولكنها منيت بالفشل ، أهمها : محاولة عبد الرحمن بن حبيب الذى تطلع للاستقلال عن الخلافة عندما سقطت دولة بني أمية وقامت الدولة العباسية ،ولكن الامر انتهى به الى ما هو معروف ، من المجازر التي حدثت في القيروان بين الاخوة وبني العم من جهة ،وبين أهل القيروان وصفرية ورفجومة من جهة أخرى .

وكان ختامها استلاء ابن الخطاب عبد الاعلى بن السمح الاباضي على القيروان وتنصيب عبد الرحمن بن رستم واليا عليها من قبله (1) .

والمحاولة الثانية لم تستهدف الانفصال التام عن الخلافة ،وأن كانت ترمي الى الاستقلال . وتتمثل تلك المحاولة في استبداد أمراء بني الأغلب

= بن قيس البلوى : سنة 64هـ/683م (يمني) . 2 ـ حسان بن النعمان الغساني : سنة 78هـ/697م (يمني) . 3 ـ موسى بن نصير اللخمي : سنة 83هـ/702م (يمني) . 4 ـ محمد بن يزيد مولى قريش : سنة 97هـ/715م . 5 ـ اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر مولى الانصار : سنة 100هـ/718م . 6 ـ يزيد ابن أبى مسلم الثقفي : سنة 102هـ/720م (قيسي) . 7 ـ بشر ابن صفوان : سنة 103هـ/721م (يمنى) . 8 ـ عبيدة بن عبد الرحمن السلمى : سنة 110هـ/728م (قيسي) . عبيد الله بن الحبحاب : سنة 116هـ/734م (قيسي) . 10 ـ كلثوم بن عياض القشيرى : سنة 123هـ/740م (قيسى) . 11 ـ حنظلة بن صفوان : سنة 124هـ/741م (يمنى) . 12 ـ عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى : سنة 127هـ/744م . 13 ـ محمد بن الاشعث الخزاعي : سنة 144هـ/761م (يمني) . 14 ـ الأغلب بن سالم التميمي : سنة 148هـ/765م (قيسي) . 15 ـ عمر بن حفص بن قبيصة : سنة 151هـ/768م (يمنى) . 16 ـ يزيد بن حاتم المهلبي : سنة 155هـ/771م . (يمني) . 17 ـ روح بن حاتم المهلبي : سنة 171هـ/787م (يمني) . 18 ـ نصر بن حبيب المهلبي : سنة 174هـ/790م (يمني) 19 ـ الفضل بن روح بن حاتم المهلبي : سنة 177 هـ/793م (يمني) 20 ـ هرثمة أعين : سنة 179هـ/795م . 21 ـ محمد بن مقاتل العكي : سنة 181هـ/797م . ـ 22 ـ ابراهيم بن الاغلب سنة 184هـ/800م .

(1) ـ وكان ذلك سنة 141هـ/758م (أنظر عذاري : البيان المغرب ،ج : 1 ، ص : 71 . وابن خلدون : العبر ،مج : 6 ،ص : 225) .

واستحوا ذهم على السلطة الفعلية ،وبذلك شيدوا دولتهم التي نشأت بعد المخاض الذى هز القيروان مرات عديدة ،وكاد أن يقضي على سلطة بني العباس الشكلية نهائيا في المغرب الاسلامي .

أن الصراعات والنزاعات بدافع العصبية القبلية في القيروان لم تنقطع منذ نشوبها في عهد بني أمية ،وما ثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهري (القيسي) على حنظلة بن صفوان الكلبي سوى عينة من ذلك الصراع (1) . وثورة عيسى ابن عجلان (القيسي) على محمد بن الاشعث الخزاعي (اليمني) تدخل أيضا في هذا السياق الذى يظهر منه بأن تيار العصبية القيسية والعصبية الكلبية مازال - سائدا في حكومة القيروان ،حتى في العهد العباسي (2) .

وكذا الحال بالنسبة الى فتنة الحسين بن حرب الكندى (اليمنى) الذى ثار على الاغلب بن سالم التميمى (القيسي) ،وهو أبو الاغالبة .

فان تلك الفتنة لا تخلو من روح العصبية والنعرة على اليمنية الممثلة بابن الاشعث المعزول . أن عزل يمني وتعيين قيسي أسعر حمية الحسين ابن حرب اليمنى ،فجاشت نفسه غيرة على عصبيته اليمنية ،فأخذ يثير الجند

---

(1) - كان عبد الرحمن بن حبيب في الاندلس ،و شارك بنفسه في الصراعات التي حدثت بالاندلس في أعقاب وصول بلج بن بشر القشيرى اليها ،ولما كان حنظلة بن صفوان الكلبي قد عين واليا على الاندلس من أهل عصبيته وهو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ،من غلاة الكلبية ،و صاحب الابيات الشعرية التي اطاحت بوالي افريقية السابق عبيدة بن عبد الرحمن السلمي القيسي المتعصب . ولما تولى أبو الخطار ترك لعصبيته العنان ،فاشعل تلك البلاد بالفتن والعراك فكلف ذلك المسلمين دماء كثيرة اهريقت بسبب النعرة والعصبية الحمقاء .وربما كان تعيين أبي الخطار من الاسباب التي دفعت عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الى الثورة والانتقام من الكلبية في شخص حنظلة بن صفوان (ابن عذاري : البيان المغرب ،ج : 1 ،ص: 56-60 . ج : 2 ،ص : 30/37 .

(2) - أنظر ابن عذاري : البيان المغرب ،ص : 73 . دبوز : تاريخ المغرب الكبير ،ج : 3 ،ص : 27/28 .

ويحرضهم على الثورة التي انتهت بقتل الأغلب بن سالم (1) . وتولية عمر بن حفص ابن قبيصة اليمني . ولذلك اصبحت ولاية افريقية في حكم آل المهلب (2) وهم من اليمنية .

نشأت دولة بني الاغلب في القيروان عقب صراعات مضنية بين ولاة القيروان والرعية ، من جند وقبائل ، وانتهت تلك الفتن بتولي ابراهيم بن الأغلب بن سالم أمر القيروان وافريقية ، ولما كان ابن الأغلب من أهل النساب الملكي (3) ، لأنه كان واليا على الزاب ، ووالده الأغلب بن سالم هو حاكم القيروان السابق ، فقد

---

(1) — ابن عذاري : البيان المغرب ، ج : 1، ص: ج : 1، ص : 75/74 .
محمد علي دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج : 3، ص : 38/37 .

(2) — أشهر أفراد تلك العائلة هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب الذى حكم القيروان من 155هـ/771م . الى عام 171هـ/787م . وهو الذى وفد اليه الشاعر ربيعة بن ثابت الرقي (القيسي) فمدحه بقصيدة شهيرة . وفي الوقت نفسه هجا فيها يزيد بن أسيد السلمي وهو من عصبيته ، وفيها يقول : (طويل) .

حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ ذِى مَثْنَوِيَّةٍ ... يَمِينَ امْرِىءٍ آلَى وَلَيْسَ بِآثِمِ
لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى ... يَزِيدُ سُلَيْمٍ وَالأَغَرُّ ابْنُ حَاتِمِ
فَهَمُّ الْفَتَى الأَزْدِيِّ إِتْلافُ مَالِهِ ... وَهَمُّ الْفَتَى الْقَيْسِيِّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
فَلاَ يَحْسِبُ التَّمْتَامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ ... وَلَكِنَّنِي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ

والسبب في نظم هذه القصيدة هو ما ذكره الرقيق القيرواني : ((وكان وجب على ربيعة وقومه ديات ، فقصد يزيد بن أسيد (وهو من عصبيته) فلم يحل منه بطائل ، ثم رحل الى يزيد بن حاتم وهو بالقيروان ، فاعطاه عشر ديات ، ووصله وأحسن اليه احسانا عظيما)) . (تاريخ افريقية والمغرب ، ص: 153) . وهكذا عندما مدحه ، مدح قبيلته الازد عرضا . وعند هجاء الآخر الذى ينتمي واياه الى عصبية واحدة حاول أن يعتذر بانه لا يقصد هجاءه ، ولكنه فضل اصحاب المكارم ولو كانوا كلبيين . وليسوا من قيس .

(3) — أنظر ما قبله .

رضي بـــه الجند ،وسلمت اليــه العصائب قيادها . (1)

وسارع ابن الأغلب منذ توليه الى الاستبداد والتطلع الى الاستقلال،ودعم ذلك الاتجاه ابناؤه واحفاده ،فلم يتركوا لبني العباس سوى سلطة شكلية . (2) وهذا بالطبع يبرز نظرية ابن خلدون التي شرحها في عدة فصول من مقدمته مثل : ((فصل في أن كل دولة لها حصة من الممالك والاوطان لاتزيد عليها))(3) و((فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائميـــن بها في القلة والكثرة))(4) و ((فصل في أن الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة (5))) و ((فصل في انقسام الدولة الواحـــدة بدولتين))(6) و ((فصل في كيفية طروق الخلل للدولة))(7)و((فصل في اتساع نطاق الدولة اولا الى نهايته ثم تضايقه طورا بعد طور الى فناء الدولـــة واضمحلالها)) (8) و ((فصل في حدوث الدولة و تجددها كيف يقع))(9) . وهذه الفصول جميعها متكاملة ،ويمكنها اعطاء صورة واضحة لما عرفته دولـــة بني العباس حتى انتهى بها الامر الى التقلص ،وخروج بعض الولايات عـــن سلطانها ،كدولة بني الاغلب مثلا (10) .

وفي هذا المجال يكتفي الباحث بالاشارة الى ((فصل في حدوث الدولـــة

---

(1) ــ أنظر محمد الطالبي : الدولة الاغلبية (التاريخ السياسي) ،تعريـب المنجي الصيادي ،ص : 83/86ـ99/130 .

(2) ــ محمد الطالبي : نفسه ،ص : 130ـ153ـ165ـ171ـ352/376 .

(3) ــ ابن خلدون : المقدمة ،ج :2،ص : 642/644 .

(4) ــ نفسه ج :2،ص : 644/646 .

(5) ــ نفسه ،ج :2،ص: 646/649 .

(6) ــ نفسه ،ج : 2،ص: 859/862 .

(7) ــ نفسه ،ج : 2،ص: 863/866 .

(8) ــ نفسه ،ج : 2،ص: 868/872 .

(9) ــ نفسه ،ج :2،ص: 873/878 .

(10) ــ ابن خلدون : المقدمة ،ج :2،ص: 871 .

وتجددها وكيف يقع))(1). ففيه يشرح ابن خلدون الكيفية التي يستبد بها الولاة بالقاصية ،حيث يقيمون دولا يستقلون بها اذ يقول:((بأن يستبد ولاة الاعمال في الدولة بالقاصية عندما يتقلص ظلها عنهم،فتكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه ،يرثه عنه أبناؤه أو مواليه ،ويستفحل لهم الملك بالتدريج ،وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه ويتنازعون في الاستئثار به ،ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه وينتزع ما في يده، كما وقع في دولة بني العباس حين اخذت دولتهم في الهرم و تقلص ظلها عن القاصية ....وهذا النوع لايكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب لانهم مستقرون في رئاستهم ،ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب ،وانما الدولة ادركها الهرم وتقلص ظلها عن القاصية،وعجزت عن الوصول اليها)).(2) وهذه الصورة تنطبق تماما على بني الأغلب الذين قلدوا الادارسة ،فاقتطعوا دولتهم ونأوابها عن السلطة الفعلية لبني العباس ، وأن ابقوا لهم سلطة شكلية ، على خلاف الادارسة المتمتعين بالاستقلال التام عن العباسيين .

وعرفت هذه الدولة موجة من الظلم والعسف تجاه الرعية ،من طرف بعض الامراء : (3) كزيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب التميمي ،وابراهيم بن أحمد ابن محمد بن الأغلب التميمي ،وزيادة الله بن أبي العباس بن الأغلب آخر أمراء الدولة .

وسقوط الدولة الأغلبية جاء نتيجة لعاملين أساسيين لهما علاقة متينة بالعصبية : أول العاملين داخلي،ويتمثل في فساد عصبية بني الاغلب ،

(1) - أنظر ما قبله .

(2) - ابن خلدون : المقدمة ،ج :2،ص : 872.

(3) - يمكن الرجوع الى اخبارهم في كتاب ابن الخطيب : أعمال الاعلام ،القسم 3، ص : 16/20-27/36/47. وابن عذاري : البيان المغرب،1 ، ص : 96/107-116-124-129/149. ومحمد الطالبي : الدولة الاغلبية ، (التاريخ السياسي) ص : 236/239-295/297-306/332-331/344-596/609.

بعد استغناء امرائهم عن عصبيتهم ،واعتمادهم على المصطنعين والموالـــي .
بل انهم سلطوا الموالي من السودان والصقالبة على أهل العصبية الخاصـــة والعامة للدولة ،مثل : ارسال ميمون الحبشي الى تونس من قبل الاميـــر ابراهيم بن أحمد بن الأغلب التميمي لقتل : ((جماعة من بني تميم))(1) .

وكذا الحال عندما قتل الامير ابراهيم انصار الدولة ،وأهل عصبيتهـــا من القيسيين الذين كانوا حامية لها ((ببَلَّزْمة)) ،وكانوا هناك بغـرض رصـد الكتاميين واخضاعهم . هذا بالاضافة الى تصفية سكان منطقة الزاب.(2)وهكذا فان قتل تلك العصبة شجع كتامة على الخروج والعصيان . وفي ذلك يقـــول ابن عذاري : ((وكان ذلك من أسباب انقطاع دولة بني الاغلب ،اذ كـــا ن أهل بَلَّزْمة في نحو ألف رجل ،من أبناء العرب والجند الداخلين الى افريقيـة عند افتتاحها وبعده . وكان أكثرهم من قيس ،وكانوا يذلون كتامة . فلمـــا قتلهم ابراهيم ،استطالت كتامة ،وجدت السبيل للقيام مع الشيعي علـــى بني الأغلب (3))) .

ويعتبر ابراهيم بن أحمد بن الأغلب هو المقوض الحقيقي للدولـــة الأغلبية بما ارتكبه من مجازر ،خيالية وفظيعة ،حيث استصفى خلالها جل انصاره واتباعه ،بل وأولاده أيضا .

أما العامل الثاني فهو خارجي ،ويتمثل في دور العصبية الكتامية ،وأثرها على انهيار الدولة الفعلية وسقوطها ،حيث قضوا عليها بحد السيف ،فتلاشـت تحت ضربات عصبية جياشة ،معززة بالتعاليم الدينية الفياضة . (4) وذلك فـي سنة 296هـ/908م .

---

(1) — أنظر ابن عذارى : البيان المغرب ،ج :1،ص : 129 .
(2) — أنظر موسى لقبال : دور كتامة ،ص : 190/191 .
(3) — البيان المغرب ،ج :1،ص : 123 .
(4) — استحوذ ابو عبد الله الشيعي على عقول القبائل من كتامة بما كان يشحن في قلوبهم من الايمان بالدعوة ،وما ينفث فيهم من روح دينية ،وما يسلكه معهم من عدل وأنصاف . (أنظر بعض تلك الاخبار في كتاب ابن عذاري : البيان المغرب ،ج :1،ص : 134/128-138/ 139-141-149/ 152 . موسى لقبال : دور كتامة ،ص : 243/244-284-312 .

فعلى الرغم مما وصلت اليه القيروان فى عهد الاغالبة من مستوى حضاري الا أنها ظلت مع ذلك قاصرة فى حضارتها بالنسبة للمدن الاسلامية الأخرى ، بالمشرق مثلا . مع أن القيروان شيدت فى عهد عقبة بن نافع ، فظل تطورها الحضاري يسير بطيئا . وهذا راجع الى الوسط القبلي الذى كان يسود تلك الديار . خاصة وأنها شيدت فى بقعة متاخمة للصحراء يغلب عليها الطابع البدوى .

* * *

قبل الشروع فى الحديث عن دول صنهاجة ومصمودة وزناتة يستحسن التذكير بأن ثمة بعض الامارات ذات الحجم الصغير والتى لم تدم طويلا ، وعلى الرغم من الظروف التى مرت بتلك الكيانات ـ حيث كانت ظاهرة العصبية سائدة ومهيمنة عليها ـ فأن المجال لا يسمح بدراسة الدول والامارات كافة . لذا فأن هذا الفصل اكتفى بعينات هامة وبارزة لتكون مقياسا ومثالا للباقى .

4 ـ الدول الصنهاجية : (1) .

من الدول الصنهاجية الاولى ـ فى العهد الاسلامي ـ دولة آل زيري وكانوا فى بداية أمرهم رؤساء على قبيلتهم تلكاتة من صنهاجة ، ثم تأمروا على جزء من المغرب الأوسط وافريقية تحت سلطان بني الأغلب (2) .

وقام بذلك الأمر كبيرهم مناد بن منقوش بن صنهاج ، ثم خلفه ابنه زيري ابن مناد الذى انحاز الى الفاطميين وكان من أشد أنصارهم واقواهم . وقد جعله الفاطميون سيفا لشهروه فى وجه المغراويين من زناتة ، لكبح تمردهم واخماد عصيانهم (3) .

(1) ـ أنظر اخبار صنهاجة فى كتاب ابن عذاري : البيان المغرب ، ج : 1 ، ص : 228/314 . ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 309/316 ،

(2) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 312 .
- Hady Roger Idriss: La Berberie Orientale sous les Zirides T: 1, PP: 7/9.

(3) ـ ابن خلدون : نفسه ، مج : 6 ، ص : 312/313 .
Hady Idriss : Ibid , T:1, PP : 9/35.

بدأت دولة بني زيرى عندما قرر المعز لدين الله الانتقال الى القاهرة سنة 362هـ/972م (1) . بغرض الاقامة في مصر . عندها استخلف بلكين (بلغين) ابن زيرى بن مناد على افريقية والمغرب كافة باستثناء صقلية وطرابلس ، (2) ويقال بأنه قد أوصاه بثلاثة أمور : ((لاترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحدا من اخوتك وبني عمك ، فانهم يرون أنهم أحق بهـذا الامر منك ، واستوص بالحضر خيرا))، (3) لعلمه بأن الحضر أكثر طاعة ، وأقل تمردا ومشاغبة ، لأن الحضارة مفسدة للعصبية ، وقاتلة للنعرة ، على العكس من أهل البادية وبقية الامازيغ الذين يتميز جلهم بالطابع البدوى ذى العصبية الجياشة التي تقف عائقا في سبيل كل تقدم وعمل حضاري . ثم أن ابقاء الجباية على أهل البادية يقصد منه اخضاعهم وذلهم . وسيأتي شرح ذلك في الفصل الموالـــي .

استفتح بلكين (بلغين) بن زيرى عهده بغزو زناتة وقبائل المغرب الاوسط والاقصى ، لجدع انوف عشائرها ، وكبح عصبيتهم ، واخضاعهم للعصبية الصنهاجية ، ذات السلطان والعنفوان (4) . أن نشأة الدولة الصنهاجية لاتخلو من تأثيرات العصبية القبلية ، لأن اختيار المعز لبلكين (بلغين) راعى فيه اعتبارات عديدة ، أهمها : أن آل زيرى مخلصون في خدمتهم للعبيديين ، وأن عصبيتهم قوية ومهيمنة على بقية العصبيات آنئذ (5) . وربما يكون المعز

---

(1) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، مج :6 ، ص : 318 .

(2) ـ استخلف على صقلية ابناء ابي الحسين الكلبي ، وعلى طرابلس عبد الله ابن يخلف . ولكن نزار بن المعز اعاد طرابلس الى بلكين ضمن ولاية افريقية والمغرب سنة 367هـ/977م . (أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص ص : 318/117) .

(3) ـ ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص : 65 .

(4) ـ ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص : 67 . ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 318 .

(5) ـ ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ص : 64/61 . ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 217 .

قد اختار صنهاجيا واليا على افريقية والمغرب نظرا لما يعرفه عن التركيبة الاجتماعية هناك، حيث يتعذر على ذلك الوالي الاستبداد والانفصال عن الدولة . بحكم ما سيلاقيه من مقاومة وفتن تشعلها قبائل زناتة . وهكذا سينشغل في حرب خصومه ولا يتطلع الى الاستقلال والانفصال عن الخلافة بمصر، هذا من جهة ،ومن جهة أخرى فان الصراعات والحروب تجعل الولاة الصنهاجيين في حاجة مستمرة لمساندة الخليفة الفاطمي ودعمه . ومن علامات خوف المعز من انفصال افريقية أنه أوصى بلكين (بلغين) ،أيضا بعدم تولية اقربائه خوفا من اطماعهم . أما بالنسبة لوصاياه الاخرى كعدم رفع السيف عن الامازيغ،وعدم رفع الجباية عن أهل البادية فهي كفيلة باغراق بلكين (بلقين) في يم من الفتن والحروب ،وهكذا كان(1) .

واذا كان بلكين (بلغين) قد عمل بوصية المعز ،فان ابنه المنصور أخل بها ،عندما ولى اخوته (2) ،وسار على نهجه حفيد بلكين (باديس بن منصور) الذى اسند بعض الولايات الى اعمامه ،وخاصة حماد بن بلكين (3) ،وكانت العاقبة كما توقعها المعز ،حيث انجر عن تلك التولية انقسام الدولة الى دولتين (4) .

وانقسام كهذا يتم في الغالب ،حسبما شرحه ابن خلدون في فصل ((في انقسام الدولة الواحدة بدولتين)) (5) . حيث يقدم بعض الامثلة ،منها ما يخص دولة صنهاجة نفسها ،فيقول : ((وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة

---

(1) — أنظر اخبار تلك الفتن والمنازعات بين قبائل المغرب والدولة في كتاب ابن عذاري : البيان المغرب ،ج : 1 . وكتاب ابن الخطيب : أعمال الاعلام، وكتاب ابن خلدون : العبر ،مج : 6 .

(2) — أنظر ابن خلدون : العبر ،مج : 6 ،ص : 320/321 .

(3) — أنظر ابن الخطيب : أعمال الاعلام ،ص : 69 . ابن خلدون : العبر، مج : 6 ،ص : 322/323 .

(4) — أنظر ابن الخطيب : أعمال الاعلام ،ص : 76 . ابن خلدون : العبر، مج : 6 ، ص : 323—349/351 .

(5) — المقدمة ، ج : 2 ،ص : 859/862 .

بالمغرب وافريقية ،لما بلغت الى غايتها أيام باديس بن المنصور ،خرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك الغرب لنفسه ،ما بين جبل أوراس الى تلمسان وملوية ، واختط القلعة بجبل كيانة ،حيال المسيلة ،ونزلها ،واستولى على مركزهم آشير بجبل تيطري ،واستحدث ملكا آخر لملك آل باديس . وبقي آل باديس بالقيروان وما اليها . ولم يزل ذلك الى أن انقرض أمرهما جميعا))(1) . وانقراض الدولتين : الزيرية والحمادية جاء بعد فساد عصبيتهما . (2) وبعد أن انهكتهما القبائل المشاغبة من زناتة وكتامة وغيرهما .

ثم حلت بعد ذلك في افريقية والمغرب الاوسط الكارثة العظمى المتمثلة في غزو قبائل بني هلال وسليم لتلك الديار ،فوصل حال الدولة الزيرية من جراء ذلك ــ الى مستوى غير محمود من التفكك والانحلال . والمصادر التاريخية لتلك الفترة تصف القبائل الهلالية باشنع الصفات ،نظرا لما انجر عن تلك الغزوة من فساد وعيث ونهب ، حيث تلاشت سلطة الملك ،وسادت بدلا منها سلطة القبائل والعشائر ،وانمحت مظاهر الحضارة التي تميزبها بنو زيري ،وبرزت ظاهرة البداوة المعادية للتحضر .

وهكذا أصبحت القبلية هي المهيمنة على المجتمع المغربي آنذاك ،فنشأت كيانات ودويلات هنا وهناك . (3) فانتهز النورمان تلك الفرصة التي قدمت

---

(1) ــ ابن خلدون : المقدمة ،مج :2، ص: 861.

(2) ــ انقرضت الاولى باستيلاء النورمانديين على المهدية سنة 543هـ/1148م . أما الثانية ففي 547هـ/1152م على يد الموحدين . وفي ذلك يقول ابن خلدون في فصل : ((في أنه اذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية)) . . . ((وكذا صنهاجة بالمغرب فسدت عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها ،واستمرت لهم الدولة متقلصة الظل بالمهدية وبجاية والقلعة وسائر ثغور افريقية ،وربما انتزى بتلك الثغور من نازعهم الملك واعتصم فيها ،والسلطان والملك مع ذلك مسلم لهم ،حتى تأذن الله بانقراض الدولة ،وجاء الموحدون بقوة قوية من العصبية في المصامدة فمحوا آثارهم))(المقدمة مج :2،ص : 632/633) .

(3) ــ أنظر تلك الاخبار في كتاب ابن عذاري : البيان المغرب مج :1،كتاب ابن خلدون : العبر ،مج :6.

لهم فى طبق من ذهب ،فاحتلوا الساحل الافريقي . وتم ذلك فى بعض الاحيان بمساعدة رؤساء بعض القبائل (1) الذين لايهمهم سوى الاطماع المادية وارضاء أنانيتهم .

أن الفترة الزمنية التى اجتاحت فيها قبائل بنى هلال المغرب تستحق دراسة مستقلة . وعليه فان هذا البحث لايتسع لاستيفاء هذا الموضوع من جميع جوانبه . وكما كان الحال بالنسبة للدولة الزيرية فان الدولة الحمادية هى الاخرى تعرضت لاجتياح القبائل الهلالية ،وأن كان الضرر قد لحق بالزيريين أكثر من الحماديين . مع العلم بأن الحماديين كانوا فى صراع دائم مع قبائل زناتة المتاخمة لهم — وانتهت هذه الدولة بسقوطها تحت ضربات الموحدين (2) بقبائلهم الموحدة والمعززة بالتعاليم الدينية السمحة .

لقد ورثت الدولة الزيرية بعض المعالم الحضارية عن الفاطميين ،ثم تطورت حضارة هذه الدولة حتى بلغت مركزا ممتازا . ولكن اجتياح القبائل الهلالية دمر كل شئ ،فانهى حياة الدولة ،كما خنق حضارتها فى مهدها . ويمكن استخلاص العبرة من الزحف الهلالي على ما يمكن أن تسببه العصبية القبلية فى دمار واندثار للمعالم الحضارية بشكل عام .

أما دولة المرابطين (3) فنشأت أثر الدعوة التى قام بها عبد الله ابن ياسين

---

(1) — كتآمر رافع بن مكن : رئيس بنى دهمان من قبلية رياح مع النصارى النورمانديين ضد اخوته من المسلمين . (أنظر ابن خلدون : العبر ،مج : 6 ،ص : 341 . أنظر غيره فى العبر ، مج : 5 ،ص : 431/432 ،وحتى سلطان الزيريين الحسن بن على استعان هو الاخر باسطول النصارى النورمان ضد عدو، وابن عمه فى الوقت نفسه .

(2) — فى عهد آخر ملوكهم يحى بن العزيز بن المنصور بن الناصر : وذلك سنة 545هـ/1152م (أنظر ابن خلدون : العبر ،مج : 6 ،ص : 364) .

(3) — جاء فى دائرة المعارف الاسلامية تعريف طويل ودقيق لكلمة ((رباط)) . ويقتضي الحال هنا اقتباس ما يلي : ((الرباط : زاوية اسلامية محصنة ، وقد وردت تفاسير مختلفة لهذه الكلمة واشتقاقها من الاصل " ربط " على أن أقرب التفاسير الى العقل هو ما جاء فى القرآن : " واعدوا لهم

بين قبائل صنهاجة الصحراوية مثل : كدالة ولمتونة ،ولمطة وغيرها . وكان عبدالله ابن ياسين ساخطا على ماوصل اليه المغرب الاسلامي من تفكك بانعدام الامـام أو الوازع الذي يوحد الامّة ،ويمنع الفتن وينهي تناحر القبائل فيما بينها الأمـر الذي جعل من المغرب في تلك الآونة ميدانا للصراعات والاقتتال والنهب. وقـد أورد ابن عذاري خبرا في غاية الأهمية ،يبرز الانطباع الذي كونه عبد اللـه ابن ياسين في نفسه عن الفوضى التي تسببت فيها العصبية القبلية بربوع المغرب. وقد يكون ذلك الانطباع هو الذي ساعده على تحديد خطته فيما بعد ، للقضاء على العصبيات ،واخضاع القبائل المتمردة ،لسلطة امام عادل ،ودولة اسلاميـة موحدة للكيانات الضعيفة ،والقبائل النافرة عن كل سلطان . وجاء في ذلـك النص : ((فمر عبد الله بن ياسين ببلاد المصامدة بعد منصرفه من الاندلـس ، فوجدهم يغيرون بعضهم على بعض ،يغنمون الاموال ،ويقتلون الرجال ،ويسبون الحريم ،ولا يرجعون الى طاعة امام . فكان من عبد الله بن ياسين بعض الالهام أن قال لبعضهم : الا تعرفون الله ربكم ،ومحمدا رسولكم عليه أفضل الصـلاة وأرقى السلام ؟ فقالوا له : " نعم عرفنا الله ربنا ،ومحمدا نبينا صلى الله عليه وسلم " فقال لهم عبد الله : " فما لكم بدلتم وغيرتم ؟ هلا قد متم عليكم اماما

---

* ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل " (سورة الانفال الاية 62) . والرباط في الاصل هو المكان الذي يجتمع فيه الفرسان و يتكأكئون متأهبين للقيام بحملة من الحملات . ويتصل الرباط أيضا اتصالا وثيقا بمعنى تجهيز نقلة البريد والقوافل بالخيل .على أن هذه الكلمة اطلقت منذ عهد متقدم على منشأة دينية وحربيـة في آن اختص المسلمون بها دون غيرهم . ويتصل نظام الرباط بالجهاد ... وكان رباط المنستير ، أول رباط أنشئ في افريقية ،شيده الوالي العباسـي هرثمة بن أعين عام : 179هـ 795م . وكان القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) هو العصر الذهبي للربط فقد ضاعف الاغالبة عدد الربـط والمحارس على طول الشواطئ الشرقية .... .ونحن نعلم أن الرباط الذي شيد على جزيرة من جزائر السينغال الادنى كان هو المعقل الذي خرج منـه بربر لمتونة للجهاد ،ومن ثم عرفوا بالمرابطين ..)) (دائرة المعارف الاسلامية، تعريب أحمد الشناوي وآخرين، المادة :الرباط،مج :10،ص: 24/19).

يحكم بينكم بشريعة الاسلام وسنة النبي عليه السلام . فقال له بعض اشياخ المصامدة . " لا يرضى أحد منا ينقاد الى حكم أحد من غير قبيله " فتركهم ورحل عنهم الى بلاد جزولة (كزولة) فكان من أمره مع يحي بن ابراهيم وجدالة (كدالة) ما تقدم . . .)) (1) .

بدأ عبد الله بن ياسين دعوته بقبيلة جدالة (كدالة) في حماية رئيسها وكبيرها يحى بن ابراهيم الكدالي . (2) ومنذ البداية قام عبد الله بن ياسين بتحريض جدالة (كدالة) على بقية القبائل ، لضمها و الحاقها بالكيان الذي ينوى أنشاءه . وهذا هو التدرج المنطقي الذي ذكره ابن خلدون في مقدمته (3) ، ومفاده أن العصبية عندما يتطلع اصحابها للملك لابد لها من ضم بقية العصبيات ، بقصد التحام الجميع في عصبية واحدة كبرى . وهذه الاخيرة تترصد الفرصة للاطاحة بدولة قائمة وإقامة دولتها المستجدة . وبالفعل تحقق لابن ياسين ذلك ، الا أن موت يحي بن ابراهيم كبير جدالة (كدالة) كاد أن يفسد خطة عبد الله بن ياسين ، لأن العصبية تحركت في نفوس

---

(1) — ابن عذاري : البيان المغرب ، ج : 4 ، ص : 10 . وفي موضع آخر طلب عبد الله بن ياسين من مصمودة عند غزوه لبلادهم للمرة الثانية أن يتفقوا على امام وحاكم يزعهم عن بعضهم بعضا فاجابوه : ((ما هو فينا . . ولا في قبائلنا الا كل قبيلة منا ترى أن يكون الامير منها)) فاقترح عليهم بيعة امير لمتونه فقبلوا ((البيان المغرب ، ج : 4 ، ص : 15)) .

(2) — لعلمه بأن الرئاسة لاتكون في غير نسبهم ، أنظر ((فصل في أن الرئاسة على أهل العصبية لاتكون في غير نسبهم)) (المقدمة ، ج : 2 ، ص : 599/601) .

(3) — أنظر ((فصل في أن الرئاسة لاتزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية)) (المقدمة ، ج : 2 ، ص : 598/599) . ((فصل في أن الغاية التي تجرى اليها العصبية هي الملك)) ، (المقدمة ، ج : 2 ، ص : 609/610) . أنظر أيضا كتاب البكري : المغرب ، 165 . ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص : 128 . ابن عذاري : البيان المغرب ، ج : 4 ، ص : 8 . ابن أبي زرع : الانيس المطرب بروض القرطاس ، ص : 79/80 . ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص : 375 .

ابناء جدالة فساءهم انقياد قبيلتهم الى رجل من غير عصبيتهم ،فاتهموه بالتناقض في الاحكام وعزلوه واضطهدوه (1) . فالتحق بكبير لمتونة يحي بن عمر اللمتوني ومن هنا انتقل مركز الدعوة من جدالة الى لمتونة ،حيث شرع عبد الله بن ياسين في دعوته ، دون أن يتطلع الى مركز الامارة والملك ،تاركا ذلك الامر لأهل العصبية ، كيحي بن عمر ،وأخيه أبي بكر بن عمر ،ونظرا لمكانته عندهما وتأثيره عليهما فانه اكتفى بالسلطان الروحي (2) .

والى جانب الروح العصبية الجياشة التي غلبت على قبائل صنهاجة الصحراء فان الروح الدينية الفياضة هي الاخرى قد عززت التلاحم بين القبائل ، وقضت على الانانية والتحاسد ،فاشتدت شوكة لمتونة (3) واتباعها ،فسهل بذلك عليهم فتح المغرب الاقصى ،وجزء من الاوسط (حيث دولة زناتة) وبلاد الاندلس (حيث كان ملوك الطوائف) . وقد تم ذلك بالمطاولة كما جاء في مقدمة ابن خلدون (4) .

ولما تولى امر المرابطين يوسف بن تاشفين ،حقق لدولته بعض الانجازات الحضارية والتنظيمية ،أضفت على سلطانه الوانا من المهابة

---

(1) ـ أنظر ابن عذاري :البيان المغرب،ج :4،ص: 9/8 ،ابن خلدون : العبر ، مج :6،ص: 374.

(2) ـ أنظر البكري :المغرب ،ص : 166 ، ابن عذاري : البيان المغرب ، ج :4،ص: 12/9 ، ابن أبي زرع :الانيس المطرب بروض القرطاس ، ص: 81/80 .

(3) ـ أنظر ما ذكره ابن خلدون بخصوص تأثير العامل الديني على العصبية في فصل ((في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق))وفصل ((في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها)) . (المقدمة ، ج :2،ص: 638/636) .

(4) ـ أنظر ((فصل في أن الدولة المستجدة انما تستولى على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة)) . (المقدمة ،ج :2،ص: 873 // 878) . وفيه يقول ابن خلدون : ((وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون من لمتونة على ملوكه من مغراوة ،فطاولوهم سنين حتى استولوا عليه)) .

والفخامة (1) ،ثم اتخذ الموالى ،والمصطنعين من العلوج الاسبانيين، ومن السودان (2) وبذلك قوى ملكه وزادت منعته . ولكنه بالمقابل أخذ يفقد اقساما من عصبيته اللمتونية ،حيث بقيت جماعات كبيرة منها في الصحراء ،ومنهم من رجع مع أبي بكر بن عمر عندما استبد عليه يوسف بن تاشفين .

وربما يعود سقوط الدولة المرابطية بتلك السرعة - حيث لم يستمر ملكهم طويلا - الى تسرب الضعف الى عصبيتهم ،بعد انقسامها بين يوسف بن تاشفين وأبي بكر بن عمر . (3) وبالمقابل فان ظهور عصبية أخرى قوية كالعصبية المصمودية الموجهة بالتعاليم الدينية المتمثلة في المذهب الموحدى ، أن ذلك الامر كله كفيل بزعزعة اركان الدولة، خاصة وأن الطابع الديني الذى يميز الدولة المرابطية بدأ يميل الى الجمود والتحجر ،بحيث فقد فعاليته .

وهكذا سقطت الدولة المرابطية سنة 1144/539م في قبضة الموحدية بعد حروب عديدة (دامت حوالى 30 سنة)،وبذلك يكون الموحدون قد تغلبوا على الدولة المرابطية بالمطاولة لابالمناجزة ،وهو ما قرره عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته بضربه مثلا لذلك فقال : ((وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون من لمتونة على ملوكه من مغراوة ،فطاولوهم سنين ثم استولوا عليه ،ثم خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة فمكثوا نحوا من ثلاثين سنة يحاربونهم ، حتى استولوا على كرسيهم بمراكش)) . (4)

فعلى الرغم من روح البداوة التى كانت تسود قبائل لمتونة ،فان دولتهم بفضل احتلالها لبلاد الاندلس قد اكتسبت طابعا حضاريا ممتازا ،ساعدها على تطوير مؤسساتها ونظمها . ومع هذا فان البداوة ظلت تتحكم في نفوس آمريها ،لذلك فقد رفضوا كل تجديد وتطور لاتقبله سذاجة البداوة .

---

(1) - أنظر ابن عذاري :البيان المغرب،ج :4،ص: 23 ،ابن أبي زرع:الانيس المطرب بروض القرطاس،ص: 89 ،ابن الخطيب:أعمال الاعلام،ص: 235 .

(2) - أنظر ابن عذاري : البيان المغرب ،ج :4،ص: 23 .

(3) - استبد يوسف بن تاشفين بالملك دون ابى بكر بن عمر الأمير استخلفه ، فهادنه وعاد الى اعماق الصحراء .

(4) - المقدمة ،ج :2،ص : 878 .

ولما ظهرت الدولة الموحدية ،سارعت الى تدمير بعض المعالم الحضارية المرابطية ، وإقامة معالم أخرى موحدية في مكانها . ومع هذا فقد بقيت معالم أخرى لم تطلها يد التخريب .

5 - دول المصامدة :

بالطبع فان الكلام عن الدولة البرغواطية تم في اطار دول الخوارج . أما بقية دول المصامدة فهي : دولة بني عصام بسبتة ،ودولة بني صالح في نكور بتامسامان (وهاتان الدولتان شيدتا بفضل العصبية الغمارية) . ثم دولة الموحدين ودولة الحفصيين . وأن كانت دولة الموحدين تجمع بين مصمودة وزناتة ، لكون الخليفة عبد المؤمن بن علي من قبيلة كومية الزناتية ،ولكن مؤسسي الدولة ، وعصابتها الكبرى من مصمودة .

فاما امارة بني عصام بسبتة فهي غمارية العصابة والمنشأ . قامت هذه الامارة بعد فشل ثورة ميسرة المطغري . حيث اعاد ماجكس الغماري بناء سبتة بعد تدميرها ، ثم اتخذها امارة لقبيلة غمارة . وخلفه بعد مماته ولده عصام الذي عرفت به الدولة .

وكان سقوط دولة بني عاصم على يد الامويين باندلس بتحريض من مكناسة وزناتة . وذلك بعد اسقاط الدولة الادريسية التي كان لها ولاء بني عاصم .

وهذه الامارة - في الحقيقة - لم تكن من القوة في شيء ،كما أنها لم تترك معالم حضارية ذات قيمة كبيرة . ويبدو أن طابع البداوة وسذاجتها كانا مخيمين عليها طوال حياتها . وهذا راجع بالطبع الى النظام القبلي المهيمن على غمارة . فعجزت بذلك عن تطوير مؤسسات دولتها الى المستوى الحضاري المطلوب .

وأما امارة بني صالح فهي - وأن انتسب أميرها ومؤسسها الى عرب اليمن - فهي غمارية ،من حيث عصبيتها ونشأتها ورعيتها . وقد نشأت هذه الامارة نتيجة

لاقطاع جهات تكور الى صالح بن منصور الحميرى،من قبل الخليفة الاموى الوليد ابن عبد الملك ،وذلك حوالى سنة 91هـ/709م .

عاشت هذه الامارة بين القبائل الغمارية والصنهاجية . وقد قبلوا بصالح وابنائه امراء عليهم لأن مؤسس الامارة كان من أصحاب النصاب أولا ،ولتعذر قبول القبائل بحصر الامارة فى شخص ينتمي الى قبيلة أخرى ،غيرة منهم وحسدا لبعضهم . وهذه الظاهرة معروفة بين القبائل ذات العصبية . وعليه فانهم يقبلون بقيام امير أجنبي عنهم يتصف بالحياد ،على أن يقوم أمير من احدى قبائلهم التى لم تحقق مبدأ القوة والغلبة .

وجملة القول أن هذه الامارة عرفت تقلبات وفتن عديدة اضعفتها وانهكت مؤسساتها،فانتهى بها الامر الى السقوط والاندثار . هذا ولم تصل امارة بنى صالح بنظمها ومؤسساتها الى طور حضارى متميز . وذلك راجع الى التركيبة القبلية ،والطابع البدوى السائدين فى تلك الامارة . وكان سقوطها على يد قبيلة ازداجة المتغلبة على وهران سنة 406هـ/1015م . وتم لهم ذلك بعد ضعف دولة بني صالح نتجية للضربات التى تلقتها من قبل الفاطميين ،ونتيجة لانشقاق عصبية اصحابها ،والتطاحن الذى تم فيما بين أهل البيت المالك .

أما الدولة الموحدية فينسبها المؤرخون الى شعب مصمودة ،بسبب انتماء ابن تومرت الى قبيلة هرغة المصمودية . كما أنها قامت فى ظل القبائل المصمودية ،وتحت حمايتها . واشهر تلك القبائل هي : هرغة ،وكومية (قبيلة عبد المؤمن) ،وتينملل ،وهنتاتة ،وكنفيسة ،وكدميوة ،وهسكورة ،وقد سبقت قبائل هرغة ،وتينملل ،وهنتاتة القبائل الأخرى فى اعلان الدعوة الموحدية .

ولما أراد ابن تومرت انشاء دولته اعتمد اساسا على نظام قبلي صرف . غير أن عبد المؤمن بن على ادخل فيما بعد تعديلات،عززت سلطات الدولة على حساب القبلية (1) . كما شن حملات قاسية ضد القبائل المشاغبة ،فاستأصلهم

---

(1) _ أنظر عبد الله على علام : الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن ابن على ، ص ص : 257/276 .

بدون شفقة . وبذلك أفهمهم بأن السيادة والسلطان للدولة وحدها . وربما كانت تلك التصفيات هي السبب المباشر لاستقرار الدولة الموحدية فيما بعد وعظمتها (1) .

ولما شاخت هذه الدولة نهضت القبائل من سباتها ، واظهرت اطماعها وهكذا تكالبت تلك القبائل على الدولة من جديد . وبالفعل تمكنت القبائل الزناتية من اسقاط الدولة الموحدية . ثم اقتسام ممتلكاتها . وأن بقي من الدولة شطرها الشرقي المتمثل في بني أبي حفص الهنتاتيين (1) .
أما حضارة الموحدين فقد ازدهرت بفضل حكمهم لبلاد الاندلس بمفردات الحضارة الرفيعة . وقد ساعد هذا الامر الدولة على اقتباس مظاهر وعينات حضارية عالية . الا أن ذلك لم يتعد المدن الكبرى بالمغرب . أما المناطق الاخرى فقد بقيت في ظل القبلية ذات الطابع البدوي . وهكذا انهارت الحضارة الموحدية بانهيار الدولة . ولم يرث العبد الواديون والمرينيون الابعض البقايا . ولكن الوارث الحقيقي — وهم الحفصيون — اجتهدوا في الحفاظ على التراث الحضاري الموحدي ، إلا أن غلبة القبائل العربية من هلال وسليم على ديار الدولة أعاق التطور الحضاري فيها .

فالدولة الحفصية تنتمي بدورها الى المصموديين ، لكون مؤسسها من قبيلة هنتاتة المصمودية . وكان ابو محمد بن أبي حفص قد التحق بولاية افريقية بغرض اطفاء نار الفتنة التي اشعلتها القبائل العربية الثائرة خلف ابن غانية . وبالفعل فقد استتب الامر بعد اخضاعه لقبائل : زناتة ، وهلال ، وسليم. ولما توفي استخلف ابنه عبد الرحمن، ولكنه عزل من قبل الخليفة المنتصر . وفي عهد الخليفة العادل تولى أعمال افريقية من جديد أحد ابناء أبي محمد ، وهو عبد الله ابن أبي محمد عبد الواحد الحفصي . وبعدها ثار عليه اخوه ابو زكرياء بتحريض

---

(1) — أنظر ما بعــــده .

من الخليفة المأمون . ولما استتب له الامر جاهر بالاستبداد ،ثم استقل نهائيا عن الدولة الموحدية باقامته للدولة الحفصية .(1) وهكذا تسببت الفتن القبلية بافريقية بصورة غير مباشرة في قيام دولة بني أبي حفص . فلولا الاضطرابات القبلية، واستفحال العصبية القبلية بافريقية لما قدم أبو محمد الى تونس ،ولما طمع ابناؤه في ولايتها ،وبالتالي في اعلان دولتهم في تلك الديار .

وطال عمر الدولة الحفصية امدا طويلا . وقد ظهرت عليها الشيخوخة بعد أن انهكتها العصبية القبلية ،واستفحل الاعراب عليها ،و تغلبت قبائلهم على اراضيها ، وثرواتها الاقتصادية ،فبقيت هيكلا دون روح . ولما انتشر في جسمها الفساد والتعفن سقطت هي الاخرى في ايدي العثمانيين الواقفيـــن في وجه المد الصليبي .

وكما سبق ذكره بخصوص حضارة الدولة ،فانها ورثت التراث الموحدي ، ولكن الوسط القبلي ،والمحيط البدوي الذي يكتنفها اعاقا النشاط الحضاري ، وتسببا في بطء المسيرة الحضارية بهذه الدولة ،وذلك بالمقارنة مع غيرها من دول الاندلس والمشرق .

6 — دول زناتة (2) :

ضيق المجال يحتم على الباحث ترك ذكر دولتي : خالد بن حميد الزناتي (3) وأبي قرة اليفرني (4) ،مع الاشارة بايجاز للكيان الذي قاده ابو يزيد مخلد ابن كيداد اليفرني ،لانه وأن كاد أن يقضي على الدولة الفاطمية (5) ،فان ثورته لا يمكن وضعها في مصاف الدول . لقد كانت ثورة ابي يزيد — في الظاهر —

---

(1) — أنظر ما قبلـــه .

(2) — أنظر اخبار زناتة في كتاب ابن خلدون : العبر ،مج :7 ، وكتـــاب ابن عميرة : دور زناتة في الحركة المذهبية ،ص ص : 92/65 .

(3) — أنظر ابن عذاري : البيان المغرب ،ج :1 ،ص ص : 54/53 ،ابن خلدون : العبر ، مج :6 ،ص ص : 222/221 .

(4) — ابن خلدون : نفسه ،مج :7 ،ص ص : 26/24 .

(5) — ابن عذارى : المصدر السابق ،ج :1 ،ص ص: 219/216 ،ابن خلدون : العبر ،مج :7 ،ص ص : 30/29 .

ثورة خارجية ضد دولة شيعية ،ومع هذا هي لاتخلو من عامل العصبية ، حيث كانت تلك الثورة تتغذى بشحنات من العصبية الزناتية التى كانت تقاوم تسلط قبائل كتامة و صنهاجة التى تقف من وراء الشيعة . لأن الطابع المذهبي — فى الحقيقة — أخفى ظاهرة العصبية ، وغلفها بوشاح المذهبية . لقد استند أبو يزيد فى بداية أمره الى روح العصبية المرغلة فى نفوس قبائل زناتة (1) ذات الطابع البدوى ، واستطاع بواسطة الدعوة الدينية أن يحقق التلاحم بين تلك القبائل (2) ،غير أن طعن بعضهم فى صدق دعوته الدينية أضعف تلك الوحدة (3) ،فانفضت العصبية ، وعادت كسابق عهدها ،عصبيات عديدة تفرق بينها الاهواء ، والاطماع ،وبقيت الدعوة الدينية أو المذهبية دون عصبية تحميها ،فتلاشت تحت ضربات عصبية أقوى ، توحدها التعاليم الشيعية .

أن اخماد ثورة ابى يزيد جاء — فى الظاهر — على يد عصبية مناوئة لعصبية زناتة ،وهي عصبية كتامة وصنهاجة . ولكن لايجب أن ينسى القارئ بأن خذلان قبائل زناتة لابي يزيد ،لعب أيضا دورا حساسا فى صالح الشيعة (4) .

---

(1) — أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 7،ص ص: 27/28—48 .

(2) — لقد سبقت الاشارة — فى هذا الفصل — الى ما ذكره ابن خلدون بخصوص الدعوة الدينية التى ((تزيد الدولة قوة على قوة العصبية)) . (أنظر أيضا المقدمة ،ج : 2،ص ص : 637/638 .)

(3) — أنظر فصل ((فى أن الدعوة الدينية من غير عصبية لاتتم)) ابن خلدون: (المقدمة ،ج : 2،ص ص : 638/642 . والعبر ،مج : 7،ص : 30) .

(4) — وأنظر كيف انفضت عنه عصبيته اثناء حصاره للمهدية سنة 334/945 . (ابن خلدون : العبر ،مج : 7،ص : 31) . وكيف تنكر له محمد بن خزر امير مغراوة ،وهو من عصبيته (العبر ،مج : 7،ص ص : 32/33—54) . أن هذا الامر قد أضعف العصبية الزناتية وافسدها ،وبالتالي عزز الشيعة و العصبية الكتامية الصنهاجية . وهكذا تبددت احلام زناتة فى اقامة دولة قوية وموحدة بالمغرب الاسلامي انذاك .

فأولى الامارات الزناتية هي امارتا : بني يفرن (1) ، ومغراوة (2) ،
وقد نشأت هاتان الامارتان في المغرب الاقصى ، والمغرب الاوسط . وكانتا
تتميزان بالطابع البدوي . وبالتالي فان نظامها تغلب عليه الروح القبلية ، وحيث
تجد الروح القبلية وحياة البداوة ، تجد حتما العصبية ظاهرة جلية .

فامارة بني يفرن هي امتداد لامارة أبي قرة ، وامارة أبي يزيد . الا أن
امارة بني يفرن الاخيرة كانت سنية المذهب (3) وليست خارجية . وتعرضت
هذه الامارة للانقطاع حوالي ثمانية عشرة سنة تقريبا . انقرضت الاولى بموت يعلى
ابن محمد على يد جوهر الصقلي . وبدأت الثانية بانتصاب يدوي بن يعلى
أميرا على بني يفرن . ونشبت بينه وبين بني عمه من مغراوة حروب وفتن كثيرة
جرت على المغرب وعليهم بكوارث ومصائب عظيمة . لأن تلك الفتن والصراعات
مردها الى أن كلا العصبيتين : اليفرنية ، والمغراوية كانتا تتطلعان الى الملك
فارادتا اخضاع العصبيات الاخرى وضمها اليها . ولما كان التكافؤ بينهما ما ثـ
وقائما ، فان المزاج لم يتحقق بالسهولة المطلوبة (4) .

وقد عرفت هذه الامارة تقلبات عديدة داخلية وخارجية ، اذ كانت تتوحد
وتتقارب مع المغراويين . وأحيانا أخرى تتقاتل معهم وتفترق عنهم ، وتعلن عـ
ولائها حينا للامويين وأحيانا أخرى تنقل ذلك الولاء الى الفاطميين بافريقية .

هذا ولم تكن قبائل بني يفرن جميعها تلتزم بالطاعة التامة الى الاميـ
بل تنشب في أغلب الاحيان فتن بين عشائر القبيلة الواحدة وبطونها . وعليـ
فان عجز تلك الامارة على توحيد العصبيات الصغرى ضمن عصبية يفرنية موحـ

---

(1) ـ أنظر خبر بني يفرن في كتاب ابن خلدون : العبر ، مج : 7 ، ص : 2 / 50 .

(2) ـ أنظر ابن خلدون : نفسه ، مج : 7 ، ص : 50 / 101 .

(3) ـ أنظر ابن خلدون : نفسه ، مج : 7 ، ص : 23 .

(4) ـ أنظر ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 649 / 650 .

جعلها تسقط لقمة سائغة في فسك قبائل كتامة وصنهاجة الموحدتين خلف سلطان الدولة الفاطمية . وبالتالي انهارت نهائيا على يد اللمتونيين من المرابطين سنة 462هـ/1069م (1).

أما مغراوة فقد عرفت هي الاخرى امارات عديدة بالمغرب الاقصى والاوسط : أهمها : امارة خزر بن حفص بن صولات مولى عثمان بن عفان . وكانت هذه الامارة بدوية (2) في طابعها ونظمها ، اذ كانت عبارة عن تجمع لقبائل زناتية ، وقاعدتها تلمسان . فبعد ثورة ميسرة تعزز أمر مغراوة وكان يرأسهم آنذاك محمد بن خزر ، الذي سلم فيما بعد قيادة مغراوة الى الادارسة ، وبني سليمان بن عبد الله (3) . واكتفى منهم بالرئاسة على قومه والدعاء لهم .

وبعد أن تسرب الضعف والوهن الى الدولة الادريسية ، باستفحال أمر بني أمية من جهة ، والفاطميين من جهة أخرى ، تحتم على المغراويين الاضطراب في اعلان ولائهم . حيث كانوا - كأخوتهم بني يفرن - يعلنون دعوتهم أحيانا الى الامويين ، واحيانا أخرى الى الفاطميين .

ولما أخذ شأن بني زيرى الصنهاجيين يظهر نشبت فتن عظيمة بينهم وبين المغراويين ، على اختلاف دولتهم ، لأن سقوط الامارة الأولى على يد الزيريين (سنة 361هـ/971م) (4) ، نتج عنه ظهور امارات مغراوية أخرى : كامارة آل زيرى بن عطية المغراوى بفاس (5) ، وامارة بني خزرون

---

(1) - ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص : 166 .
(2) - ابن خلدون : العبر ، مج : 7 ، ص : 51 .
(3) - ابن خلدون : نفسه ، ص : 52 .
(4) - أنظر اخبار امارة مغراوة التابعة للطبقة الاولى في كتاب ابن خلدون : العبر ، مج : 7 ، ص : 50/57 .
(5) - ابن خلدون : العبر ، مج : 7 ، ص : 58/76 .

بسجلماسة (1) . وامارة بني خزرون بن فلفول بطرابلس (2) . وقد عرفت هذه الامارات تقلبات واضطرابات عديدة لاداعي للاطالة في ذكرها . وانما نذكر سقوط تلك الامارات . فالاولى سقطت بايدي الحماديين ،باحتلالهم لفاس سنة 454هـ/1062م . والثانية اسقطها المرابطون سنة 446هـ/1054م . أما الثالثة فسقطت بعد أن انهكها اعراب بني هلال — على يد النورمانديين (نصارى صقلية) سنة 540هـ/1145م . حيث عينوا على طرابلس (حاضرة امارة بني خزرون بن فلفول) شيخا من بني مطروح كعميل لهم .

والخلاصة أن هاتين الامارتين (بني يفرن ومغراوة) لم تتوصلا — في الحقيقة — الى انشاء دولة قوية في نظمها ،ومستقرة في حياتها ،لأن الطابع البدوي الغالب عليهما حرمهما من احتلال مكانة لائقة بين الدول المعروفة ، ذات التقاليد والنظم المتطورة . . . وبالتالي فانهما لم تخلفا مآثر حضارية تستحق الذكر والتنويه . وكانت العصبية الجياشة بين عشائر مغراوة ،وبطونها عاملا سلبيا ،عرقل توحيد الكيانات الصغرى ضمن دولة قوية . وهكذا انقرضت امارة مغراوة ولكن بقيت قبائلها بعصبياتهم وبداوتهم .

وأهم دول زناتة على ما يبدوهما دولتا : بني عبد الواد ،وبني مرين ، فالاولى نشأت بتلمسان ،وحكمت المغرب الاوسط طوال ثلاثة قرون تقريبا . ونشأت هذه الدولة في اعقاب استبداد شيخ قبيلة بني عبد الواد على الموحدين في حكم تلمسان . وقد تدرج قبيل بني عبد الواد في مراتب الحكم والسلطة ،من الاقطاعات التي منحت لهم في المغرب الاوسط ،الى الولاية على تلمسان ،، فالاستبداد واعلان قيام الدولة في عهد يغمراسن ابن زيان (3) .

---

(1) — ابن خلدون : العبر ، مج : 7،ص : 77/80.
(2) — ابن خلدون : نفسه ،ص : 81/91.
(3) — أنظر ما بعده .

وقد شهدت هذه الدولة محنا ومصايب جمة . حيث تكرر سقوطها مرات عديدة بين ايدى الحفصيين احيانا ،والمرنيين احيانا أخرى . والسبب يعود كما اشار عبد الرحمن بن خلدون الى قلة العصابة و الانصار . وبالفعل فان دولة بنى عبد الواد كانت تعتمد أساسا على القبائل المتواجدة بالمغرب الأوسط لحمايتها . ولما كانت القبائل تتبع أهواءها واطماعها — بحكم الاعراف القبلية و قوانين العصبية — فان الدولة العبد الوادية في هذه الحال تشبه من بنى قصورا على الرمال الواهية . ومن المفارقات العجيبة أن هذه الدولة —وأن كان سبب ضعفها الظاهرة القبلية — كانت تعيد الكرة وتستعيد حياتها بفضل القبلية أيضا . بل استطاعت العيش والبقاء زمنا أطول من الزمن الذى عاشته دولة بنى مرين القوية بمؤسساتها وثروتها وجيوشها ،وانصارها . غير أن الدولة العبد الوادية عاشت كما يعيش المعوقون ،وأن طال زمن حياتهم . و هكذا نجحت هذه الدولة في البقاء — رغم ضعفها — حتى ظهور الاخوة بربروس وابتداء العهد العثماني في الجزائر . فكان سقوط الدولة على يد خير الدين ،بعد أن وصلت الدولة حدود التعفن والفساد .

أما دولة المرنيين فقد نشأت بعد المشاغبات و العصيان الذى انتهجته قبيلتهم ضد الدولة الموحدية . وفى الحقيقة لم تتوقف هذه القبيلة عن عصيانها منذ قيام الدولة الموحدية وحتى سقوطها . الا أن الدولة فى بدايتها كانت قوية شديدة ،فاستلحمت بنى مرين وخضدت شوكتهم ،وما أن ظهرت بوادر الشيخوخة على الدولة ،حتى نهضت هذه القبيلة ، وعادت الى ديدنها فى العصيان والخروج عن الطاعة . وهكذا ظلت تطاول الدولة الموحدية وتفاتنها حتى اسقطتها ،واقامت دولتها على انقاضها . وتم ذلك بفضل ما تمتاز به قبيلة بنى مرين من كثرة العصابة ،وشدة النعرة ، وما يتحلى به رؤساؤهم من خلال وصفات أهلتهم للرئاسة والسؤدد .

وقد عرفت دولة بنى مرين أيضا مشاغبات قبلية معادية للدولة ،استطاعت

بالمطاولة من اخضاعهم ،ولو لفترات من الزمن . ولم يستطع سلاطينها القضاء على القبلية نهائيا ،غير انهم استطاعوا مهادنة القبائل واسترضائهم بالعطايا والهدايا . ومع هذا يمكن اعتبار الدولة المرينية في منزلة افضل من اختيها : الحفصية والعبد الوادية تجاه النفوذ القبلي . ويبدو أن العصبية القبلية في افريقية والمغرب الاوسط كانت اشد وأقوى من المغرب الاقصى . والدليل على ذلك أن المرنيين عجزوا في بعض الفترات عن اخضاع القبائل بهذه الديار بينما استطاعوا ذلك في المغرب الاقصى (1) . ولنا حادثة القيروان ونكبة أبي الحسن المريني بها الاعينة صادقة لذلك .

وقد سقطت الدولة المرينية في وقت استفحلت فيه القبلية بالمغرب الاقصى ، فاضحت الدولة خلال ذلك هزيلة ،لا أثر ولا تأثير لها ،بل تسرب اليها الفساد والعفن هي الاخرى . فحكم عليها بالانقراض ،بعد أن انتقل الحكم الى بيت آخر من بيوتهم ،وهم بنو وطاس . ولكن ذلك لم يجد نفعا . فانتهى امر الدولة الى السقوط ،وقيام دولة السعديين .

ودولة بني مرين في جانبها الحضاري - كغيرها في ذلك الوقت - أي كدولة بني عبد الواد ،والدولة الحفصية ، لم تطور المعالم والآثار الحضارية التي ورثتها عن الموحدين . بل ظل الطابع القبلي سائدا فيها . كما أن روح البداوة لم تفارق مجتمعها ،الا في المدن الكبرى كفاس مثلا . وعليه فلم تظهر مراكز اشعاع حضارى تغطي المجتمع المغربي بنور الحضارة .

هذه خلاصة عما عرفته دول المغرب الاسلامي من آثار ايجابية وسلبية صادرة عن العصبية القبلية في تلك الربوع . ويلي هذا الفصل فصل آخر يعالج موضوع العصبية كظاهرة اجتماعية وتاريخية .

---

(1) - أنظر ما بعده .

العصبية القبلية ظاهرة
اجتماعية وتاريخية

موضوع العصبية - في الحقيقة - حير جل الباحثين الذين درسوا فلسفة ابن خلدون ، وقد حاولوا جميعا ايجاد تعريف وتحديد لهذه الكلمة التي غدت تحمل معان عديدة وعميقة ، ومع هذا فقد بقيت لغزا يحاول الباحثون في الفلسفة ، والاجتماع والتاريخ ، ايجاد المفتاح الذى يفك سره .

غير أنه بقي معرفة ما اذا كان ابن خلدون نفسه كان يقصد حقا ما جـاء في تلك التفسيرات المعاصرة ، ذات العمق الفلسفي ، والتي استخلصت بعد استقراءات واستنتاجات شغلت مفكرى الغرب والشرق معا . والملفت للنظر حقا أن ابن خلدون يبدو من خلال كتاباته حين يتكلم عن العصبية أنه يذكر شيئا بسيطا ، بحيث يبعث على الاعتقاد بانها مفهومة لدى قرائه ، ولا تحتاج الى شرح يستدعي التفلسف الواسع . ومرد كل هذا - على ما يبدو - الى ثقافته العربية الاسلامية ، حيث رأى بانه يستعمل كلمة عربية وردت في القرآن الكريم ، وشرحت في المعاجم والقواميس اللغوية . كما أن ثقافته الادبية أهلته للاطلاع على دواوين الادب العربي ، التي تزخر بالفاخرات ، والاهاجي التي تعبر عن ظاهرة العصبية القبلية . وعليه فهو - على ما يبدو - كان يعتقد بان كلمة عصبية لا تستدعي جهدا كبيرا لفهمها ، خاصة وانه كان يكتب لقراء من العرب المسلمين . وهكذا فقد كانت كلمة ((عصبية)) مغمورة في بحر من المفردات اللغوية ، التي جمعت في القواميس والمعاجم . وظلت هذه الكلمة تستعمل في حدود ضيقة ، كالفرائض مثلا ، ولما ظهر العلامة ابن خلدون ، انتشلها من ذلك العباب ، واخرجها من أهمال القرون والاعوام ، وجعلها محورا لفلسفته الاجتماعية (١) ، بعد أن شحنها بالمحتوى الاجتماعي .

(١) - يبدو أن كلمة ((عصبية)) كانت ترمي الى مفهوم التعصب القبلي والتضامن بين القبائل ، وذلك قبل عصر ابن خلدون ، بل هذا المفهوم ورد في كتاب ـ

ذى الحيوية الذى عرفت به فيما بعد (1) ،ومنذئذ اضحت لها دلالة مكملة للمفهوم اللغوى الوارد في المعاجم .

تنطلق المعاجم اللغوية في تفسيرها لمعنى العصبية من أصل الكلمة : ((عصب)) و ((العصب)) بمعنى : ((اطناب المفاصل التي تلائم بينهما وتشدها)) (2) . يلي ذلك سلسلة من المشتقات ، يضيق المجال عن ذكرها جميعا ،وعليه يمكن اجمال ذلك في المعاني التالية :الشد ،والشدة ، والطي والالتواء ،والتجمع ،والالتحام والاستدارة حول الشيء أو المكان . (3) .

أما كلمة ((عصبية)) فتعني اجمالا : الحث على نصرة الاولياء والاقرباء ، ظالمين كانوا أو مظلومين . كما تعني الدعوة الى المدافعة ،والمحاماة ، والمطالبة في سبيل الاقارب والاولياء (4) . اذن فالعصبية عبارة عن رابطة معنوية ذهنية ، تصل وشائج القربى ، وتشد اللحمة بين الاقرباء والاولياء .

= ميزان العمل ،لابي حامد الغزالي حينما تعرض الى معنى المذهب واختلاف الناس فيه و تعصب الانصار كل الى مذهبه ثم قال : ((احداهما ما يتعصب له في المباهاة والمناظرات. . . فالمذهب بالاعتبار الاول :هو نمط الاباء والاجداد ، ومذهب المعلم ،ومذهب أهل البلد الذى فيه النشوء فمن ولد في بلد المعتزلة ، أو الاشعرية ،أو الشفعوية ،أو الحنفية ،انغرس في نفسه منذ صباه التعصب له ، والذب دونه ،والذم لما سواه. . . . ومعناه انه يتعصب أي ينصر عصابة المتظاهرين بالموالاة ،ويجرى ذلك مجرى تناصر القبيلة بعضهم لبعض. ومبدأ هذا العصب حرص جماعة على الرئاسة باستتباع العوام . ولا تنبعث دواعي العوام الا بجامع يحمل على التظاهر ،فجعلت المذاهب في تفصيل الاديان جامعا ،فانقسم الناس فرقا ،وتحركت عوامل الحسد والمنافسة ،فاشتد تعصبهم ،واستحكم به تناصرهم)) .

(أبو حامد الغزالي :ميزان العمل ،تحقيق سليمان دنيا ص ص: 405/406) .

(1) — أنظر طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ،تعريب محمد عبد الله عنان ، ص ص: 88 — 89 — 93 — 94 — 97 محمد عبد الله عنان : ابن خلدون حياته وتراثه الفكرى ص ص: 118/119/121/122 . ساطع الحصرى :دراسات عن مقدمة ابن خلدون ص ص : 333/350 . علي الوردى :منطق ابن خلدون في ضوء حضارته و شخصيته ص ص: 92 — 99 — 295 .

(2) — انظر ابن منظور : لسان العرب مج : 2 ص: 790.

(3) — نفسه مج : 2 ص ص : 790/792.

(4) — انظر مقدمة هذا البحث .

وقد تباينت الآراء حول تحديد هذه الكلمة خاصة عند الباحثين الاجانب وتابعهم في ذلك بعض العرب . والسبب في تباين الآراء — في الحقيقة — يعود الى المفهوم الذى أعطاه الباحثون الاجانب للكلمة ((عصبية)) أى حسب اختلاف الترجمات ، وعندما اعاد المختصون العرب نقل الكلمة الى العربية تبين لهم بانها تحمل افكارا مختلفة ، منها ما يبعث على الفهم بانها روح التضامن والتكافل الاجتماعي . ومنها ما يفهم منه بانها تعبر عن الروح القومية . ومنها ما يفسر بانها شعور متطور للروح القبلية ، دون أن تصل الى مرتبة الروح القومية (1) . وثمة تفسير آخر يقول بأن العصبية عبارة عن السلطة السياسية في المجتمعات القبلية (2) .

ومنعا للالتباس وتجنبا للتطويل بعيداء . فانه يستحسن التوجه نحو صاحب المفهوم ومبتكره ، لان التعرف على المصطلح من مصدره الأول اجدى وانفع من الغرق في التعاليق الفلسفية التي لا داعي لها .

— نظريـــة ابن خلدون :

المفهوم الاصطلاحي يكمل المفهوم اللغوى ويثريه ، لان المنطلق في الاساس كان لغويا . وذلك أن المفهوم الاصطلاحي قد أبقى المعنى اللغوى الذى يفيد : الربط ، والشد والتجمع ، والاستدارة بالشيء ، والاحاطة به . ثم تطور المعنى بعد ذلك الى المعنى الاجتماعي الذى يرمي الى : الرابطة الاجتماعية ، والتلاحم ، والتكافل الاجتماعي .

---

(1) — انظر التفاصيل في كتاب لاكوست : العلامة ابن خلدون ، تعريب ميشال سليمان ، ص: 134/127 . وكتاب سفيتلانا : الحيوان البشري ، تعريب رضوان ابراهيم ، ص: 245/244 . وكتاب الصغير بن عمار : الفكر العلمي عند ابن خلدون ، ص: 42/41 . وكتاب عبد القادر جغلول : الاشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون ، ص: 63/ 65 . وكتاب عبد الغني مغربي : La pensée sociologique d'IBN KHALDOUN, PP : 157/160.

(2) — ايف لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص: 147/136 .

وصاحب المفهوم الاجتماعي هذا هو عبد الرحمن بن خلدون فهو مبدعه وواضعه . والان .. كيف توصل ابن خلدون الى ابتكار المفهوم الجديد للعصبية ؟ وكيف اضحى هذا المفهوم نظرية اجتماعية ؟

ثمة اجابات عديدة على ذلك التساؤل ، ويبدو أن افضلها هي التفسيرات التي قال بها كل من : غاستون بوتول ، وساطع الحصرى ،وعلي الوردى (1) . ومجمل تلك التفسيرات تفيد بأن ابن خلدون عندما ابتكر نظريته كانت تدفعه حوافز عديدة ، يمكن حصرها في عاملين احدهما خارجي ، وثانيهما ذاتي .

فالخارجي تعبر عنه الاوضاع الاجتماعية في المغرب الاسلامي . تلك الاوضاع التي تتميز بالصراعات العنيفة بين أهل البادية واهل الحواضر والامصار . ويبدو أن هذه الظاهرة المؤسفة ذات الجذور العميقة في المجتمع المغربي قد شغلت تفكير ابن خلدون الذى كان يبحث عن تفسير — وربما عن علاج — لها .

أما العامل الذاتي فيعمل عمله داخل نفسية ابن خلدون الذى كان بحكم نشأته العائلية ميالا الى السلطة ، ومحبا للعلم . وعليه فقد مالت نفسه — بحكم بيئته الحضرية ،وعائلته ذات الحسب والنسب — الى السلطة ، سواء كانت في شكل امارة يؤسسها — كما يعتقد بعضهم (2) ، أومكانة مرموقة وسلطة واسعة في دولة ما (كمرتبة حاجب مثلا) كما يرى آخرون . (3)

وبعد محاولات عديدة ، ومناورات يطول شرحها اصطدم ابن خلدون بالواقع المر ، وأحس بفشله في تحقيق طموحه . وهكذا اعتزل الناس ،واعتكف على التفكير والتأمل في علة فشله .

---

(1) — انظر تفاصيل تلك الاراء والتفسيرات في كتاب علي الوردى : منطق ابن خلدون ، ص: 121/109 .

(2) — علي الوردى : نفسه ، ص: 118/117 — 142 .

(3) — محمد عابد الجابرى : العصبية والدولة ، (معالم النظرية الخلدونية في التاريخ الاسلامي) ، ص: 64

وهكذا تفاعل العاملا ن : الذاتي و الخارجي ، وبعد التأمل في الواقع والتفكير في العلل والاسباب ، اهتدى الى العلة ، ووجد أنها واحدة بالنسبة للعاملين ، أنها العصبية . فالسبب في الصراعات بين البدو والحضر هي العصبية (1) ، والعائق الذى وقف حيال تحقيق طموحه في المنصب والسلطان هي العصبية، لأنه يفتقر اليها ، بحكم أنه حضري المنبت أولا ، (2) ومقطوع الجذور ثانيا (3) .

(1) ـ يعطي باحثون كثيرون اهمية كبيرة لموضوع العصبية عند ابن خلدون ومن بينهم الاستاذ ساطع الحصرى الذى يعتقد بانها تشكل محورا تدور حوله جل المباحث الاجتماعية والسياسية التي وضعها ابن خلدون ، (دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، ص:333) . ويخالف هذا الرأى آخرون ، فطه حسين يرى بأن موضوع ابحاث ابن خلدون هو الدولة (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص: 65/61) . وايضا لاكوست يرى بأن نظرية ابن خلدون أعمق من أن تنحصر في اطار ضيق كالعصبية ، أو الصراع بين البدو والحضر ، أو غيره . ويرى بأن النظرية تبحث في السكان كافة ، وتعالج نشاطاتهم الانتاجية ، والاستهلاكية ، والروحية سواء كان اولائك السكان بدوا أو حضرا ، أو أهل ريف . ويعبر ابن خلدون عن ذلك بكلمة ((عمران)) (العلامة ابن خلدون ص: 6 117/1) . وتتفق سفيتلانا باتسيفا مع لاكوست بسبب اعتمادهما على المنهج الماركسي ، (العمران البشرى في مقدمة ابن خلدون ص:188) . ويعتقد علي الوردى بأن محور النظرية هو موضوع ((البداوة والحضارة وما يقع بينهما من صراع)) . (منطق ابن خلدون ص:76) . أما محمد عابد الجابرى فيرى أن محور الابحاث هو الدولة غير أن هذا المحور يرتكز بدوره على قاعدة أساسية ، (العصبية والدولة ص :250) .

(2) ـ تتلاشى العصبية في البيئة الحضرية وتقوى وتشتد في البداوة ، وقد شرح ابن خلدون ذلك في عدة مواضع من مقدمته منها : ((فصل في أن سكنى البدو لا يكون الا لقبائل أهل العصبية)) ، (ج :2 ص: 593/592) ، و ((فصل في ان الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم)) ، (ج :2 ص: 596/595) و ((فصل في أن الامم الوحشية اقدر على التغلب من سواها)) ، (ج :2 ، ص: 607 609) و ((فصل في أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم) ، (ج :2 ، ص: 611) .

(3) ـ ينتمي ابن خلدون الى عائلة اندلسية انتقلت الى تونس فاصطنعها سلاطين

-أولا بنـــاء النظريـــة :

يبدو أن العصبية ليست غاية في حد ذاتها . لأن الموضوع الـــذى بعث في ابن خلدون الرغبة في التأمل هو السعي لبناء نظرية تفســر النشأة التاريخية للدولة (1) ، بغرض التوصل الى معرفة الشروط الـــتي تنشأ بواسطتها الدولة، وعليه فقد لاحظ بأن القوة والغلبة هما الشرط الاولى لقيام الدولة . وتوصل الى هذه الفكرة بعد أن تأمل طويلا فـــي ظواهر : العنف ، والقوة ، والغلبة التي يتميز بها المغرب الاسلامـــي آنئذ ، حيث لا سلطان الا للقوي .

وبعدها أخذ يتأمل في مصدر القوة والغلبة ، كيف يصبح بعضهـــم أقوياء متغلبين ، ويغد وآخرون ضعفاء مغلوبين . وهكذا انتهى به التأمـــل -بعد استقراء الشواهد التاريخية والاجتماعية -الى حقيقة اجتماعية تتمثل في ظاهرة العصبية التي تسود بلاد المغرب كافـــة .

= بني ابي حفص، نظرا لمميزاتهم العلمية ، وقدرتهم على التسيير والادارة ، وعلـــى الرغم من حسب هذه العائلة ونسبها فانها كانت بافريقيا ضئيلة العصابـــة ، ومقطوعة من جذورها الاولى باشبيلية . هنا عقدة ابن خلدون الذى يفتقر لعصبة وافرة العدد . وربما يكون قد عبر عن حاله حين كتب فصل ((في أن البيـــت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصبية ، ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه)) (المقدمة ج :2 ص:603/601) .

(1) - يرى طه حسين بأن ابن خلدون لم يوضح الكيفية التي توصلت بها القبلية الى الشكل الاجتماعي القديم الذى يعتبر هو منشأ الدولة . كما يأخذ عليـــه عدم الاعتناء بموضوع الاسرة اطلاقا . (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص:87 . وفي هذه الملاحظة شيء من الحقيقة ، لأن ابن خلدون وان لم يخصـــص فقرات أو فصل يدرس فيه الاسرة كخلية اجتماعية الا أنه تكلم عن التدرج الـــذى تتبعه الاسرة والعشيرة بعد تلاحمها مع غيرها لتصبح قبيلة كبيرة ثم تستولي على دولة كانت قائمة من قبل - (المقدمة ج :2 ص:610/609) ، ثـــم أنه أشار في موضع آخر الى تجمع الآدميين خلف وازع ينظم شؤونهـــم ويمنع العدوان بينهم ، منطلقا في ذلك من مقولة الاقدميين ((الانسان مدني بالطبع)) ، (المقدمة ج :2 ص:422/420 - ج :2 ، ص:684/683) .

1 — نشأة الدولة :

والآن يحق للقارئ* أن يتساءل عن المراحل المنطقية التي قطعها ابن خلدون أثناء تأمله . وعن موقفه من بقية النظريات التي أكتشفت بخصوص نشأة الدولة .

عاد ابن خلدون أثناء تأمله الى مكتسباته الثقافية ،ومطالعاته السابقة، فوجد المنطلق في المبدأ الذى وضعه افلاطون وتبناه من بعده ارسطو ، ثم الفيلسوف العربي ابونصر الفارابي (١) ،ويتمثل في المأثورة القائلة: ((الانسان مدني بالطبع)) . وهكذا انطلق ابن خلدون في بناء نظريته، حيث كتب: ((ان الاجتماع الانساني ضروري ،ويعبر الحكماء عن هذابقولهم: ""الانسان مدني بالطبع"" أى لا بد له من الاجتماع الذى هوالمدينة في اصطلاحهم ، وهو معنى العمران)) . (2)

ثم يشرح بعد ذلك الصورة التي يتم بها الاجتماع ، وضرورة التعاون بين الناس حسب تخصصاتهم . فينشأ بذلك المجتمع الذى تختلف نشاطات أفراده : الاقتصادية ،والاجتماعية ،والثقافية . فتظهر الحاجة الى خدمة بعضهم لبعض، وتصبح مع مرور الوقت لكل عضو في المجتمع ممتلكات خاصة به، بفضل ما اكتسبه من جهد عمله . وعند ذلك يطمع بعضهم في ممتلكات غيرهم ، فيلجأون الى انتزاعها منهم ،فيصدهم اصحاب الشيء، وهنا تنشب الفتنة المودية الى الاقتتال . (3)

* وقد يكون ميله الى الايجاز والاختصار هو السبب في التوسع وشرح الكيفية التي تكونت بها الاسرة كما جرت عليه عادة علماء الاجتماع المحدثين .

(١) — توفي سنة 339 هـ/950 م .

(2) — المقدمة ج : 1 ص: 420 . أنظر ايضا ابن عمار الصغير : التفكير العلمي عند ابن خلدون ص: 75 .

(3) — انظر ابن خلدون : المقدمة ج : 1 ص ص: 420/ 422 ،انظر ايضا عبد الله شريط :نصوص مختارة من فلسفة ابن خلدون ص ص: 28/ 30 . ادريس خضير : التفكير الاجتماعي الخلدوني وعلاقته ببعض النظريات الاجتماعية ، ص ص: 81/ 83 — 100 — 102 — 134/ 141 .

وبذلك يصل ابن خلدون الى صلب الموضوع . حيث تظهر الحاجة الى وازع (1) يصد الظالمين ، ويحمي المظلومين (2) . وهكذا توصل الى نتائج منطقية تتلخص كالتالي : (3)

(1) ـ الاجتماع الانساني أمر فرضته الطبيعة ، وبالتالي فهو ضروري .

(2) ـ حتمية العدوان ، لانه طبيعي أيضا في النفس البشرية .

(3) ـ الحاجة الى قيام الوازع الذى يكبح الظالمين ، ويذود عن المظلومين ، ويمنع العدوان .

ويظهر بقيام الوازع أول شكل من أشكال السلطة . وهذه السلطة تتدرج أيضا من صورتها البسيطة الى صورة أخرى متطورة . ففي البداية تكون على شكل رئاسة أو مشيخة لها صلاحيات استشارية غير قاهرة ، ثم تنمو وتشتد بتدرجها نحو الملك ذى السلطان والقهر (4) .

وجملة القول أن الطبيعة التي سنها الله سبحانه وتعالى في كونه ، تقتضي الاجتماع البشرى ، وتقتضي وجود العمران . ولما كان العدوان أيضا من مقتضيات الطبيعة فانه يتحتم التوفيق بين تلك المقتضيات ، لذا وجب قيام وسيط أو حكم يسوفق بينها ، ويفصل في الامر . وبذلك ظهر ما يسمى بالوازع أو الحاكم ، لانه اضحى من الضرورات المحتومة . وبالطبع فان ذلك

---

(1) ـ الوازع كما يراه ابن خلدون نوعان : وازع ذاتي مصدره التربية الدينية والخلقية ، بحيث يكبح الانسان نفسه عن الظلم وغيره . ثم وازع أجنبي ، يصدر عن مؤثر خارجي ، وهو السلطة القاهرة . وابن خلدون يقصد بكلمة وازع في أكثر المواضع النوع الثاني . (انظر محمد عابد الجابرى : العصبية والدولة ، ص ص : 246 ـ 272/273 . وأحمد عبد السلام : دراسات في مصطلح السياسة عند العرب ، ص ص : 89/96 . وملحم قربان : خلدونيات : السياسة العمرانية ، ص ص : 183/187 ـ 346/349) .

(2) ـ انظر المقدمة ، ج : 1 ، ص ص : 420/422 ، ج : 2 ، ص : 683 .

(3) ـ انظر محمد عابد الجابرى : العصبية والدولة ، ص ص : 245/248 .

(4) ـ انظر ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 609 . الجابرى : العصبية والدولة ، ص ص : 277/280 . ادريس خضير : التفكير الاجتماعي الخلدوني ، ص ص : 141/142 .

الوازع يحتاج الى معونة لكي يقوم بمهامه، فظهرت الى جانبه هيئة سميت فيما بعد حكومة أو دولة .

وهكذا يعلل ابن خلدون قيام الدولة بقوله: ((والسبب الطبيعي الاول في ذلك على الجملة أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة ... فالدولة دون العمران لا تتصور، والعمران دون الدولة والملك متعذر، لما في طباع البشر من العدوان الداعي للوازع)) (1) .

فالوازع حسب رأى ابن خلدون لايكون الا صاحب سلطة قاهرة، تمكنه من التحكم بقوة وغلبة ، وتؤهله لصد قوة العدوان . وعليه فهو يخرج من هذه الصفة رؤساء القبائل ومشائخها ، لأن حقيقة الوازع لديه كما يقول: ((فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية ، وإلا لم تتم قدرته على ذلك . وهذا التغلب هو الملك ، وهو أمر زائد على الرئاسة، لأن الرئاسة انما سؤدد ، وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في احكامه . وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر)) (2) . اذن فالوازع ليس شيخا ، ولا رئيس قبيلة، كما أن القبيلة ليست دولة . وعليه فان ابن خلدون بهذا يحدد معالم الدولة . وهي التي يسميها في مواضع عديدة بالملك ، ويعرفه بقوله: ((وانما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية، ويجبي الاموال ويبعث البعوث، ويحمي الثغور، ولا تكون فوق يده يد قاهرة . وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور . فمن قصرت به عصبيته عن بعضها مثل حماية الثغور، أوجباية الاموال أو بعث البعوث فهو ملك ناقص ، لم تتم حقيقته ...)) (3) .

---

(1) - ابن خلدون : المقدمة، ج : 3 ، ص: 1017/1018 .

(2) - ابن خلدون : نفسه ، ج : 2 ، ص: 609 - 683 . أنظر أيضا ملحم قربان : خلدونيات : السياسة العمرانية ، ص: 144/147 .

(3) - المقدمة، ج : 2 ، ص: 683/684 .

وهذا النص - كما هو واضح - يحدد أركان الدولة كما يتصورها ابن خلدون ، ومن خلاله يمكن ملاحظة الاتفاق بين ما جاء فيه ، وبين ما ذكره الباحثون المحدثون من نظريات تحدد اركان الدولة (1) .

والآن .. وبعد البرهنة على حتمية قيام الوازع ، وبالتالي حتمية نشأة الدولة التي تحكم الناس ، وتنزع الظالم عن المظلوم ، وبعد تحديد الصورة التي تعرف بالوازع والدولة .. فما هي الكيفية التي تنشأ بها الدولة؟ أو بالأحرى ما هي الوسيلة التي تنشأ بواسطتها الدولة ؟ .

2 - نظريـــة القوة والغلبة :

يجيب على ذلك ابن خلدون ، حينما يذكر بأن الوسيلة هي العصبية ، غير أن العصبية في حد ذاتها ليست هي محور نظريته كما يعتقد بعضهم ، بل المحور هو مبدأ القوة والغلبة . لأن العصبية بدون قوة وغلبة لا معنى لها . كما أن القوة والغلبة تتحقق - غالبا - بواسطة العصبية ، ويشير الى ذلك بقوله ((ولما كانت الرئاسة انما تكون بالغلب ، وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ، ليقع الغلب بها ، وتتم الرئاسة لأهلها ...)) (2) . ((وذلك أن الرئاسة لا تكون الا بالغلب ، والغلب انما يكون بالعصبية .. فلا بد في الرئاسة على قوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة)) (3) . ((وان المغالبة والممانعة انما تكون بالعصبية لما في ذلك من النعرة والتذامر ، واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه ..)) (4) .

---

(1) - أجمع المنظرون المحدثون على ضرورة توافر بعض المقومات لكي يصبح الكيان القائم دولة . وأشهر تلك المقومات ثلاثة : الشعب (أو الرعية) ، والاقليم المحدد ، والتنظيم السياسي الذى يقسم المجتمع الى حكام ومحكومين . (أنظر كتاب طعيمة الجرف : نظرية الدولة ، ج : 1 ، ص : 52) .

(2) - ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 598 .

(3) - نفسه ، ج : 2 ، ص : 599 .

(4) - نفسه ، ج : 2 ، ص : 631 .

ماذا يفهم من أقوال ابن خلدون هذه ؟ يبدو أنه لا يسمح بالفصل بين المبدأين : العصبية ، والقوة والغلبة . فهما كوجهين لدينار واحد . وهنا يكمن الالتباس الذى اخفى الحقيقة . وبالتأمل الدقيق يمكن الوصول الى اكتشاف الخط الفاصل بينهما . (1)

فالاسلوب الذى كتبت به النصوص يوحي بأن مبدأ الغلبة أمر لازم ، ولا يقبل غيابه ، حيث استعمل ابن خلدون عبارة ((ان الرئاسة لا تكون الا بالغلب)) وهذا أمر قاطع لا استثناء فيه . أما بخصوص العصبية فعبارة ابن خلدون لا تحمل معاني الجزم والقطع اذ جاءت العبارة هكذا ((والغلب انما يكون بالعصبية)) . ((فلا بد في الرئاسة ... أن تكون من عصبية غالبة)) ((وان المغالبة ... انما تكون بالعصبية)) .

اذن فالغلبة تحتل مكانة أولى في نظرية ابن خلدون ، فاذا تحققت أصبح تحقيق قيام الدولة ممكنا ، و اذا كانت الغلبة تتم في الغالب بواسطة العصبية ، فانها يمكن أن تتحقق بواسطة أخرى غير العصبية . وهنا يمكن فهم لماذا استعمل ابن خلدون اسلوب القطع عند الكلام عن الغلبة ، وتجنب ذلك الاسلوب عند الاشارة للعصبية . بل ربط العصبية بالغلب لكي تحقق هدفها .

والآن .. كيف تصل العصبية بواسطة القوة والغلبة الى انشاء دولة ؟ في البداية لا بد للعصبية أن تحقق هدفا أوليا . ويتمثل في مبدأ القوة والغلبة . وهذا أمر لا بد منه ، ثم بعد ذلك يحق للعصبية أن تتطلع للملك والدولة ، وهو الهدف الثاني . (2)

---

(1) - عن العصبية والقوة ، انظر ملحم قربان : خلدونيات : السياسة العمرانية ، ص ص: 150/151 .

(2) - أنظر الجابري : العصبية والدولة " ص ص: 275/279 .

فرئيس القبيلة ينتقل الى مرتبة الملك عندما تتوافر لديه القوة والغلبة. ولكن ذلك الامر لا يتحقق الا بالتدريج عبر المراحل. ففي البداية يـــرأس ذلك الشيخ أسرة أوعشيرة يستند الى قوتها ونفوذها . وهي في اصطلاح ابن خلدون العصبية الخاصة أوالكبرى . ويسميها ساطع الحصري العصبيـة البسيطة (1) .

ولكن ذلك الشيخ يحتاج الى صفات خلقية حميدة ، ومستوى مـادى معين يؤهلانه للسؤدد والرئاسة ــ وعليه لابد أن تتوافر فيه مايسميـــه ابن خلدون بالخلال والسجايا الفاضلة ، والثروة والكرم ... الخ . وكل هذا يدعم عصبيته للوصول الى هدفهـا (2) .

عندها يسعى ذلك الشيخ ــ بفضل صفاته وقوة عصبيته الخاصـــة ــ الى توحيد العشائر الاخرى التي تنتمي الى عصبيته العامة أوالصغـرى كما يسميها ابن خلدون ، وقد سماها ساطع الحصري بالعصبيـــــة المركبة (3) .

وذلك في حالة اجتماع العصبيات المتقاربة وتوحيدها ضمن عصبيـة شاملة مركبة من عدة عصبيات . ولكن تلك الوحدة لا يمكن تحقيقهـــا الا اذا كانت احدى العصبيات غالبة على غيرها ، عندها تمتزج العصبيـات كلها في عصبية واحدة (4) . وبالطبع فان التوحيد لا يتم بسهولـــة ، وبشكل تلقائي ، بل يحتاج هذا العمل الى قوة وغلبة ((لما فـــي طبائع البشر من الاستعصاء)) (5) .

---

(1) ــ انظر دراسات عن مقدمة ابن خلدون ص:338 .

(2) ــ انظر ابن خلدون : المقدمة ج :2 ص ص:616/614 . الجابرى : العصبية والدولة ، ص ص:277/273 .

(3) ــ انظر دراسات عن مقدمة ابن خلدون ص:338 .

(4) ــ انظر ابن خلدون : المقدمة ج :2 ص ص: 649 ــ 650/649 . الجابرى : العصبية والدولة ص ص:277/276 .

(5) ــ ابن خلدون : المقدمة ج :2 ص:593 .

وعندما تتوحد العشائر ، يسعى ذلك الرئيس ايضا الى توحيــــد عصبيته العامة في اطار أوسع واشمل من الأول ، فيلجأ الى جمــــع شمل القبائل .. وهكذا حتى تصبح عصبيته من القوة بحيث تكافىء قـوة الدولة القائمة . عند ئذ يفاتنها ويحاربها بالمطاولة . وينتج عن ذلــك أحد أمرين : اما أن تدرك العصبية الناشئة الدولة القائمة في هرمهــا وشيخوختها ، فتستولي عليها وتسقطها ، ثم تقيم دولتها الجديدة على انقاضها . واما أن تجدها في عز قوتها وعنفوانها ، وعندها تضطــر تلك العصبية الى اتباع الدولة . والدخول في ظل سلطانها . فتفحص من انصارهــا ، واتباعهــا . (1) .

ان صاحب العصبية — هنا — يعتمد كليا على مبدأ القوة والغلبة في مسعاه لانشاء دولته . ومبدأ القوة والغلبة يتم بواسطة العصبية ، فالدولة لا تتحقق لمن يطلبها — في هذه الحال — الا اذا توافرت لديه القوة والغلبة . على أنه يشترط عند تحقيق مبدأ القوة والغلبة فــي المجتمعات القبلية ان تتوافر العصبية الجياشة ، لأنها ضرورية ولازمة ، ولأن فقدان العصبية يمنع من الوصول الى منصب السلطان (2) .

وبهذا يتضح بأن الدولة نشأت لضرورة اجتماعية اقتضاهــــا الاجتماع الانساني . ولكنها تمت بواسطة القوة والغلبة ، تلك الغلبــة التي تصدر عن عصبية رئيس فئة اجتماعية قد تكون عشيرة ، أو بطن ، أو قبيلــة ، في البداية تكون سلطته استشارية غير قاهرة ولا ملزمة لغيره . والــوازع هنا ليس رئيس القبيلة ، بل هو العرف القبلي ، وحكم الجماعة . ثم بعدها يتدرج في مراتبه الى منصب الملك : ((وصاحب العصبية اذا بلغ الــى

(1) — أنظر ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 609/610 .
(2) — انظر ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 599 .

رتبة طلب ما فوقها . فاذا بلغ رتبة السودد والاتباع ، ووجد السبيل الى التغلب والقهر لا يتركه ، لانه مطلوب للنفس . ولا يتم اقتدارها عليه الا بالعصبية التي يكون فيها متبوعا . فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت)) . (1) .

اذن .. فقد اتضح بأن ابن خلدون وضع تصورا للكيفية التي تنشأ بها الدولة في المجتمع الذى عاش به . وبذلك يمكن اعتباره المبتكر الحقيقي لنظرية القوة والغلبة (2) . وقد توصل الى ذلك بعد أن مزج نظريته بالنظرية المنسوبة الى فلاسفة اليونان ، وهي نظرية التطور العائلي (3) . والغريب في الامر أن جل الذين درسوا النظريات المختلفة التي تفسر نشأة الدولة (4) . تجاهلوا مشاركة ابن خلدون في بناء تلك النظريات . والذى يؤلم — حقا — أن كثيرا من الباحثين العرب ساروا على ذلك النهج الذى يجحف مآثر المفكرين المسلمين والعرب ، مع أنه لا يمكن نكران المساهمة التي قام بها ابن خلدون ، خاصة وأنه المبتكر الحقيقي لنظرية القوة والغلبة (5) .

ومع هذا فمن الواجب التنويه بالقلة القليلة من الباحثين الذين

---

(1) — ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص: 593 .
(2) — انظر على الوردى : منطق ابن خلدون ، ص‌ص: 277/278 .
(3) — انظر ما بعده .
(4) — انظر كتاب طعيمة الجرف : نظرية الدولة ، ج : 1 ، ص‌ص: 28/51 . وكتاب محمد على محمد : دراسات في علم الاجتماع السياسي ، ص‌ص: 166/191 .
(5) — لقد نفى محمد عابد الجابرى أن يكون ابن خلدون قد عالج مشكلة سلطة الدولة سواء كان ذلك بواسطة الحق الالهي ، أو العقد الاجتماعي ، أو التنازع والغلبة . (أنظر العصبية والدولة ، ص‌ص: 288/301 . ثم أنظر الرد عليه من طرف ملحم قربان : خلدونيات ، ص‌ص: 356/368) .

انصفوا وتنزهوا . ومنهم : عالمان من علماء الاجتماع الحديث وهما : أوبنهايمر ، (1) ، وجومبلوفيتش (2) ، اذ قام هذان العالمان بابحاث اجتماعية في موضوع الدولة ، انتهيا من خلالها الى أن مبدأ القوة والغلبة هو الشرط الاساسي في نشأة الدولة وتاريخها . كما ذكرا صراحة بانهما قد اقتبسا هذه النظرية عن ابن خلدون (3) . وبالاضافة الى ذلك فان قلة قليلة من الباحثين العرب قد أشاروا الى هذا الموضوع في ابحاثهم ، من بينهم : نور الدين حقيقي: الخلدونية (العلوم الاجتماعية واساس السلطة السياسية) . وملحم قربان : خلدونيات : (السياسة العمرانية).

3ـ الموقف من النظريات الاخرى :

والآن .. اين يقف ابن خلدون من بقية النظريات التي تفسر النشأة التاريخية للدولة ؟

ففيما يتعلق بنظرية التطور العائلي فهي تعود الى أصول فلسفية يونانية ، قال بها افلاطون وارسطو ، ومفادها أن الدولة نظام طبيعي ، وكائن عضوى خاضع للتطور من الشكل البسيط الى المركب. والعقل هو الذى يكشف قوانينه ، نتيجة للغريزة الاجتماعية المركبة في الانسان . والمنطلق في ذلك هو ((أن الانسان مدني بطبعه)) فأنشأ الأسرة ـ الخلية الاجتماعية ـ بفضل ما يتمتع به من قوى

(1) ـ يعبر اوبنهايمر OPPENHEIMER عن ذلك بقوله : ((انك لترى اينما وجهت البصر قبيلة مقاتلة تعتدى على حدود قبيلة أخرى أقل منها استعدادا للقتال ، ثم تستقر في ارضها مكونة جماعة من الاشراف فيها : ومؤسسة لها الدولة)) . (ول ديورانت: قصة الحضارة ، مج : 1 ، القسم : 1 ص: 44) .

(2) ـ يعبر جومبلوفيتش GUMPLAWI عن ذلك بقوله : ((ان الدولة نتيجة الغزو ، وهي قيام الظافرين طبقة حاكمة على المنهزمين)) . (ول ديورانت: قصة الحضارة ، مج : 1 ، قسم : 1 ، ص: 44) .

(3) ـ انظر كتاب علي الوردى : منطق ابن خلدون ، ص ص: 277/278.

كغريزة التناسل (1) ، وذلك لحفظ النوع، ثم نشأت بعد ذلك العشائر، بعد التكاثر في النسل ، وتعدد الأسر، عندئذ تكونت القبائل، وبالتالي نشأت الدولة في آخر المطاف (2) .

ويتضح مما سبق شرحه بأن ابن خلدون اقتبس بعض حقائق هذه النظرية، ولكنه اضاف اليها فكرة جديدة ، وهي القوة والغلبة التي تتم بواسطة العصبية ، لان نشوء الدولة في نظره لا يتم تلقائيا وبدون اكراه للكافة (3) .

فأما بخصوص النظرية الدينية التي تسمى أيضا بالنظرية الثيوقراطية فان القائلين بها يعتقدون بأن الدولة نظام مقدس أوجده الله وفرضه على البشرية لغاية ارادها ، وهي تحقيق الاجتماع الانساني . وعليه فان السلطة العامة لها قدسية ، لان الله هو الذى منحها للحكام . فالحاكم هو ظل الله ، وخليفته في الارض .

ولهذه النظرية ثلاثة أوجه : أولها مايعرف بنظرية تأليه الحاكم ، وهي تلزم الرعية بعبادة العاهل ، كما كان يجرى في مصر القديمة ، والصين القديمة، وروما وغيرها . والوجه الثاني هو نظرية الحق الالهي المقدس . وجاء ذلك نتيجة للصراع الذى نشب بين الكنيسة وقياصرة روما ، وذلك بسبب مقاومة الكنيسة لفكرة الالوهية التي يدعيها القياصرة ، فانتهى بهم الامر جميعا الى الفصل بين السلطتين :الدينية والزمنية ، تبعا للمقولة التي جاء فيها : ((دع ما لقيصر لقيصر ،

---

(1) ـ يجد بعضهم بأن الغريزة الجنسية عامل هام في تكوين المجتمعات، وعليه فهم يؤاخذون ابن خلدون على تجاهلها . (أنظر ادريس خضير : التفكير الاجتماعي الخلدوني وعلاقته ببعض النظريات الاجتماعية ص: 84 .

(2) ـ انظر كتاب طعيمة الجرف :نظرية الدولة ج : 1 ص: 34/28 . وكتاب محمد علي :دراسات في علم الاجتماع السياسي ، ص: 170/167 .

(3) ـ ابن خلدون :المقدمة ج : 2 ص: 599 ـ 609 ـ 631 ـ 638 ـ 683 ـ 686 ـ 708 ـ 719 .

وما لله لله)) . وبذلك أصبحت السلطة الدينية من حق البابا ،بينما انفـرد الامبراطور بالسلطة الزمنية . أما الوجه الثالث فيعرف بنظرية التفويـض الالهي ،أو الحق الالهي غير المباشر . وقد ظهر هذا الاتجاه عند قيـام الامبراطورية المقدسة،في بداية القرن الثامن الميلادي ، حيث جمعـت الكنيسة السلطتين معا ، ثم فوضت السلطة الزمنية بعدها للامبراطـور (1) .

وابن خلدون — في هذه الحال — يرى بأن الدعوة الدينية وحدهـا لا تكفي — وان كان لا ينكر ما للعامل الديني من تأثير — فهو يـرى بأن الدعوة الدينية وحدها لا تحقق نشأة الدولة . بل تحتاج تلك الدعـوة الى قوة العصبية وعنفوانها . وهذا ما شرحه في بعض الفصـول مـن مقدمته . (2) وجملة القول فان ابن خلدون لا يقول بالنظرية الـدينيـة كما تصورها الباحثون الغربيون ، وان كان يرى أن يد الله تتدخل فـي مصائر الامور كلها (3) .

==================================

(1) — أنظر طعيمة الجرف :نظرية الدولة ،ج :1 ،ص: 43/35 . ومحمدعلـي محمد : دراسات في علم الاجتماع السياسي ، ص: 174/170 .

(2) — المقدمة ،ج :1 ،ص: 423/420 . ج :2 ،ص: 642/638 — 708/ 718 . وحظي هذا الموضوع بعناية بعض الباحثين مثل :نورالدين حقيقي : الخلدونية ،ص: 15/13 — 17 — 92/91 — 94 — 98 . وملحم قربان : خلدونيات ،ص: 39/36 — 71/67 — 74 — 76 — 117/116 — 134/ 137 — 169/167 — 213 — 238 — 248 — 249 — 275 — 290 — 338 — 351/350 — 354 — 362/356 . كما أن الباحث الفرنسي جورج لابيكا قد كتب كتابا خصص بكامله لهذا الموضوع وهو : السياسة والدين عند ابن خلدون ، تعريب :موسى وهبي ،وشوقي دويهي . وطبع بدار الفرابـي ببيروت سنة 1980 م . كما كتب ايضا عماد الدين خليل كتابا بعنوان : ابـن خلدون اسلاميا . وهو من منشورات المكتب الاسلامي ببيروت سنة 1405هـ/ 1985 م . وقد تعرض فيه المؤلف للاثر الديني على فكر ابن خلدون ، ولكنه لم يتعمق في موضوع مصدر السلطة ،واثر الدين على نشأة الدولة ،وان كان قد استشهد باقوال ابن خلدون عرضا في هذا الباب . (انظر ص: 29 — 31 / 33 — 40 — 46 — 49) .

(3) — انظر طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ،ص: 99/98 .

فمنذ البداية يعترض على الفلاسفة الذين يحاولون اثبات حتمية قيام الوازع أو الحاكم في المجتمعات البشرية ، بحجة أن هذا المنصب طبيعي ومفروض من الله بشرع - كما هو الحال في النبوة - وعليه فلا بد أن يتميز ذلك الوازع أو الحاكم عن بقية الناس بما خصه الله من فضائل واسرار تؤهله لمرتبة الحكم والسلطان . ثم يعلق على ذلك بقوله : ((وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه ، اذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك ، بما يفرضه الحاكم لنفسه ، أو بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم . وحملهم على جادته . فاهل الكتاب والمتبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب ، فانهم أكثر أهل العالم ، ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار ، فضلا عن الحياة ، وكذلك هي لهم للهذا العهد في الاقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب ..)) (1) .

وفي موضع آخر يستشهد بالحديث الصحيح ((ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه)) . ثم يقول : ((واذا كان هذا في الانبياء ، وهم أولى الناس بخرق العوائد ، فما ظنك بغيرهم ، الا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية)) (2) . وجملة القول فان النظرية الدينية لدى ابن خلدون تتمم نظرية القوة والغلبة التي جاء بها ، ولكنها لا تكون لوحدها مصدرا للسلطة ، بينما يمكن لنظرية القوة أن تستغني عن النظرية الدينية في بعض الحالات ، وفي الحالات المباشرة ، لأنه يؤمن بان العادات الطبيعية مصدرها الاساسي القدرة الالهية . وعليه فكل عمل انساني مباشر وغير مباشر يتم بأمر الله .

هذا عن النظرية الدينية . أما نظرية العقد الاجتماعي فترجع جذورها الى السفسطائيين ، وعلى رأسهم أبيقورس ، وهم يعتقدون بقدرة الانسان على

---

(1) - ابن خلدون : المقدمة ، ج : 1 ، ص : 423 .
(2) - ابن خلدون نفسه ، ج : 1 ، ص : 638 .

صنع القيم بارادة منه . والدولة ليست من عند الله،بل منحها الانسان لتنظيم حياته وللتوفيق بين مطالبه ومطالب الآخرين ، وبين حقوقه وواجباته، وحقوقهم وواجباتهم. وبذلك تكون الدولة عبارة عن اتفاق وعقد يتم بين الحاكم والمحكومين . وهوما يعرف بالعقد الاجتماعي .وأهم المفكرين الذين قالوا بهذه النظرية في ما بعد ،وبلوروها هم : هوبز،ولوك ، وروسو (1)

وهذه النظرية —على ما يبدو— متناقضة مع نظرية القوة والغلبة، ومتناقضة أيضا مع نظرية التطور العائلي ، وكذا النظرية الدينية. وبالتالي فهي ليست واردة في المفهوم الخلدوني (2) ، وقد سبق لطه حسين أن نفى الرأى القائل بأن ابن خلدون قد قال بنظرية العقد الاجتماعي ، وذلك حين كشف الخطأ الذى وقع فيه البارون دى سلان عند ترجمة المقدمة، الامر الذى أوهم بعض المستشرقين بكون ابن خلدون من القائلين بهذه النظرية (3) .

(1) — انظر طعيمة الجرف :نظرية الدولة،ج : 1 ،ص ص: 43/49 . محمدعلي محمد : دراسات في علم الاجتماع السياسي ،ص ص:174/ 180 . وجان جاك روسو في كتاب :العقد الاجتماعي ، تعريب بولس غانم ،نشر اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع (سنة 1972 م) .

(2) — لقد عالج موضوع، العقد الاجتماعي في المنظور الخلدوني ملحم قربان في كتابه خلدونيات ،وتوصل الى كون ابن خلدون يعارض تماما هذه النظرية بل ينسفها من الاساس،خاصة في ((فصل أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد)) المقدمة :ج : 2 ،ص ص: 649/ 650) . ثم اشار المؤلف الى التناقض الذى سقط فيه محمد عابد الجابرى بخصوص نظريات النشوء المختلفة، بما فيها نظرية العقد الاجتماعي (انظر ملحم قربان :خلدونيات ،ص ص: 115/ 120 — 125/ 126 — 344 — 363/ 367) . و يتفق نورالدين حقيقي مع رأى ملحم قربان في كون ابن خلدون يخالف وجهة النظر التي سجلها روسو التي تنفي التدخل الالهي في سلطات الدولة (انظر الخلدونية ،ص: 91)

(3) — طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ،ص: 71 .

أما نظرية التطور التاريخي فلا يقبل اصحابها بالاقتصار على نظرية واحدة لتفسير نشأة الدولة. ويعتقدون بأن الدولة عبارة عن ظاهرة سياسية تلت ظاهرة اجتماعية، قامت بشكلها الحالي بعد تطورات تاريخية ، وبواسطة عوامل عديدة تقوم على : الدين ، والقرابة ، والانشطة الاقتصادية ، والاجتماعية ، والقوة ، والوعي السياسي (1) .

ويبدو أن ابن خلدون يختلف مع أصحاب هذه النظرية في كونه قد حصر نظريته ضمن مفهوم القوة والغلبة ، وفيما اقتبسه من النظرية التي تقول بالتطور العائلي . وهذا بالطبع يخالف رأى الذين يقولون بأن نشأة الدولة تمت نتيجة لعملية تطورية ساهمت فيها عوامل كثيرة كما سبق ذكره .(2)

بقي في الاخير النظرية الماركسية ، وتستند هذه النظرية في تفسيرها لنشأة الدولة الى منظور اجتماعي - اقتصادي ، وقد شرحها انكلز في كتابه ((أصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة)) ، حيث يرى بأن تكوين الدولة لم يأت من خارج المجتمع ، بل جاء كنتيجة لتطور المجتمع الذى انتج هذه المؤسسة ، بعد أن استسلم للتناقضات مع نفسه ، نظرا لاستحالة تسويتها أو نبذها . لذا فان المجتمع قد اهتدى لفكرة الدولة ، لكي تكون

(1) - انظر كتاب طعيمة الجرف : نظرية الدولة ، ج : 1 ، ص: 51 ، وكتاب محمد علي محمد : دراسات في علم الاجتماع السياسي ، ص: 187/181 .

(2) - لم يعالج ابن خلدون فكرة التطور بنفس الطريقة التي اتبعها اصحاب نظرية التطور التاريخي ، ومع هذا فهو يلتقي معهم في كثير من النقاط . (أنظر فكرة ابن خلدون التطورية في كتاب لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص: 150/116 . وكتاب عبد الله شريط : الفكر الاخلاقي عند ابن خلدون ، ص: 419/389 . وكتاب محمد عزيز لحبابي : ابن خلدون معاصرا ، ص: 28/23 - 105/87 . وكتاب ادريس خضير : التفكير الاجتماعي الخلدوني ، ص: 106/99 . وكتاب ملحم قربان : خلدونيات ، ص: 222/216 . وكتاب نور الدين حقيقي : الخلدونية ، ص: 44/42) .

بمثابة حكم بين طبقاتهم المتصارعة على أن تحتل هذه المؤسسة أو الدولة مكانة فوق المجتمع لتحافظ على النظام . وعليه فان الدولة - وان كان قيامها يهدف الى تخفيف حدة المتناقضات ، والحد من التباينات الطبقية - قد أصبحت دولة الطبقة الاقوى ، تلك الطبقة التي تسيطر على الاقتصاد ، وتبعا لذلك سيطرت سياسيا أيضا (1) .

ولما كانت الماركسية تدعو الى زوال الدولة فان هذا المبدأ يخالف معتقد ابن خلدون ، وان كان في بعض الحالات يلتقي مع النظرية الماركسية من حيث فكرة الصراع الذى يراه ابن خلدون صراعا بين العصبيات وليس بين الطبقات بالمفهوم الماركسي . لأن فكرة الصراع بين الحضارة والبداوة ترفضها الماركسية (2) .

4 - اثر العصبية على استقرار الدولة :

وهكذا توصل ابن خلدون الى بناء نظرية تفسر نشأة الدولة . ولكنه وجد بأن الموضوع ما زال في حاجة الى اسهاب وسبر حتى الاعماق . لذا فقد انساق مع تأمله في عوامل وظواهر أخرى تحيط بالدولة وتمتزج بها ، من ذلك : تطور الدولة ، وظيفتها ، ودورها ، وحياتها ، ومؤسساتها ، ونشاطها ، ونظمها ، ومراسيمها .. وبالتالي اسباب سقوطها .

واهتدى - بعد تأمل عميق - الى أن تلك العوامل والظواهر تتأثر بظاهرة كانت تسود المجتمع المغربي آنئذ ، وهي العصبية القبلية التي

---

(1) - أنظر : أصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة ، تعريب اديب يوسف ، ص ص: 274/267 . محمد علي محمد : دراسات في علم الاجتماع السياسي ، ص ص: 191/187 .

(2) - لسهولة المقارنة بين الفكر الخلدوني والماركسي في المجال السياسي ، وعلى الاخص نشأة الدولة ومصدر السلطة انظر كتاب - نور الدين حقيقي : الخلدونية ، ص ص: 100/77 . وكتاب ملحم قربان : خلدونيات ، ص ص: 120 - 212/213 - 291/308 .

تعتبر مصدر القوة والغلبة . وعليه فقد توسع في معالجة هذا الموضوع من خلال استقراءاته للاحداث التاريخية التي مرت بالمجتمعات الاسلامية عامة ، والمجتمع المغربي خاصة .

ان تفسير ابن خلدون للحركة التاريخية التي تمر بها العصبية القبلية ينطلق أساسا من ظاهرة البداوة ، التي تختلف اختلافا بينا عن الحضارة . لأنه اكتشف أن العصبية القبلية تكون قوية ونشيطة في الاوساط البدوية (1) بينما تضعف وتضمحل في المجتمعات المتحضرة . وحتى اذا وجدت في الحواضر (2) ، فلا تصل في شدتها موصل العصبية في البداوة .

ومع هذا فالحضارة غاية للبداوة . لكون البداوة سابقة على الحضارة والبادية هي الأصل (3) . لأنها تعبر عما هو ضروري ، بينما الحضارة تعبر عن الكمالي . لذا فان أهل البادية الذين يعيشون في حدود الضروري من العيش يتطلعون الى حياة أفضل . ولن يتسنى ذلك لهم الا في ظل المدينة . وعليه فهي غايتهم (4) .

وهكذا يعلل ابن خلدون المسار التطوري لاهل البادية . فيربط

(1) - ابن خلدون : المقدمة ، ج : 1 ، ص ص : 592/593 - 595/596 . طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص : 97 . لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص ص : 130 - 134 . محمد عابد الجابري : العصبية والدولة ، ص ص : 261/262 .

(2) - ابن خلدون : المقدمة ، ج : 3 ، ص ص : 1019/1022 ، لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص : 137 .

(3) - ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص ص : 583/584 .

(4) - ابن خلدون : نفسه ، ج : 1 ، ص : 419 . ج : 2 ، ص : 583 . طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص : 86 . لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص ص : 125/126 . محمد عابد الجابري : العصبية والدولة ، ص ص : 225 - 227 - 228 . عبد الله شريط : الفكر الاخلاقي عند ابن خلدون ، ص ص : 218 - 219 .

البداوة مع الحضارة بمسار يتطور باستمرار الى الامام، ولكن في شكل غير مستقيم (1)، كما يتخيلها طه حسين عندما شرحها في سياق بحيث تجزأ الى اطوار ثلاثة متتالية (2) .

فالقبيلة — في هذا الحال — تنتقل من طور البداوة الى طور الحضارة مرورا بالدولة . ثم تنحدر الحضارة بالقبيلة بعد ذلك نحو الاضمحلال والافول . فتجر معها الدولة الى هوة الانحطاط والسقوط . وبسقوط الدولة وانهيار حضارتها تقوم دولة أخرى فتية على انقاضها ، وذلك بفضل احدى القبائل الجديدة الآتية من طور البداوة أيضا . وهكذا تتدرج هي الأخرى نحو : الحضارة ، فالانحطاط ، فالسقوط .. وبذلك تسير العصبية في مسار دائري نحو الامام . كما يتضح بأن ابن خلدون يرى أن تطور الحضارة مربوط بتطور الدولة (3) .

اذن فقد ظهر كيف يكون أثر العصبية المعززة بالقوة والغلبة في نشأة الدولة . كما أن نشأة دولة بواسطة العصبية يعني أيضا سقوطها بواسطة العصبية ، وذلك أنها — في أغلب الاحيان — تقيم دولتها بعد أن تسقط الدولة السابقة بالمطاولة والغلبة (4) . غير أنه في بعض الاحيان تقتطع عصبيات أخرى من الدولة بعض الاقاليم في الاطراف ، حيث تقيم فيها دولتها دون اسقاط الاولى (5) .

---

(1) — للاستزادة والتوسع يمكن الرجوع الى كتاب علي الوردي : منطق ابن خلدون ، (الدورة الاجتماعية) ، ص ص : 31/33 . والى فصل الدولة وتطورها (الدولة والعصبية) في كتاب محمد عابد الجابري : العصبية والدولة ، ص ص : 320/336 . والحركة الدائرية للدولة في كتاب عبد القادر دجغلول : الاشكاليات التاريخية ، ص ص : 139/141 .

(2) — أنظر طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص ص : 84/86 .

(3) — ايف لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص : 124 .

(4) — ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص ص : 873/878 .

(5) — نفسه ، ج : 2 ، ص ص : 864/865 .

٤ - سقوط الدولة :

والان .. وبعد معرفة الكيفية التي نشأت بها الدولة، فما هي الاسباب التي تؤدي الى سقوطها ؟

بما أن نشأة الدولة حدثت بتأثير من العصبية القبلية، التي تغلبت على دولة سابقة بالمطالبة والغلبة، فان هذا يعني بأن الدولة المغلوبة أصبح لها عصبية أضعف من الغالبة، ان لم تكن قدانعدمت تماما وفسدت. وهنا يظهر تأثير العصبية على الدولة سلبا وايجابا . فبينما تكون من جهة عاملا ايجابيا بالنسبة للدولة الناشئة، تضحي من جهة أخرى عاملا سلبيا على الدولة التي هي على وشك السقوط (1) .

بقي الآن معرفة الكيفية التي تسقط بها الدولة .

يعتقد ابن خلدون أن الخلل تسرب الى الدولة من عاملين اثنين . وهذان العاملان هما الركيزتان التي تقوم عليهما الدولة .

- الاول هو الشوكة والعصبية . (القبائل أو الجند) . (2)

- والثاني المال (3) .

وتكفي الاشارة هنا الى عامل العصبية ، لارتباطه بموضوع هذا الفصل . وعليه يمكن تصور أن الدولة قد تأسست في البداية بفضل عصبية مركبة، جمعت تحت لوائها عصبيات عديدة . وبمرور الوقت تقتضي طبيعة الملك وانانيته كبح جماح أهل العصبية الخاصة (وهم أعضاء عشيرة صاحب الدولة أو قبيلته) ،فيتمادى في تأديب ذوي قرباه واذلالهم، منعا لتطاولهم عليه، لكونهم يقاسمونه الملك منذ البداية،

---

(1) - طه حسين :فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ص: 108 .

(2) - ابن خلدون :المقدمة، ج :2، ص: 863/866 . يعتقد طه حسين أن هذا العامل لا يمكن تعميمه وان كان صحيحا في حالات عديدة (انظر فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ص: 113/114) .

(3) - ابن خلدون :المقدمة، ج :2، ص: 866/867 . لاكوست :العلامة =

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان ظاهرة الترف تكون قد أخذت منهم كل مأخذ ، وبذلك يشهر فوق رؤوسهم سيفان : سيف الترف القاطع، وسيف القهر الباتر ، ومع الوقت يزداد تنكر صاحب الدولة لعشيرته ويتضاعف خوفه منهم على سلطانه ، خاصة عندما تزداد احتجاجاتهم، فينزل فيهم قتلا وتشريدا ، حتى يهلكهم ، وتفسد بذلك عصبيته الخاصة، أي العصبية الكبرى وهي الاصل التي تضم تحت لوائها العصبيات الأخرى (الفروع) . وبذلك يلجأ الملك المستبد بالسلطان الى اتخاذ بطانة ومرتزقة بدلا من عصبيته الاولى . غير أنهم لا يقومون مقام تلك العصبية . من حيث الشدة والمنعة، لفقدان الرحم والنعرة، وهذا بالطبع يحرك ضغائن واطماع العصبيات الاخرى (المنظوية سابقا تحت عصبية صاحب الدولة) ، فيتطاولون عليه وعلى بطانته ، فيسلط عليهم بدورهم عقابه ، بالقتل والتشريد أيضا . وتنتقل هذه العادة الى ولاة العهد . وهكذا تفسد العصبية التي أنشأت تلك الدولة، وذلك بسبب الترف من جهة والقتل ، والقهر، من جهة أخرى، وبذلك تضعف شوكة الدولة، ويتقلص نفوذها ، وتغتصب اقاليمها النائية، وتسقط في أيدي عصبيات أخرى كانت تتطلع هي الاخرى الى اقامة دولة لها . ومع مرور الوقت قد تنقسم الدولة الى عدة دول أو تسقط نهائيا فريسة في مخالب عصبية أخرى موحدة وقوية (1) . ويعترض طه حسين على هذه النظرية التي تحمس لها بعض الباحثين الغربيين، عندما حاولوا تطبيقها على أمم الغرب . ويرى طه حسين بانها ليست عامة ولايمكن تطبيقها على بلاد اليونان مثلا ، وان كان قد اعترف بامكان

---

* ابن خلدون : المقدمة، ج : 2، ص: 146.

(1) - ابن خلدون : المقدمة، ج :2، ص: 650/649 - 866/863 .
لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص: 148/146 .

تطبيقها على الامبراطورية بروما ، والممالك الاوروبية في القـــرون الوسطى (1) .

هذا هو التصور الذى وضعه ابن خلدون لانهيار الدول وسقوطها، علما بأنه يرى بأن هرم الدول وسقوطها أمر لابد منه وهو طبيعي . (2) وذلك بعد توصله لفكرة عمر الدولة، اذ للدول اعمار كما للبشر. فيقسم عمر الدولة الى ثلاثة أجيال ، بمعدل اربعين سنة للجيل الواحـــد . ويستخرج ذلك بمتوسط عمر الانسان ، اذ يرى بأنه أربعون سنــة . وعليه يكون عمر الدولة مائة وعشرين سنة، تصل بعدها الى سن هرمها . فتكون عندئذ معرضة للسقوط في اية لحظة اذا ما توفرت العوامـــل الخارجية لاسقاطها (3) . وينتقد هذه النظرية بشدة طه حسين الـذى قال بأن ابن خلدون قد تعدى بهذا حدود الامكان العلمي ، ولكــن كثيرا من العلماء ايدوا رأى ابن خلدون (4) .

فالجيل الاول وهو المنشئ للدولة ، يبقى على خلقه الاول ، المستمد من البداوة وخشونتها . ويستمر هذا الجيل في حياته الاولى ، الـتي تتميز بشظف العيش والشجاعة ، وشدة العصبية .

ثم الجيل الثاني وهو الذى يشرع في بناء حضارة الدولة الجديدة على انقاض حضارة الدولة الزائلة ، فينتقل بذلك من البداوة وخشونتها الى الحضارة ورفاهية عيشها ، فينغمس الجيل الثاني هذا في الـترف .

---

(1) ـ طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص ص: 112/114 .

(2) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص ص: 862/863 . طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص: 123 . الجابرى : العصبية والدولة ، ص ص: 209/210 ـ 349 .

(3) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص ص: 655/658 . الجابرى : العصبية والدولة ، ص ص: 333/334 .

(4) ـ طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص ص: 123/125 .

والبذخ ، ويقلد اصحاب الدولة السابقة في التفنن ، واتقان الصنائع في مجالات : الطبخ ، والفراش وغيرها من أسباب التأنق ، والرفاهية . وينجر عن ذلك كله كسل في المطالبة والمدافعة ، وارتخاء وضعف في النفوس ، فتنطفئ حدة عصبيتهم .

أما الجيل الثالث فهو جيل الانحطاط ،لانه بعد عن طور البداوة تماما . وغرق في يم الحضارة ، وطراوة عيشها ، فهم - كما يقول ابن خلدون - ((من جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم . وتسقط العصبية بالجملة . وينسون الحماية والمدافعة ، والمطالبة ، ويلبسون على الناس في الشارة ، والزى ، وركوب الخيل ، وحسن الثقافة ، يموهون بها ، وهم في الاكثر أجبن من النسوان على ظهورها . فاذا جاء المطالب لم يقاوموا مدافعته فيحتاج صاحب الدولة حينئذ الى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ، ويستكثر بالموالي ، ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء ، حتى يتأذن الله بانقراضها ، فتذهب الدولة بما حملت))(1) .

هذا عرض نظري لما يمكن أن ينجر عن العصبية القبلية من تأثيرات على قيام الدولة وسقوطها ، ونشاط الحضارة وافولها ، ذلك النشاط الذى يلازم الدولة منذ نشأتها وحتى سقوطها .

ثانيا : مقومات العصبية ومظاهرها :

اتضح - مما سبق - بأن القوة والغلبة - عند ابن خلدون - مرحلة محتومة لكي تقوم العصبية بانشاء دولتها المرجوة . ويبقى الآن التعرف على الكيفية التي فهم بها هذا العلامة العصبية ، من خلال تحديد

---

(1) - ابن خلدون : المقدمة ، ج 2 : ، ص ص : 657/656 .

المقومات التي ترتكز عليها ، وابراز المظاهر التي تميزها .

ان مفهوم العصبية لا يتحدد - في الحقيقة كما يتبادر الى الذهن لأول وهلة - بفكرة القرابة ، وصلة الرحم ، ورابطة النسب فحسب ، بل اعطاه ابن خلدون مفهوما أكثر شمولية ، ومنحه قدرة على التلون ، ومرونة في الحركة والتطور ، الامر الذى جعله في غاية الطرافة والحيوية .

وبتتبع تسلسل افكار ابن خلدون ، تلك الافكار التي أسس بها نظريته بخصوص العصبية يتضح أنه شرع يفكر في حال مجتمعه وطبيعته التي يتميز بها . فوجد بأنه تسوده ظاهرة غلبت عليه ، الا وهي ظاهرة البداوة التي تطغى عليه بذلك الانتشار الواسع الذى يشمل المغرب الاسلامي كافة .

و بالمقابل فان مظاهر الحضارة والتمدن بقيت منكمشة ومتقوقعة ضمن المدن والامصار ، دون أن تتطور في مسارها المطلوب . ذلك أن المدن والامصار ظلت تبتلع ظاهرة البداوة في كل مرة تغزوها فيها القبائل البدوية . ومع هذا لم تصل تلك المدن المتحضرة الى المستوى الذى يجعل منها مصدر اشعاع حضارى يكتنف ما يحيط بها من ارياف وغيرها . فهي بذلك عاجزة عن القضاء على البداوة أو احتوائها .

لأن البداوة يمكن أن يتخيلها المتأمل كالنهر الذى لا ينضب مصدره ، فتجرى مياهه التي تفيض بين الحين والآخر (1) ، فتتجه نحو مصباتها

(1) - استعمل طه حسين هذا التشبيه عندما حاول تفسير الحركة التاريخية بالمفهوم الخلدوني حيث يشبه المجتمع بالنهر الذى لا يجف ابدا ، منبعه بالصحراء ومصبه في البحر ، ويمر النهر بعقبات عديدة يتغلب عليها ، ولكنه ينتهي الى نهايته في الطور الثالث الذى يرمز اليه بالبحر (أنظر فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص: 85) . ويرى الباحث بأن هذا التشبيه يصدق على البداوة التي تزحف كالسيل الذى يسيل من حين لآخر .

بالمدن والامصار ، فيفسد فيضانها المعالم الحضارية ، ويهدم المآثر السابقة التي يجدها في مجراه . وهكذا فبعد الفيضان الجارف والاجتياح المدمر ، تبدأ معالم حضارية جديدة في النمو على انقاض الاولى ، كما ينمو العشب الجديد في اعقاب السيل الجارف . غير أن هذه الحالة التي تتكرر باستمرار وعبر المراحل التاريخية كلها تعطل - بدون شك - سير البناء الحضاري ، نظرا لانعدام التواصل ، وفقدان التكامل .

وعليه فقد توصل ابن خلدون من خلال تأمله في مجتمع المغرب الاسلامي الى نتيجة هامة ، ضبطها ضمن ظاهرة العصبية التي اكتشفها بعد استقرائه للاحداث التاريخية المعاشة آنئذ ، أو التي تتبعها بفضل سعة اطلاعه ، وعمق تفكيره . وقد تدرج في استنتاجاته ، فكون بذلك نظرية متكاملة وشاملة عن دور العصبية القبلية وأثرها الاجتماعي والسياسي ببلاد المغرب . ويمكن اجمال فكرته ضمن النقاط التالية :

1) - يمكن في بناء تصوره لفكرة العصبية من منطلق هام ، وهو تصنيف المجتمع - حسب نمط الحياة ونمط الانتاج والاستهلاك الى صنفين رئيسيين : البدو (سكان القفار وأهل الارياف) ، ثم الحضر (سكان المدن والامصار) . (1) فمعاش البدو طبيعي ، لا يتعدى الفلاحة وتربية الحيوان . كما يكتفون بالضروري في حياتهم ، سواء كان طعاما أو لباسا

---

(1) - ابن خلدون : المقدمة ج : 2 ص ص : 577/579 ، طه حسين : الفلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص : 86 . هذا ويخالف لاكوست كثيرا من الباحثين القائلين بأن ابن خلدون يعارض بين فئتين اجتماعيتين هما : البدو والحضر ويتهم أولائك الباحثين بالسطحية ، ثم يشرح رأيه الذي يراه الحق وأصوب ، وهو أن ابن خلدون لا يعارض بين البدو والحضر فحسب ، بل ينظر الى الموضوع بنظر أعمق من ذلك التفسير ، لأنه في الحقيقة ينظر الى المجتمع ككل من خلال نشاطاته المادية (انتاج واستهلاك) ، والاجتماعية ، والروحية وقد عبر عنها بكلمة عمران بدوي وعمران حضري) . (أنظر لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص ص : 116/120) .

أو مسكنا ، وهنا يتضح بأن البدو صنفان (1) : الصنف الاول ينتحلون الفلاحة المستقرة ، دون اللجوء الى الرحلة ، وهم أهل الريف، والصنف الثاني يعتمد أصحابه اساسا على الرحلة وتربية الحيوانات ، وهم سكان السهوب و القفار . أما معاش الحضر فيتعدى الضروري الى مستوى ارقى ، وقد صنفه ابن خلدون في درجتين : الحاجي ، ثم الكمالي ، كما ينتحل الحضر الوانا عديدة من الصنائع والفنون التي تنجر عن الرفاهية وسعة العيش (2) . وبالطبع فهذا عائد الى أن جيل البدو أقدم وأسبق من جيل الحضر، لأن الحضارة مرتبة متطورة عن البداوة . (3)

ولما كان ابن خلدون يهتم بموضوع العمران ، فقد لاحظ وجود شكلين متباينين له ، فاطلق على الشكل الاول اسم العمران

---

(1) ـ انظر ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص ص : 577/578 ـ 579/583 ، طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص ص : 86/87 ، لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص ص : 118 ـ 126 ، الجابري : العصبية والدولة ، ص ص : 216/228 .

(2) ـ انظر ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص ص : 577/579 ، لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص ص : 121/122 ، الجابري : العصبية والدولة ، ص ص : 118/119 ـ 229 ـ 231/234 ، محمد عزيز الحبابي : ابن خلدون معاصرا ، ص : 30 ، عبد القادر د جغلول : الاشكاليات التاريخية ، ص ص : 51/52 .

(3) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص ص : 583/584 ، طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص : 86 ، لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص ص : 125/126 ، الجابري : العصبية والدولة ، ص ص : 225 ـ 227 ـ 228 ، شريط : الفكر الاخلاقي عند ابن خلدون ، ص ص : 210/211 ـ 217 ، د جغلول : الاشكاليات التاريخية : ص : 52

البدوي (١) ، وأطلق على الثاني اسم العمران الحضري (2) . وبالتأمل والدراسة وجد بأن الحياة في البادية صعبة للغاية خاصة من حيث الوضع الأمني (3) والوضع الاقتصادي (4) . وهذا يختلف بالطبع عن الحياة في الحواضر والامصار . فالمجتمعات البدوية تتميز بالنظم القبلية لأن الظروف الطبيعية القاسية والسائدة في القفار تحتم وجود شكل من النظم الاجتماعية يسمح للجماعات الانسانية بالتعايش ضمن شكل متلاحم معنويا ، بغرض تحقيق الأمن والحماية والعيش لهم ، وهكذا نشأ النظام القبلي الذي يعتبر سمة من سمات البداوة (5) . ولما كان النظام القبلي سمة مميزة للبداوة ففي كليهما تتجلى ظاهرة العصبية . لأن العصبية مظهر صريح للقبلية (6) . كما أن البادية مرتع خصب للعصبية . وفي ذلك يقول ابن خلدون : ((البداوة شعار العصبية)) (7) .

(١) — انظر ابن خلدون : المقدمة ، ج : ١ ، ص : 418 ، وعنوان الباب الثاني من المقدمة هو ((في العمران البدوي والامم الوحشية ...)) . (ج : ١ ، ص : 419 ، ج : 2 ، ص : 577 ، انظر ايضا لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص : 118 ، الحبابي : ابن خلدون معاصرا ، ص : 29) .

(2) — ابن خلدون : المقدمة ، ج : ١ ، ص : 418 ، وعنوان الباب الرابع هو ((العمران الحضري والبلدان والامصار)) . (ج : ١ ، ص : 419 ، ج : 3 ، ص : 965 ، لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص : 118) .

(3) — ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 588/589 — 592/593 . الجابري : العصبية والدولة ، ص : 220/228 .

(4) — ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 577/583 . الجابري : العصبية والدولة ، ص : 216/228 .

(5) — جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج : 4 ، ص : 313 . احسان النص : العصبية القبلية ، ص : 53 .

(6) — احسان النص : العصبية القبلية ، ص : 106 .

(7) — ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 857 ، انظر طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص : 97 ، لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص : 130 — 134 — 141 . الجابري العصبية والدولة ، ص : 261 .

فالبادية لا يقدر على الحياة فيها الا القبائل ذات العصبية (1) . واذا وجدت قبائل ذات عصبية ضعيفة في البادية فانها تضطر الى التماس الحماية من طرف عصبية قوية ، حيث تلتصق بها بواسطة الحلف والجوار ، ويتم ذلك تبعا لمقتضى الطبيعة التي خصت البشر بنزعة العدوان والظلم (2) .

2 ــ بما أنه قد تقرر بأن سكنى البادية لا يقدر عليها سوى القبائل ذات العصبية ، فان سكان البادية في هذه الحال يتميزون بالشجاعة والاقدام (3) . وكلما كانوا أكثر توغلا في البادية ، كانوا أكثر توحشا وشجاعة ، وبالتالي فهم أقدر على التغلب من سواهم (4) . وعليه فـان العصبية تختلف من حيث الشدة بين المتوغلين في البداوة ، وبين سكان الارياف وأطراف البادية المتصلة بالامصار والمدن . وحتى اذا ما تكافأت عصبية مع أخرى في العدد ، فان الغلبة تكون دوما للعصبية التي تعيش

---

(1) ــ ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص ص : 592/593 .

(2) ــ أنظر جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج : 4 ، ص ص : 327 ــ 360 . لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص ص : 141/143 . محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والامم السامية ، ص ص : 148/173 . احسان النص : العصبية القبلية ، ص ص : 88/89 .

(3) ــ أنظر ابن خلدون : المقدمة ، ((فصل في أن أهل البدو أقرب الى الشجاعة من أهل الحضر)) (ج : 2 ، ص : 588) . ((وفصل في أن معاناة أهل الحضر للاحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم)) . (ج : 2 ، ص : 589) . أنظر أيضا علي الوردي : منطق ابن خلدون ، ص ص : 274/275 . ملحم قربان : خلدونيات ، ص : 209 .

(4) ــ أنظر ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص ص : 582/583 ــ 588 ــ 607/609 . عبد الله شريط : الفكر الاخلاقي عند ابن خلدون ، ص ص : 212/213 . ملحم قربان : خلدونيات ، ص ص : 208/209 .

في محيط أكثر توحشاً ، وابعد عمقاً في القفار ، واذا ما تمكن أصحاب العصبية المتوغلة في البداوة والمتشددة في الوحشية من اقامة ملك ، فانهم في الغالب يستولون على مقاطعات أوسع وأكبر مما يستولي عليه أصحاب العصبية القريبة من العمران الحضري (1) .

3 ـ فعلى الرغم من أن ((البداوة شعار العصبية)) فان العصبية تظهر أحياناً في المدن والامصار ، خاصة عندما تصل الدولة الى الهرم ، وتظهر عليها علامات الضعف والانحلال . (2)

وتبرير ذلك أن الالتحام والاتصال طبيعة في البشر ، يسعون الى تحقيقها حتى وان لم يجمعهم نسب واحد ـ وعليه فانه يمكن تحقيق عصبية بدون نسب يذكره وان كانت هذه العصبية ـ في الحقيقة ـ أدنى من الاولى واضعف شوكة منها . وهذا النوع من العصبية التي لا تقوم على النسب تنشأ في بعض المدن خلال حالات خاصة وشاذة . وذلك أن الالتحام بين الناس يتم بواسطة المصاهرة . وينتج عن ذلك أن يتوزع الناس فرقاً وعصائب تبعاً للمصلحة المشتركة .

ومن علاماتها أن يتنافس مشائخ الاحياء ذوي الطموح والاطماع ، ويتقاتل انصارهم بقصد تركيز السلطة في عصبية معينة . وبذلك يحتاج كل شيخ الى مزيد من الانصار لتحقيق مبدأ الغلبة . وينتهي الامر بتغلب احدى العصبيات على غيرها .

---

(1) ـ أنظر ابن خلدون : المقدمة ، (فصل في انه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها أوسع)) . (ج :2 ص:617) . ملحم قربان : خلدونيات ، ص ص:215/216 .

(2) ـ ابن خلدون : المقدمة ج :3 ص ص:1019/1022 . علي الوردي : منطق ابن خلدون ص ص:295/296 . الحبابي : ابن خلدون معاصراً ، ص: 38 .

وفي بعض الاحيان يتطاول الشيخ المتغلب على سلطات الدولة القائمة ، ويسعى الى الاستبداد ، ويضع نفسه في مصاف الملوك ، والباعث على ذلك هو تقلص سلطان الدولة ، وظهور بوادر الضعف عليها ، كما أنه قد ((يحدث التغلب لبعض السفلة من الغوغاء والدهماء ، واذا حصلت له العصبية والالتحام بالاوغاد لاسباب يجرها له المقدار فيتغلب على المشيخة والعلية اذا كانوا فاقدين للعصابة)) ، (1)

4 ـ وينظر ابن خلدون الى العصبية من زاوية عسكرية (2) ، فيراها أحيانا قوة دفاعية ، (3) واحيانا أخرى قوة هجومية (4) ، ففي الحالة الاولى تكون العصبية بمثابة الاسوار الحامية للقبيلة ، وذلك أنه اذا كان الناس في المدن يعتمدون في حمايتهم على الاسوار وعلى الحامية التي تخصصها الدولة لهذا الغرض ، فان سكان البادية بالطبع يفتقرون الى الاسوار ، كما تنعدم لديهم حامية مأجورة للقيام بالعمليات الدفاعية ، فوازعهم هم شيوخهم والمدافع عنهم هم شيوخهم ، وفي هذه الحال تصبح العصبية هي الوازع الحقيقي الذي

---

(1) ـ ابن خلدون : المقدمة ج :3 ، ص: 1022 .

(2) ـ لأن العصبية في نظره مولد للقوة والغلبة التي تأخذ طابعا عسكريا في غالب الاحيان . وقد حظي هذا الرأي باهتمام كبير من الدارسين . أنظر على سبيل المثال لا كوست : العلامة ابن خلدون ، ص: 135/143 ، وملحم قربان : خلدونيات ، ص: 206/209 .

(3) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ج :2 ص: 593 ، طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص: 89 . أحمد عبد السلام : دراسات في مصطلح السياسة عند العرب ، ص: 109/111 ـ 114/115 . الجابري : العصبية والدولة ، ص: 248/249 ـ 261 .

(4) ـ ابن خلدون : المقدمة ج :2 ص: 609/610 ـ 617 . طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص: 89 . أحمد عبد السلام : دراسات في مصطلح السياسة عند العرب ، ص: 109/111 ـ 114 .

يصد العدوان ، ويذود عن الحمى ، اذن فالقوة الدفاعية هنا هـــي العصبية ، سواء كان ذلك داخليا ، بمنع العدوان بين افراد القبيلـــة ، أو خارجيا بالذود عن القبيلة كلها ضد أي عدوان من خارجها .

أما الحالة الثانية التي تكون فيها العصبية بمثابة القوة الهجومية فتتجلى في أنه اذا كانت العصبية قوة دفاعية فهي أيضا قوة هجوميـة ، حيث لا تكتفي بالذود عن الحمى ، والانتصار على الرئاسة ضمن عصبيـــة خاصة ، بل تتطلع الى اخضاع العصبيات الاخرى القريبة اليها ، بغـــرض تشكيل عصبية أوسع وأعم ، ولكي يتسنى ذلك ، عليها أن تتحول الـــى قوة هجومية ، فتقاتل تلك العصبيات وتخضعهم ، ثم تدمجهم ضمنهـــا وبذلك تنشأ العصبية العامة والموحدة ، وهكذا تزداد العصبية قـــوة على قوتها ، فتتطلع الى اسقاط الدولة القائمة والاستيلاء عليها بهـدف انشاء دولة خاصة بالعصبية الصاعدة ، وذلك على انقاض الدولة المنهارة ، وبالطبع لا يأتي ذلك الا بالقتال ، أي بالهجوم ، وبالقوة والغلبة ، وهكذا يتضح بأن ((الغاية التي تجرى اليها العصبية هي الملك)) (1) ، علما بأن العصبية الصاعدة لا تتمكن من اسقاط الدولة القائمة الا بالمطاولة (2) .

يرى ابن خلدون بأنه لا يمكن للعصبية أن تكون قوة هجوميـــة اذا تعذر عليها أن تكون قوة دفاعية ، وخضوع العصبية والانقياد للقوة أخرى أمر كافي لا فسادها وكسر شوكتها ، ويعتقد أن من علامـــات الرضوخ للغير القبول باعطاء الضرائب (3) ، وفقدان الشجاعة ، والدعـة والترف ، والاستسلام للاحكام ولو كانت جائرة ، وعليه فكيف لمن لا يستطيـع

---

(1) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 609 .
(2) ـ ابن خلدون : نفســه ، ج : 2 ، ص : 873 .
(3) ـ ابن خلدون : نفسه ، ج : 2 ، ص : 611 / 612 . وينتقد طه حسين هذا الرأي ، أنظر فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص : 94 / 95 .

يصد العدوان ، ويذود عن الحمى ، اذن فالقوة الدفاعية هنا هي العصبية ، سواء كان ذلك داخليا ، بمنع العدوان بين افراد القبيلة ، أو خارجيا بالذود عن القبيلة كلها ضد أي عدوان من خارجها .

أما الحالة الثانية التي تكون فيها العصبية بمثابة القوة الهجومية فتتجلى في أنه اذا كانت العصبية قوة دفاعية فهي أيضا قوة هجومية ، حيث لا تكتفي بالذود عن الحمى ، والاقتصار على الرئاسة ضمن عصبية خاصة ، بل تتطلع الى اخضاع العصبيات الاخرى القريبة اليها ، بغرض تشكيل عصبية أوسع وأعم ، والذي يتضمن ذلك ، عليها أن تتحول الى قوة هجومية ، تقاتل تلك العصبيات وتخضعهم ، ثم تدمجهم ضمنها ، وبذلك تنشأ العصبية العامة والموحدة ، وهكذا تزداد العصبية قوة على قوتها ، فتتطلع الى اسقاط الدولة القائمة والاستيلاء عليها بهدف انشاء دولة خاصة بالعصبية الصاعدة ، وذلك على انقاض الدولة المنهارة ، وبالطبع لا يأتي ذلك الا بالقتال ، أي بالهجوم ، وبالقوة والغلبة ، وهكذا يتضح بأن ((الغاية التي تجرى اليها العصبية هي الملك)) (1) ، علما بأن العصبية الصاعدة لا تتمكن من اسقاط الدولة القائمة الا بالمطاولة (2) .

يرى ابن خلدون بأنه لا يمكن للعصبية أن تكون قوة هجومية اذا تعذر عليها أن تكون قوة دفاعية ، وخضوع العصبية وانقيادها لقوة أخرى أمر كافي لا فسادها وكسر شوكتها ، ويعتقد أن من علامات الرضوخ للغير القبول باعطاء الضرائب (3) ، وفقدان الشجاعة ، والدعة والترف ، والاستسلام للاحكام ولو كانت جائرة ، وعليه فكيف لمن لا يستطيع

---

(1) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص: 609 .
(2) ـ ابن خلدون : نفسه ، ج : 2 ، ص: 673 .
(3) ـ ابن خلدون : نفسه ، ج : 2 ، ص: 611 / 612 . وينتقد طه حسين هذا الرأي ، أنظر فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص: 94 / 95 .

الدفاع عن نفسه أن تكون له القوة على الهجوم على غيره؟ لذا فمن عجز عن الدفاع يستحيل عليه المطالبة والمهاجمة .

5) ـ ولما توصل ابن خلدون الى كون العصبية هي القوة الدفاعية للقبيلة، فانه وجد بأن شدة الدفاع وصدقه لا يتمان الا اذا كان المدافعون يشكلون عصبية واحدة، ويربطهم نسب مشترك، حيث تقتضي الطبيعة البشرية روح التعاطف والغيرة على ذوي الارحام والاقرباء، كما يقول: ((اذ نعرة كل أحد على نسبه وعصبيته أهم . وما جعل الله في عباده من الشفقة والنعرة على ذوي ارحامهم ... واعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن اخوة يوسف عليه السلام حين قالوا لابيه: "لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذاً لخاسرون" والمعنى أنه لا يتوهم العدوان على أحد مع وجود العصبية له)) (1) . فهو يرى أنه اذا تحقق ذلك التعاضد والتناصر يعظم شأن العصبية ، وبهذا يرتدع العدو، ويمتنع عن العدوان ، وان حاول ذلك وجد القوة المدافعة الممثلة بالعصبية . أما المتفردون في الانساب والفاقدون للعصبية فلا يستطيعون أمام عدوهم مدافعة ولا حماية ، فيتسللون هربا أفرادا أفرادا ، ويأوون الى ملاجئ آمنة حيث الاسوار المسيجة ، والحكام القاهرون على الأمن ، وذلك لأنهم عاجزون عن سكنى البادية بدون عصبية .

6) ـ ولكي يمنع الالتباس فانه حدد مفهومه تجاه موضوع النسب، اذ يرى بأن ((النسب أمر وهمي لا حقيقة له ، انما هو في هذه الوصلة والالتحام)) (2) .

ثم يستشهد بالقول المأثور: ((النسب علم لا ينفع، وجهالة لا تضر)) (3).

(1) ـ ابن خلدون: المقدمة، ج : 2، ص: 593 .
(2) ـ نفسه، ج : 2، ص: 594 .
(3) ـ نفسه، ج : 2، ص: 594 .

اذن فهو لا يعترف بصحة النسب ، وانما يهمه «ثمراته» أو نتائجه وهي الوصلة والالتحام «أي العصبية . ويتم ذلك بالانتساب الى عصبية معينة اما ((بقرابة اليهم ، أو حلف ، أو ولاء ، أو لفرار من قومه بجناية أصابها ، فيدعي بنسب هؤلاء ويعد منهم في ثمراته من النعرة والقوّد وحمل الديات وسائر الاحوال)) (1) .

وعليه فان العصبية يمكنها أن تكون قوية في حالات أخرى بغير النسب أو القرابة ، اذ يمكن أن تتعزز العصبية أيضا بواسطة أشكال أخرى كالجوار ، والحلف والولاء ... وغيره لأن تلك الاشكال قادرة على تحقيق الانفة ، والغيرة ، والنعرة ، وذلك تلبية للمصلحة المشتركة ، والمصير الواحد . (2)

ونظرا لكون النسب أمرا وهميا ، ولما كانت الفائدة ليست في النسب ذاته ، بل في ثمراته المتمثلة في الالتحام والنعرة والانفة بهدف التناصر ، والمدافعة ، والمغالبة ، فانه يمكن الحاق المصطنعين والعبيد أيضا بلحمة العصبية ووصلتها فينتسبون بذلك اليها ، فيكون لهم ما لها وعليهم ما عليها . اذن فالرابطة هنا ليست دموية ؟

وفي هذا الامر يقول : ((والسبب في ذلك أن المقصود في العصبية من المدافعة والمغالبة انما يتم بالنسب ، لأجل التناصر في ذوى الارحام والقربى ، والتخاذل في الاجانب والبعداء ... والولاية والمخالطة بالرق ، أو بالحلف تتنزل منزلة ذلك . لأن أمر النسب

---

(1) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 597 .

(2) ـ ابن خلدون : نفسه ، ج : 2 ، ص : 604/603 . أنظر ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، ص ص : 337/335 . أنظر أيضا محمد عابد الجابري : العصبية والدولة ، ص ص : 261/257 .

وان كان طبيعيا فانما هو وهمي ، والمعنى الذى كان به الالتحــــــام انما هو العشرة ، والمدافعة ، وطول الممارسة ، والصحبة بالمربـــــى والرضاع ، وسائر أحوال الموت والحياة ، واذا حصل الالتحام بذلـــــك جاءت النعرة والتناصر وهذا مشاهد بين الناس، واعتبر مثله في الاصطناع، فانه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من الوصلة تتنــــزل هذه المنزلة ، وتؤكد اللحمة ، وان لم يكن نسب فثمرات النسب موجودة)) (1) »

غير ان ابن خلدون يرى بأن الموالى والمصطنعين عندما يلتحقـــون بالعصبية في زمن تكون قد حصلت على غايتها من الملك ينزلون بمنزلـــة الاجانب من أهل العصبية ، أما اذا التحقوا بها قبل وصولها الـــــى مرتبة الملك فانهم يصبحون أعضاء كاملي الحقوق ، ويعاملون معاملـــة الاقرباء وذوى الارحام (2) .

7 ـ وبما أنه يعترف بثمرات النسب ، أو انتساب أفراد وفئات معينة الى عصبيات ما ، حسب ما تقتضيه المصلحة المشتركة التي تتطلع اليهـــا الجماعة (3) . فانه يصنف العصبية الى صنفين تبعا لقرب الانتســـاب وبعده :

الصنف الاول : ويتمثل في العصبية الخاصة ويسميها أيضا الكبرى ، كما يسميها ساطع الحصرى (عصائب بسيطة) (4) . ويكون النسب فيهـا أكثر صراحة ، وأقرب لحمة . فتكون العصبية في هذه الحال شديـــدة وقوية . أما الصنف الثاني : فتمثله العصبية العامة ، أو العصبية الصغـــرى كما يسميها ابن خلدون . ولدى الحصرى (عصابات مركبة) . ويكون النســب في هذا النوع من العصبية أقل صراحة وأبعد لحمة . فتأتي العصبية ـ نتيجـــة لذلك ـ ضعيفة عن الاولى . لأن النعرة تشتد كلما قويت اللحمة ، وتضعـــف

(1) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ج :2 ، ص: 679/678 .
(2) ـ نفسه ، ج :2 ، ص 679 .
(3) ـ انظر محمد عابد الجابرى : العصبية والدولة : ص: 259/260 .
(4) ـ دراسات عن مقدمة ابن خلدون : ص: 338 .

بضعفها (1) .

8 ـ والعصبية العامة أو العصائب المركبة هذه تخضع كلها الى عصبية خاصة تستحوذ على السلطة والملك وحتى اذا دبت بوادر الضعف في هذه العصبية الخاصة مع مرور الوقت وهدد سلطانها فان الحكم في غالب الاحيان يبقى في العصبية العامة حيث ينتقل من عصبية خاصة الى عصبية أخرى تجتمع معها في نسب واحد (2) .

9 ـ ويشبه ابن خلدون إئتلاف العصبيات البسيطة مع بعضها وتجمعها ضمن عصبية واحدة عامة بالتركيب الكيماوي عند امتزاج العناصر، ويرى بأنه لا بد أن تكون احدى العصبيات أشد وأقوى من البقية حتى يتسنى تحقيق المزاج . لان العناصر المراد دمجها في التركيب الكيماوي يستحيل مزجها ان لم يتغلب أحد العناصر على الاخرى . لذا فان ابن خلدون يقيس مزج العصبيات بهذا المقياس(3) . كما يشترط في العصبية المتغلبة

---

(1) ـ ابن خلدون : المقدمة، ج :2، ص: 598 .

(2) ـ ابن خلدون : المقدمة، ج :2، ص: 620/618 . حاول طه حسين نقد هذا الرأي ولكنه لم يوفق، لانه حاد عن قصد ابن خلدون الذي يرمي الى عصبية عامة تتجاوز القبيلة، وقد استعمل كلمة شعب ولم يستعمل كلمة قبيلة، وكتب عنوان الفصل هكذا : ((فصل في أن الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عودته . الى شعب آخر منها مادامت لهم العصبية)) . (أنظر نقد طه حسين في فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ص: 91/92) .

(3) ـ يفسر ابن خلدون ذلك بقوله : ((وسره أن العصبية العامة للقبيل هي مثل المزاج للمتكون، والمزاج انما يكون عن العنصر . . . ان العناصر اذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلا بل لابد أن تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصيرها عصبية واحدة شاملة لجميع العصائب، وهي موجودة ضمنها)) . (المقدمة، ج :2، ص: 599 ـ 650/649 . أنظر أيضا الجابري : العصبية والدولة، ص : 277/276 . وأحمد عبد السلام : دراسات في مصطلح السياسة عند العرب، ص : 57) .

أن يكون أصحابها أهل فضل ورئاسة وسؤدد وحسب، حتى يسلم لهم الآخرون قيادهم ويعترفون بسيادتهم (1) .

10 — يقرر ابن خلدون بأن العصبية أمر لابد منه لتحقيق مبدأ القوة والغلبة وبالتالي فهي ضرورية أيضا لتحقيق الرئاسة على قوم ما ، لأن الملك لا يتم بدون قوة وغلبة ، وهذه الاخيرة تتحقق بواسطة العصبية ، والعصبية أيضا لا قيمة لها بدون قوة وغلبة ، واذا كان ابن خلدون يقرر بأن العصبية لا تسلم مقادها الا لمن ينتسب اليها (2) . فانه يضع استثناء حيث يقر بحصول العصبية من غير نسب في حالات أخرى وذلك عندما يحدث لبعض أهل النصاب الملكي أن يترأسوا على عصبيات من غير نسبهم ، ويعلل ذلك التسليم والانقياد الى منزلتهم السابقة ، ومرتبتهم السامية التي اشتهروا بها وعرفت بها أسرتهم ، ويضرب بذلك مثلا بإدريس الذى أقام دولة بواسطة عصبية أمازيغية ، ويستشهد أيضا بالفاطميين الذين أقاموا دولة بواسطة كتامة (3) .

11 — اذا كانت العصبية القبلية تعتمد على القوة والغلبة كسلاح لتحقيق هدفها وهو الملك ، فانها تعتمد أيضا على السجايا الفاضلة ، والاخلاق الحميدة كشرط مكمل لقيام الملك وسلامته . لأن العصبية اذا كانت تتصف بالعدوان والروح الهجومية ، فان صفات الخير تهذب الروح الهجومية ، وتداوى الجروح التي تنشأ من جراء العدوان . وقد شرح

(1) — ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 650 .

(2) — يقول في ذلك : ((والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب انما هو ملصق لزيق ، وغاية التعصب له بالولاء والحلف ، وذلك لا يوجب له غلبا عليهم البتة)) . (أنظر المقدمة ، ج : 2 ، ص : 599) .

(3) — شرح ابن خلدون هذا الامر في ((فصل أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية)) . (المقدمة ، ج : 2 ، ص : 635/636) .

ابن خلدون هذا الأمر في ((فصل في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس)) . ويمكن تلخيص قوله كالتالي : ((واذا كان الملك غاية للعصبية، فهو غاية لفروعها ومتمماتها ، وهي الخلال ، لأن وجوده دون متمماته كوجود شخص مقطوع الاعضاء،أو ظهوره عريانا بين الناس.. فاذا نظرنا الى أهل العصبية، ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي والامم فوجدنا هم يتنافسون في الخير وخلاله من : الكرم، والعفو عن الزلات .... والقِرَى للضيوف ... والصبر على المكاره، والوفاء بالعهد ، وبذل الاموال في صون الأعراض، وتعظيم الشريعة، واجلال العلماء الحاملين لها ... والحياء من الاكابر والمشائخ وتوقيرهم واجلالهم، والانقياد الى الحق مع الداعي اليه، وانصاف المستضعفين ... والانقياد للحق، والتواضع للمساكين، واستماع شكوى المستغيثين، والتدين بالشرائع والعبادات ... والتجافي عن الغدر، والمكر ، والخديعة، ونقض العهد ...)) (1) .

كل هذه الصفات وغيرها تعتبر من الضروريات اذ هي من فروع العصبية ومتمماتها . فيها يتعزز سلطان العصبية ويمتد ، وبهذا الاعتبار تصبح العصبية قوة أخلاقية أيضا . (2) .

12 ـ لا تبقى العصبية في مستوى واحد من القوة، حيث تتعرض أحيانا للضعف والتلاشي ، كما تعرف أحيانا أخرى فترات قوة وعنفوان . فاذا كانت في مستوى الشدة والقوة تتطلع الى مرتبة اسمى ، وتكون

(1) ـ ابن خلدون : المقدمة، ج :2، ص: 614/616 .

(2) ـ أنظر اطـــه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ص: 97/ 98 . الجابري : العصبية والدولة، ص: 274/ 275 . شريط : الفكر الاخلاقي عند ابن خلدون ، ص: 252/253 .

في الغالب مرتبة الملك ، لأن هذه المرتبة تنشأ بواسطة القبيل والعصبية الجياشة ، وذلك أن مرتبة الدولة والملك مرتبة شريفة تستهوي الناس . ولما كانت مغرية ومطلوبة فان صاحبها الذي تذوق حلاوتها لا يدعها بسهولة ، ولا يتركها الا اذا اضطر الى ذلك ، بفعل قوة تتغلب عليه ، وتزيحه عن ذلك المنصب . وبالطبع فان تلك القوة والغلبة تتم بواسطة العصبية والقبيل (1) .

وقوة العصبية تبرز في بداية نشأة الدولة ، أما اذا تمهدت ورسخت الحضارة فيها فقد تستغني الدولة عن العصبية الخاصة ، والعامة ، وربما استظهرت عليهم بالموالي والمصطنعين (2) . وعندها تخمد النية ، وتفشت العصائب ، وتفقد العصبية فعاليتها تماما .

13 - قد تتمكن العصبية الصاعدة من الوصول الى مرتبة الملك ، اذا وجدت الدولة القائمة في هرمها ، لأن الضعف والوهن اضحيا ينخران قواها . عندها سوف لا تجد تلك الدولة من يدافع عنها أو ينصرها ، بعد فساد عصبيتها وخذلان انصارها . أما اذا وجدت العصبية الدولة في عز قوتها وعنفوانها ، بفضل ما لديها من الحماة والانصار ، فان العصبية الصاعدة في هذا الحال تكتفي بما وصلت اليه من التغلب وقد تدخل في عداد أولياء الدولة القائمة . ويعبر ابن خلدون عن هذا الأمر بقوله : ((وذلك ملك آخر دون الملك المستبد)) (3) .

(1) - ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 691 / 692 ، أحمد عبد السلام : دراسات في مصطلح السياسة عند العرب ، ص : 55 .

(2) - ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 632 / 634 .

(3) - ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 610 / . طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص : 93 .

واذا انتظمت العصبية الساعدة ضمن انصار الدولة القائمة فانهـا قد تذوب في تلك الدولة، خاصة اذا ما انغمست القبائل في النعـيم والترف وخصب العيش، عندها يعكف أفراد القبائل على الراحة والدعـة و الرغد، فتفسد بذلك عصبيتهم (1) .

14 ـ تسعى العصبية ـ عندما يتحقق لها الملك ـ الى امتـلاك وتأسيس المدن والامصار ، والنزول بها ، بغرض تحقيق هدفـين : الاول يرمي الى تحقيق الرفاهية، والدعة، حبا في الراحة والاستمتاع بما تمتاز به المدن من ملذات وهناء . أما الهدف الثاني فهو بغرض قطـع الطريق عن العصبيات الاخرى المناوئة للعصبية المتغلبة. وذلك خوفا من أن تسارع العصبيات المعادية الى احتلال تلك المدن والامصار والامتناع خلف اسوارها ، ثم معاودة الكرة ضد العصبية القائمـة (2) .

وعليه فان العصبية عندما تنتصر وتقيم دولتها تسارع الى النزول بالامصار للاسباب المذكورة . وبذلك تستعين باسوارها وحصونها التي تقوم مقام العصبية من حيث الحماية في المدن (3) .

15 ـ تنعكس قوة العصبية ، ووفرة عددها على مدى كبر الدولـة ، واتسـاع نطاقهـا ، وطـول عمرهـا (4) .

(1) ـ يشرح ابن خلدون ذلك في ((فصل في أن من عوائق الملك حصـول الترف وانغماس القبيل في النعيم)) (المقدمة، ج :2، ص: 611) .

(2) ـ ابن خلدون : المقدمة، ج :3 ص: 967 . طه حسين :فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ص: 140/ 141 .

(3) ـ ابن خلدون :المقدمة، ج :2، ص: 592/ 593 .

(4) ـ أنظر ابن خلدون ((فصل في أن كل دولة لها حصة من الممالك والاوطان لا تزيد عليها)) . (المقدمة، ج :2 ص: 642) . و ((فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القائمين بها فـي القلة والكثرة)) . (المقدمـة، ج :2، ص: 644 . أنظر أيضـا طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص: 114) .

وقيمة آثارها وعظمتها (1)، وذلك أن الدولة تضع اقاليمها تحت قيادة أهل عصبيتها وانصارها، فكلما كثر أنصارها وتعددت عصائبهم كلما تمكنت من توسيع رقعتها. لأن كثرة الاقاليم واتساعها تتطلب قادة وحماة يسهرون على الأمن فيها، ويصدون الطامعين والخارجين عن الدولة ضمن تلك الاقاليم. كما أن اتساع رقعة الدولة يعني أيضا كثرة رعاياها، وهذا يتبعه تعدد الفعلة وأصحاب الصنائع فيها، فيكثر بذلك الانتاج وتزدهر الصنائع، فتكاثر باولائك الفعلة مآثر الدولة، ويعظم شأنها.

وتنتهي حدود الدولة بنفاد عدد انصارها. واذا لم ينفد عدد الانصار والعصائب فان نطاق الدولة يبقى في تزايد. ويعلل ذلك بقوله: ((والعلة الطبيعية في ذلك هي قوة العصبية من سائر القوى الطبيعية، وكل قوة يصدر عنها فعل من الافعال، فشأنها ذلك في فعلها. والدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق، واذا انتهت الى النطاق الذي هو الغاية عجزت واقصرت عما وراءه، شأن الاشعة والانوار اذا انبعثت من المراكز والدوائر المنفسحة على سطح الماء من النقر عليه. ثم اذا أدركها الهرم والضعف فانما تأخذ في التناقص من جهة الاطراف، ولايزال المركز محفوظا الى أن يتأذن الله بانقراض الامر جملة)) (2).

16 — يتعذر على الدول أن تزدهر أو تستقر في أوطان تكثر فيها القبائل وتتعدد فيها العصبيات، وذلك تبعا لاختلاف الاهواء،

---

(1) — أنظر ابن خلدون في ((فصل في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها)). (المقدمة، ج: 2، ص: 566). أنظر أيضا طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ص ص: 118/120).

(2) — ابن خلدون: المقدمة، ج: 2، ص: 643.

وتباين الآراء ، وتضارب المصالح . (1)

يتضح من هذا أن للعصبية سلبيات الى جانب ايجابياتها . فاذا كانت في حالات ما منشئة للدول وبانية للممالك . فهي في حالات أخرى عامل قلق ، ومصدر فوضى يعرقل اقامة الدول واستقرارها . بالاضافة الى أنها تسقط دولة سابقة قبل اقامة الدولة الخاصة بها . اذن فالعصبية سلاح ذو حدين ، من جهة بانية ، ومن جهة أخرى مهدمة .

هذا وقد ضرب ابن خلدون لذلك مثلا ببلاد افريقية والمغرب التي تزخر بالعصبيات ، الأمر الذى تعذر معه قيام دولة قوية وموحدة دامت في تلك الربوع . (2)

17 - اذا كان الترف احد الاسباب في اضعاف العصبية ، فان هذا الرأى ليس قطعيا ، وليس حكما مطلقا . لأن الترف في حالات ما قد يعزز العصبية ويقويها . وذلك عندما يحدث في مبدأ الأمر ، أى في بداية الدولة . لأن الترف في هذه الفترة ينجر عنه كثرة في النسل ، ومضاعفة في عدد الموالى والمصطنعين . فتقوى نتيجة لذلك عصابة الدولة ويشتد أزر عصبيتها . ((فازدادوا عددا الى عددهم ، وقوة الى قوتهم ، بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد)) (3) .

---

(1) - يفسر ابن خلدون هذا الامر بقوله : ((والسبب في ذلك اختلاف الآراء ، والاهواء . وان وراء كل رأى منها وهوى عصبية تمانع دونها ، فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت ، وان كانت ذات عصبية ، لأن كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة)) . (المقدمة ، ج : 2 ص: 646) .

(2) - أنظر طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص: 110/108 .
ولاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص: 133/132 .

(3) - ابن خلدون : المقدمة ، ج :2 ، ص: 662 . أنظر أيضا ملحم قربان : خلدونيات ، ص: 220 .

على أن هذا الشرط لا يطول كثيرا ، ولا يتجاوز الفترة الزمنيـــة التي تنشأ فيها الدولة وتأخذ في تمهيد سلطانها . وربما ينتهي هـذا الأمر بانقراض الجيل الثاني من عمر الدولة .

18 — تتكامل العصبية مع الدعوة الدينية ، فيتعاونان على انشـــاء الدولة العامة ذات الملك الواسع والعظيم . اذ بهما تتمكن الدولة مـن توسيع نطاقها ، وتعزيز نفوذها . لانه اذا كان منشأ الملك بالعصبيـــة ، فان الدين يجمع القلوب ، ويوحد الصفوف ، ويقضي على الأنانيـــــة ، ويهذب التنافس ، وينفي التحاسد ، وكل هذا — بالطبع — من الأمور الـــتي تدعم قوة العصبية ، وتشد أزرها . (1) غير أن الدعوة الدينية لوحدهـــا وبدون مساندة من العصبية لا تكفي لاقامة دولة . ويعلل ابن خلدون ذلك بقوله : ((وان الشرائع والديانات ، وكل أمر يحمل عليه الجمهـــور فلابد فيه من العصبية ، اذ المطالبة لا تتم الا بها كما قد مناه ، فالعصبية ضرورية للملة ، وبوجودها يتم أمر الله منها . .)) (2) .

ثالثا : مفســـدات العصبيـــة :

كما أن العصبية مقومات تعززها فان لها أيضا عوامل تفسدها وتقضي

(1) — شرح ابن خلدون ذلك في ((فصل في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق)) . (المقدمـــة ، ج : 2 ص : 636) . ثم ((فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها)) . (المقدمة ، ج : 2 ، ص : 637/638 . أنظر أيضا أحمد عبد السلام : دراسات في مصطلح السياسة عند العرب ، ص : 116/120 . والجابري : العصبية والدولة ، ص : 285/288) .

(2) — ابـــــن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 708 .

عليها . ويشير ابن خلدون في عدد من فصول مقدمته الى العوامل التي تضعف العصبية وتفسدها . ويمكن اجمال ذلك في بعض الظواهر التي ترجع أساسا الى حصول الملك والحضارة ، والى عوامل دينية وعقائدية .

وذلك لأن الحضارة والملك يفرزان بعض العلل التي تضعف العصبية، وتحل تركيبها فتنهار وتتلاشى مع مرور الوقت . أما الدين والعقيدة فيهذبان العصبية ويكبحان جماحها ، ولا يتركا منها الا ما هو مفيد وايجابي .

فبخصوص العلل التي تصاب العصبية بسبب الملك والمستوى الحضاري فيمكن اجمالها فيما يلي :

1 — الدعة والسلوك : تلحق هذه العلة بالعصبية عند دخول القبيل في ~~الحضارة . فيلجأ أفراده الى الانغماس في النعيم والاستكثار من الكسب~~ والتمتع بخصب العيش ، والميل الى الدعة ، والراحة ، والتفنن في المباني ، والملابس ، والمآكل . وبالطبع فكل هذا يتسبب في ذهاب الخشونة الموروثة عن البداوة ، وينجر عن ذلك ضعف في الشجاعة والبسالة ، وهروب من المشاق والصعاب ، وخوف من شظف العيش وخشونته ، وبالتالي تفسد العصبية وتنحل عراها ، لأن أصحابها فقدوا روح المطالبة والمدافعة (1) . ويتوارث البنون تلك الرفاهية ، والدعة ، وطراوة العيش ، بمضاعفة انغماسهم في النعيم . وهكذا تتزايد عصبيتهم نقصانا كلما زادت رفاهيتهم ، حتى تتقوض تلك العصبية نهائيا .

ويشرح ابن خلدون أعراض الترف والدعة على العصبية ، حيث يرى أن من بين أسباب زوال العصبية بعد حصول الملك ان يلجأ أصحاب

---

(1) — ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 611 . أنظر أيضا لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص ص : 127 — 134 — 146 . الجابري : العصبية والدولة ، ص ص : 281/282 .

العصبية المالكة الى الاستكثار من النفقات تفوق مستوى المداخيل ، عندها يلمس أمرهم ، وهنا يلتفتون الى الرعية فيمدون ايديهم اليهم بالمضرة ، وطبعا يتسبب هذا في انهاك الدولة والرعية معا ، فتتداعى أحوال العصبية ، ومعها الدولة التي يلحقها الهرم ، وعندها تصبح معرضة بين لحظة وأخرى للانهيار والسقوط (1) .

2 - مسالة الاحكام : تنشأ هذه العلة أيضا في محيط حضاري - في غالب الاحيان - فتصيب العصبية من خلال اصابة اعضائها بهذا الداء ، وعليه فان العصبية في هذا الحال تصاب بالضعف والخذلان ، ثم تتدرج نحو الزوال .

ويفسر ابن خلدون هذا الامر بتقريره أن كل حاكم أو ملك تصدر عنه أحكام : أما أن تكون رفيقة بالناس وعادلة ، واما أن تكون قاهرة وجائرة . وفي الحالة الاولى تسلم النفوس من التأثيرات السلبية وردود الفعل ، وتحفظ الروح المعنوية في مستوى رفيع لا تتأثر بمحتوى هذه الاحكام . أما الحالة الثانية فتتسبب فيها الأحكام الجائرة والقاسية في ضغوط نفسية على الرعية تنتهي بالناس الى الاحساس بالقهر ، والخوف من سطوة الحاكم . فينجر عن كل هذا بعث الذل في النفوس فتتلاشى الشوكة ، ويضعف البأس ، وتتلاشى الشجاعة (2) .

ويصنف ابن خلدون تلك الاحكام الى صنفين : أحكام سلطانية مصدرها العقاب ، وأحكام تعليمية مصدرها التأديب ، فأما الصنف الأول فكاسر لسورة النفس وغضبها . لأن حصول العقاب في حق الناس يتطلب رد فعل من المعاقبين ، وان تعذر عليهم الدفاع عن انفسهم

(1) - ابن خلدون : المقدمة ، ج 2 ، ص : 652/654 .

(2) - ابن خلدون : المقدمة ، ج 2 ، ص : 589 / 590 . ملحم قربان : خلدونيات ، ص : 227/228 .

يتلاشى بأسهم ، وتنهار روح المقاومة فيهم. وهذا كله يجلب الـــذل، ويبعث على الخضوع للاحكام وللاضطهاد. أما الصنف الثاني فهـــو ذو الطابع التأديبي والتعليمي. فهواذا طبق من عهد الصبــــا والطفولة، فانه يبعث في النفوس عادة الاستسلام والخضوع للاحكــام. وبالتالي فان هذا الأمر يستلزم الخوف وضعف البأس (1).

وهنا يفرق ابن خلدون بين الاحكام السلطانية والاحكام التعليمية الصناعية من جهة، وبين الاحكام الشرعية والدينية من جهة أخـــرى. لأن الوازع في الاولى خارجي وصناعي، أما الوازع في الاحكام الشرعيـــة فذاتي، اذ يقول: ((لأن الشارع صلوات الله عليه، لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم، لما تلي عليهم من الترغيـــب والترهيب، ولم يكن بتعليم صناعي، ولا تأديب تعليمي، انما هـــي أحكام الدين وآدابه المتلقاة نقلاً، يأخذون أنفسهم بها، بما رسخ فيهم من عقائد الايمان والتصديق، فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة، كما كانت، ولم تخدشها أظفار التأديب والحكم)) (2).

ويقارن ابن خلدون بين البدو المتوحشين الذين لا يخضعـــون للاحكام بصنفيها، وبين الحضر الخاضعين لتلك الاحكام. ثم يفسر بـأن ذلك من أسباب شدة البأس في البدو، وضعفه لدى الحضـــر. (3)

---

(1) ـ أنظـــر ابن خلدون: المقدمة، ج: 2، ص: 590.

(2) ـ ابن خلدون: المقدمة، ج: 2، ص: 591.

(3) ـ يقول في ذلك: ((ولهذا كانت هذه الاحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر في أهل الحواضر في ضعف نفوسهم، وخضد الشوكـــة منهم بمعاناتهم في وليدهم وكهولهم. والبدو بمعزل عن هـــذه المـــنزلة، لبعـــــدهم عن أحكـــــام السلطـــان والتعلـــيم والآداب)). (المقدمـــــة، ج: 2، ص: 591).

3 — فقدان الشجاعة : الشجاعة هي القوة النفسية الرادعة التي تمكن البدوى من الدفاع عن نفسه ، والذود عن حياضه . والشجاعة يكتسبها البدوى بفضل بيئته ومحيطه الذى يحتم عليه الاعتماد على نفسه. وبالطبع فان اكتساب الشجاعة يتحقق بالشروط التي سبق ذكرها ، حين تمت الاشارة الى أثر الدعة والترف في كسر سورة البأس والشجاعة، ثم الاشارة الى الاثر الذى تخلفه معاناة الأحكام في نفوس الحضر ، الأمر الذى يتسبب في ارتخاء الهمم وفقدان الشجاعة .

وبما أن العصبية تتطلب المدافعة والمناصرة . فان انعدام الشجاعة وضعفها يؤدى حتما الى التراخي عن المدافعة والتكاسل عن المناصرة ، خوفا من القتال ، وحبا في الراحة والنعيم . وهنا تتفكك الرابطة التي تمثلها العصبية ، وقد شرح ابن خلدون هذا الامر في ((فصل في أن أهل البدو أقرب الى الشجاعة من أهل الحضر)) (١) . وانتهى الى خلاصة مفادها أن أهل الحضر بانغماسهم في النعيم والرفاهية ، تركوا أمر الدفاع عنهم الى سواهم ، مثل الحامية التي تستأجر لهذا الغرض ، والحاكم الذى يقود شؤونهم . لذا فانهم أصبحوا لا يبالون بشؤون الدفاع والقتال ، ولذلك فقد شغلوا بملاهيهم عن حمل السلاح والتدريب عليه . فاضحوا بذلك في منزلة الاطفال والعاجزين ، ومع مرور الوقت أصبحت هذه عادتهم لا يخرجون عنها .

أما سكان البادية فان محيطهم وبيئتهم الخشنة ، وقلة مواردهم ، كل ذلك فرض عليهم مبدأ الاعتماد على النفس في القتال والدفاع ، لأنهم بعيدون عن الحامية ، ومواردهم لا تسمح لهم باستئجار حامية ، لهذا فان شغلهم الشاغل هو التعلم على حمل السلاح ، وركوب الخيل ، والقتال . وهذا يقوى فيهم نزعة الشجاعة ، بخلاف الحضر ، ولما كانت

(١) — المقدمة : ج :2 ، ص ص: 588/589 .

البداوة شعار العصبية ، فالشجاعة من أهم مقوماتها . واذا ضعفت الشجاعة زالت الركيزة الاساسية التي تستند اليها العصبية .

4 - **المذلــــة والانقياد** : شرح ابن خلدون هذه العاهة التي تصيب العصبية في ((فصل في أن من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد الى سواهم)) (1) . ويعلل أقواله بكون المذلة والاتباع يتولد عنهما كسر لشدة العصبية ، فانقياد القبيل ومذلته يدل على فقدان العصبية ، والاستسلام والرضوخ للمذلة أسبابه هو العجز عن المدافعة . ومن عجز عن المدافعة لا يقدر على المطالبة والغلب .

ويضرب ابن خلدون مثلا ببني اسرائيل الذين فقدوا عصبيتهم بتعودهم على الذل والانقياد للمصريين ، فلما خرجوا مع موسى ، وطلب منهم امتلاك الشام - بأمر من الله - افصحوا عن عجزهم ، لفساد عصبيتهم . فحكم الله عليهم بالتيه مدة أربعين سنة في القفار ، وهذه المدة كافية لظهور جيل جديد ترعرع في البادية وتخلق باخلاقها (2) ، فاكتسب بذلك عزة واباء . ومع هذا الجيل برزت عصبية جديدة قوية وغالبة . ففي هذا المثال يتضح بأن المدافعة والمطالبة تكونان بالعصبية . ولا يتحقق ذلك كله الا بها .

---

(1) - أنظر <u>المقدمة</u> : ج :2، ص: 612/614 .

(2) - حاول طه حسين جاهدا نقد فكرة الجيل ، زاعما أن اربعين سنة غير كافية لفناء جيل وظهور جيل آخر (<u>فلسفة ابن خلدون الاجتماعية</u>، ص: 96/97) . على أن ما يقصده ابن خلدون على ما يبدو ليس فناء الجيل الاول وانعدامه تماما ، بل يصبح ذلك الجيل في سن لا يسمح له باتخاذ القرار وتنفيذه ، بينما ينمو الجيل الذى ولد في البادية حتى يصبح سن أفراده في حدود الاربعين سنة .

ويرى ابن خلدون أيضا بأن المغارم والضرائب من الامور التي تجلب الذل للقبيل، كاسرة للعصبية . ومجمل قوله أن القبيلة اذا رضخت للمغارم فمعنى هذا أنها رضيت بالذل . ويعلل بأن الضريبة ضيما تأباه النفوس ولا ترضى به، ومن قَبِلَ بالمغارم فأنه قد أختارها بدل القتل والتشريد، حيث استهان ذل الضرائب على مكاره الموت . وبالتالي فهذا يعني أن العصبية ضعفت وتلاشت، فلا سبيل الى المقاومة والدفاع(1) .

ثم ينفي عن زناتة بالمغرب أن تكون من بين القبائل التي أعطت المغارم والضرائب للدولة في عهدهم، ويرى بأنه لوكان ذلك حقيقة لما وصلت عصبية زناتة الى الملك، ولما أنشأت دولة (2) . ويبدو وأنه يقصد بزناتة هنا قبيل بني عبد الواد، وقبيل بني مرين .

5 - **الانفراد بالمجد** : تصيب هذه العلة العصبية بعد وصولها الى مرتبة الملك، وبعد انتقالها من طور البداوة الى الحضارة . فعندما تتمكن العصبية من انشاء دولة، يستوحذ على الحكم والملك - بالطبع - رئيس أقوى العصبيات في التآلف الذى تتركب منه العصبيات الموحدة

(1) - ابن خلدون : المقدمة، ج : 2، ص: 613 .

(2) - عارض طه حسين رأى ابن خلدون محتجا بأن ابن خلدون تغلب عليه الذهنية البدوية عوض الاسلامية . ثم يقول بأن المسلمين لم ينظروا أبدا للضريبة على أنها مذلة مهينة . بل كانوا ينظرون اليها كما ينظر اليها الفرنسيون الآن . ويبدوا أن طه حسين نظر الى الضريبة والغرامة على أنها الزكاة فقط . لذا فان الحجج التي اوردها قد تكون ضعيفة وغير مقنعة خاصة عندما يستقرئ القارئ الاحداث التاريخية التي مرت بالدولة الاسلامية في المشرق والمغرب . فعندما فرضت الضرائب غير الشرعية ابتها النفوس، وخضعت لها العصبيات الضعيفة أما القوية فقد ثارت، وما ثورة ميسرة المطغرى الاعينة من ذلك . والراجح أن ابن خلدون يقصد بالضرائب أو المغارم تلك التي تخرج عن الاحكام الشرعية، والتي فرضت بقهر من سلطان الدولة وقوتها . (أنظر طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ص ص: 94/96) . كما أن كتاب وصف افريقيا =

ضمن تلك العصبية المركبة (1) .

ومع الوقت يتطلع ذلك الملك الى الانفراد بالمجد ، والاستئثار بالمال والجاه دون بقية اعضاء العصبية الذين شاركوه في اقامة الدولة ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : ((ويجيء خلق التأله الذى في طباع البشر ، مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم ... فتجدع حينئذ أنوف العصبيات ، وتفلج شكائمهم عن أن يسموا الى مشاركته في التحكم ، وتقرع عصبيتهم عن ذلك ، وينفرد به ما استطاع ، حتى لا يترك لا حد منهم في الامر لا ناقة ولا جملا)) (2) . ويبدأ الملك بجدع انوف العصبية الخاصة من عشيرته وأقاربه ، كبحا لطموحهم ، ومنعا لمشاركتهم في المجد ، ثم ينتقل بعد ذلك الى العصبية العامة . وهكذا حتى يذعن جميعهم لسلطانه ، ويرضخون لا ستبداده (3) .

ويرى ابن خلدون بأن ذلك الانفراد ربما تم في عهد أول الملوك ، وربما حدث في عهد الملك الثاني ، أو الثالث ، وذلك راجع الى مدى مقاومة العصبيات له تبعا لقوتها (4) .

= للحسن الوزان يحتوى على معلومات في غاية الاهمية يثبت بها بأن قبائل عديدة ببلاد المغرب ذات العصبية القوية تأبى تقديم الضرائب للدولة ، ولا ترضى بذلك الا القبائل الضعيفة (ج :1 ، ص: 47 ـ 66 ـ 99 ـ 101 ـ 121 ـ 223 ـ 331 ـ 332 ـ 333 ـ 334 ـ 335 ـ 344 ـ 345 ـ 356 ـ 357 ـ 368 ، ج :2 ، ص: 14 ـ 28 ـ 46 ـ 103 ـ 111) .

(1) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ج :2 ، ص: 599/609/610 ـ 649/650 ، 863 .

(2) ـ نفسه : ج :2 ، ص: 650 .

(3) ـ نفسه : ج :2 ، ص: 863/866 .

(4) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ص: 650 . ملحم قربان : خلدونيات ، ص: 132 ـ 217/222 .

وينجر عن انفراد الملك بالمجد دون العصبيات التي شاركته في اقامة الدولة، أن تلك العصبيات تصاب بالتكاسل عن القتال، حيث يألف اصحابها المذلة والاستعباد. وعندما يأتي الجيل الثاني يسرى ابناؤه في عطايا الملك لهم منحة في مقابل المعونة والحماية، لجهلهم الكيفية التي نشأت بها الدولة. وبذلك تضعف سطوة الدولة، لفساد عصبيتها وانقراض روح التضامن فيها. (1) فيلجأ صاحب الدولة عندئذ الى الاستظهار بالموالي، والمصطنعين مستبدلا اياهم بعصبيته المريضة (2).

6 - **نهاية الحسب**: تظهر أعراض نهاية الحسب والشرف في بيت من البيوت الذى يترأس عصبية ما. ونهاية هذا الحسب ينتهي أمر العصبية الخاصة فتفسد وتتلاشى، وتظهر عوضا عنها عصبية خاصة أخرى تنتمي لفرع آخر من تلك العصبية.

ويحكم ابن خلدون بحتمية نهاية الحسب وانقراضه. ويعلل ذلك بأن العالم العنصرى بما يشتمل عليه كائن فاسد، سواء في مادته، أو في أعراض تلك المادة. ويضرب مثلا بالانسان والحيوان والنباتات والمعادن فجميعها كائنات فاسدة. وكذلك العلوم والصنائع، فانها تنشأ ثم تدرس، والحسب بدوره يفسد، لانه من ((العوارض التي تعرض للادميين)). (3).

ويعتقد ابن خلدون بأن الحسب ينتهي - في غالب الاحيان - بانتهاء أربعة آباء. مع بعض الاستثناءات التي تصل بالحسب الى الاب الخامس أو السادس، وقد ينعدم قبل الاربعة.

والعلة ~~والحكمة~~ في فقدان الحسب تعود الى أن أول الآباء يكون هو

---

(1) - أنظر ابن خلدون: المقدمة، ج: 2، ص: 652.

(2) - نفسه: ج: 2، ص: 677.

(3) - ابن خلدون: المقدمة، ج: 2، صص: 605/607. أنظر أيضا طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، صص: 90/92.

الباني للمجد ،لذا فهو مدرك لما عاناه في البناء ، وعليه فانه يستميت في سبيل المحافظة على مجده . ويأتي بعد ذلك ابنه الذى يكون مباشرا لابيه وعنه قد سمع وتعلم ومع هذا فقد يقصر في الأمر ، لأن السامع مقصر عن المعاين،والأب الثالث يكون مقلدا لا غير، لذا فان المقلد مقصر عن المجتهد . أما الاب الرابع فتقصيره أكبر بحيث يتوهم ان ما بناه أباؤه لم يكن بمعاناة ولا بمشقة ، وانما جاء هم ذلك المجد بسبب شرفهم ونسبهم،وليس بواسطة العصبية ،ولا السجايا الفاضلة ، نظرا لما تعود عليه في اجلال واحترام من قبل الناس، فيتنكر لعصبيته ويستبد بالفضل دونهم .

وهذا الامر يدفعهم الى الخروج عليه أواسقاطه ، ثم تعيين أمير آخر في مكانه ،على أن يكون من العصبية نفسها ، ولكن ضمن فرع آخر غير الفرع الاول ويحدث هذا في بيت الملك والامارة ، أوفي بيت من بيوت الرئاسة والسيادة ضمن القبائل ،ويحدث هذا أيضا في بيوت أهل الامصار والمدن . ويحدد ذلك بقوله: ((واعتبار الاربعة من قبل الأجيال الاربعة: بان، ومباشر له ، ومقلد ، وهادم . وهوأقل ما يمكن)) (1) .

* * *

هذا هو المفهوم الذى أعطاه ابن خلدون للعلل التي تصيب العصبية في اطار الحضارة والملك . وبقي الان الاشارة الى الدين والعقيدة كأحد العوامل المضعفة للعصبية ، حسب رأيه .

فابن خلدون تكلم بادئ ذى بدء عن التكامل الذى يحصل نتيجة لاشتراك الدين مع العصبية في اقامة الملك والدولة وقد جاء ذلك في

---

(1) ـ ابن خلدون : المقدمـــة ، ج :2، ص: 606 .

الفصول التالية : ((فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة)) . (1) . و ((فصل في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق)) (2) . و ((فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها)) . (3) و ((فصل في انقلاب الخلافة الى الملك)) . (4)

فالعصبية في رأيه تتعزز بالدين وبه يقوى مفعولها . كما أنه يعتقد بأن الدعوة الدينية لن يتحقق لها النجاح بدون عصبية ، وهو ما شرحه في ((فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم)) (5) .

ويعترف ابن خلدون بأن الشريعة تذم العصبية ، وتحث على تركها ، لذلك فانه حاول ايجاد تبرير عقلاني يوفق بين أحكام الشريعة ، وظاهرة العصبية . وعليه فانه يعتقد بأن العصبية ((ضرورية للملة ، وبوجودها يتم أمر الله منها)) (6) مستدلا في ذلك بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . (7) ومن جهة أخرى يقر بكون الشارع قد ذم العصبية ، ونهى عنها ، تبعا لقوله تعالى : ((يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان اكرمكم عند الله اتقاكم)) (8) .

(1) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 626 .
(2) ـ نفسه : ج : 2 ، ص : 636 .
(3) ـ نفسه : ج : 2 ، ص ص : 637/638 .
(4) ـ نفسه : ج : 2 ، ص ص : 708/718 .
(5) ـ نفسه : ج : 2 ، ص ص : 638/642 .
(6) ـ نفسه : ج : 2 ، ص : 708 .
(7) ـ أنظر ما قبله .
(8) ـ سورة الحجرات ، آية : 13 . وثمة آيات أخرى تنهى عن العصبية ، =

وتبعا للحديث النبوي الشريف : ((ان الله أذهب عنكم عُبيـــة (1) الجاهلية وفخرها بالآباء . أنتم بنوآدم ، وآدم من تراب)) (2) .

وقد اكتشف ابن خلدون بأنه يمكن التوفيق بين مبدأ العصبيـــة والشريعة الاسلامية . وذلك أنه رأى في الدنيا وأحوالها على أنهـــا وسيلة ضرورية ومطيـــة يركبها الناس للوصول الى الآخرة . وعليـــه فقد تأكد بأن الشرع لم يحكم على أحوال الدنيا حكما كليا مطلقـــا ؛ كما أنه لم يقض بتركه ما ينهى عنه من الافعال والاعمال ، وانما نهـــى عن الافعال التي تتجه وجهة غير مشروعة ، و تتنافى مع أغراض الحـــق . ثم ضرب مثلا بالغضب ، والشهوة ، فقد ذمهما الشارع ، ونهى عنهمـــا ، ولكنه أباحهما في وجهة الحق . ثم يقول : ((وكذا العصبية ، حيـــث ذمها الشارع وقال : "لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ". (3) فانمـــا مراده ، حيث تكون العصبية على الباطل واحواله ، كما كانت فـــي الجاهلية ، وأن يكون لاحد فخر بها ، أوحق على أحد ، لأن ذلـــك مجان (4) من أفعال العقلاء وغير نافع في الاخرة التي هـــي دار

= مثـــل قوله سبحانه وتعالى : ((انما المؤمنون اخوة)) . (ســـورة الحجرات ، آية 10 . ثم يقول تعالى : ((اذ جعل الذين كفروا في قلوبهـم الحمية حمية الجاهلية)) . (سورة الفتح ، آية : 26) .

(1) ـ العبية ، بضم العين وكسرها : الكبر والفخر ، والنخوة . (السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، ج : 3 ، ص: 303 .

(2) ـ ورد هذا الحديث في سيرة ابن هشام ، ولكن بشيء من الاختلاف : ((يامعشر قريش ، ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالاباء . الناس من آدم ، وآدم من تراب)) . (ج : 2 ، ص: 412) ، وقال عليه السلام : أيضا في خطبة الوداع : ((ايها الناس ان ربكم واحد ، وان اباكم واحد ، كلكم لادم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله اتقاكم ، ليس لعربي على عجمـــي فضل الا بالتقوى)) (ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج : 4 ، ص: 58) .

(3) ـ ســـورة الممتحنة ، آية : 3 .

(4) ـ حقق الدكتور علي عبد الواحد وافي هذه الكلمة فوجد أنها خاطئة =

القرار . فأما اذا كانت العصبية في الحق ،واقامة أمر الله ، فبأمر مطلوب ، ولو بطل لبطلت الشرائع ، اذلايتم قوامها الا بالعصبية)) (1) .

وهكذا يحاول ابن خلدون ايجاد همزة وصل بين أحكام الدين والعصبية ، مع أن النصوص الشرعية تنهى صراحة عن الحمية ،والعبية ، والنخوة الجاهلية ، والتفاخر بالآباء والاجداد ، والهتاف باسم القبائل والعشائر . وحسب رأيه يمكن اعتبار العامل الديني كقوة مهذبة ، وملينة لحدة العصبية ،لأنه لا يرى في الدين عامل اضعاف للعصبية ، أوأداة فساد لها .

* * *

رابعا : نقد النظرية :

لقد وضع ابن خلدون نظريته التي تدور حول العصبية بغرض تفسير الأسباب التي تنشأ بواسطتها الدولة . واستمد عناصر نظريته من الاستقراءات والملاحظات التي اكتشفها من خلال الاحداث التاريخية لبلاد المغرب الاسلامي . وقد عرفت نظريته هذه انصارا تبنوها ، كما عرفت منتقدين ومنكرين لما جاء فيها ، أو لما جاء في بعض جوانبها . بينما تجاهلها كثيرون من درسوا موضوع الدولة ونشأتها ، خاصة أولائك الذين انحصرت اهتماماتهم في الدراسات القانونية .

= اذ قال : ((مجن ، مجونا ، مجانة ، ومجنا ، فهو ماجن (من القاموس) : فلم يذكر من مصادر هذا الفعل مجانا كما ورد في عبارة ابن خلدون ، فالصواب أن يقول : "مجانة أو مجونا ")) . وبمعنى مجانة يفسره الامام الغزالي بقوله : ((وأما المجانة ، فالافراط في الهزل)) . (ميزان العمل ، تحقيق سليمان دنيا ، ص: 285) .

(1) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص: 709 / 710 .

فجل الذين ناصروا ابن خلدون وتحمسوا لنظريته الخاصة بالعصبية كانوا شراحا لها ، ولم يزيدوا عليها أكثر من التوضيح والشرح الذى ازال الغموض عن رموزها .

أما المعارضون لابن خلدون فيرون بأن نظريته لا يمكن تطبيقها الا على المجتمع العربي والامازيغي ، وعليه فلا يمكن اعتبار تلك النظرية بمثابة قانون عام صالح للتطبيق على المجتمعات الانسانية كافة (1) . من ذلك أن طه حسين يجهد نفسه في محاولات عديدة لاثبات خطأ ابن خلدون أو التشكيك في صدق آرائه . فهو على سبيل المثال يعترض على تأويل ابن خلدون للآية القرآنية ((لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون)) (2) وذلك في الاستشهاد بها لاثبات كون العصبية عامل ردع للاعداء ، اذ يقول ابن خلدون : ((والمعنى (أى معنى الآية) أنه لا يتوهم العدوان على أحد مع وجود العصبية له)) (3) . وبعد عبارات التهكم من طرف الدكتور طه حسين ينتهي الى القول:((لأن كلمة عصبة المشتقة من نفس المصدر الذى اشتقت منه العصبية أى التضامن لا تدل على نفس المعنى ، وانما تدل على الجماعة أو الشرذمة ليس غير ، والقرآن لا يريد شيئا آخر سوى أن الذئب لا يمكن أن يأكل يوسف ما دمنا نحميه ونحن جماعة ...)) (4) .

والذى يتأمل جيدا في نصي :ابن خلدون ، وطه حسين يكتشف الالتباس الذى وقع فيه هذا الاخير ، ذلك أنه من جهة يفسر كلمة ((عصبة)) على أنها شرذمة أو جماعة فقط ، ومن جهة أخرى يفسر معنى

---

(1) - أنظر علي عبد الواحد وافي : الدراسات المرفقة بمقدمة ابن خلدون ، ج : 1 ، ص: 289/290 .

(2) - سورة يوسف ، آية : 14 .

(3) - ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص: 593 .

(4) - طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص: 89 .

الآية الكريمة بمعنى يوحي بمفهوم الحماية والمناصرة وذلك عندما يقول : ((والقرآن لا يريد شيئا آخر سوى أن الذئب لا يمكن أن يأكل يوسف ما دمنا نحميه ونحن جماعة)) . ما معنى هذا ؟ ألا يعني العصبية الكامنة في نفوس الجماعة ، والتي تحثهم على الدفاع عن بعضهم بعضا عند ظهور الخطر ؟ ...

ويعترض طه حسين أيضا على رأى ابن خلدون الذى أورده في ((فصل في أن الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عودته الى شعب آخر منها مادامت لهم العصبية)) (1) . ويقول طه حسين : ((ولئن استطاع ابن خلدون أن يطبق ذلك القانون على قبيلة مضر التي حافظت على الملك بعد الاسلام زمنا طويلا وكذلك على القبائل العربية والقبائل البربرية في شمال افريقية ، فانه لا يستطيع أن يطبقه على أسرة النبي ، اذ نعرف أنه منذ وفاة محمد صلى الله عليه وسلم أقصيت أسرته عن الملك ...)) (2) .

وفي الحقيقة كان ابن خلدون واضحا في تعبيره ، اذ كان يقصد في هذا الفصل التجمعات الكبرى ، ولذلك استعمل عبارة ((شعوب)) ، وعبارة ((أمة)) ، ولم يستعمل كلمة ((قبيلة)) أو كلمة ((أسرة)) كما فهم طه حسين . وحتى استشهادات ابن خلدون انحصرت ضمن المصطلح الذى وضعه في عنوان الفصل ، حيث يقول : ((واعتبر هذا بما وقع في العرب ، لما انقرض ملك عاد ، قام به بعدهم اخوانهم من ثمود ، ومن بعد اخوانهم العمالقة ، ومن بعدهم اخوانهم من حمير .... ثم جاءت الدولة لمضر ، وكذا الفرس لما انقرض أمر الكينية ملك من بعدهم الساسانية ... وكذا اليونانيون انقرض أمرهم وانتقل الى اخوانهم من

(1) — ابن خلدون : المقدمة ، ج :2 ، ص : 618/620 .
(2) — طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص : 91 .

الروم ، وكذا البربر بالمغرب لما انقرض أمر مغراوة ... رجع الى صنهاجة ثم الملثمين من بعدهم ...)) (١) .

ومن خلال هذا النص يستطيع القارئ فهم ما يقصده ابن خلدون ، فالملك هنا ينتقل داخل أمة أو شعب ضمن الفروع التي تكون في الغالب قبائل . يضاف الى التنافل هذا أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان نبيا ولم يكن ملكا . وعليه فمن التعسف الحكم على نظامه عشوائيا بأنه ملك شبيه بالممالك الاخرى التي ذكرها ابن خلدون . وعليه فان الملك الحقيقي في الاسلام بدأ ببني أمية ثم انتقل الى فرع آخر من مضر وهم العباسيون .

أما بخصوص الضرائب التي تؤثر على عصبية القبلية فتفسدها بعد اصابة أعضائها بداء الذل والمهانة ، فقد سبقت الاشارة الى نقد طه حسين (2) .

ومع هذا يستحسن في هذا المجال التنبيه الى ضرورة حصر نظرية ابن خلدون ضمن حدود لا تتجاوز المجتمع العربي والامازيغي ، لأن هذا المجتمع هو الميدان الذى درسه ابن خلدون ، ومنه خرج باستقراءاته كلها .

وتجدر الملاحظة هنا بأن ابن خلدون قد اكتفى –أثناء معالجته لموضوع العصبية – بالحديث عنها بصفتها ظاهرة اجتماعية طبيعية ، دون أن يحكم عليها ، أو يذكر أهي ظاهرة مرضية ، أم ظاهرة صحية في المجتمع ؟ بل حاول ايجاد تبرير لها من الوجهة الشرعية ، وذلك حين شبهها بالشهوة والغضب ، وانتهى الى تقرير أن المبالغة في العصبية والخروج بها عن الحدود المعقولة هو الذى نهى عنه الشرع .

(1) – ابن خلدون : المقدمة ، ج :2 ، ص: 619 .
(2) – أنظـــــر ما قبله .

أما اذا استعملت في حدود معقولة وبدون مبالغة فلا حرج فـــي الاعتماد عليها .

ومع هذا فلا يمكن اخفاء مساوئ العصبية القبلية ، لأنها تقـــف حجر عثرة أمام تطور مؤسسات الدولة ، وتعرقل فعاليتها ، ولا يمكـــن لمن اراد تقوية الدولة أن يحقق أمنيته الا بالقضاء على العصبيـــة ، لأن قوة الدولة تتطلب قيادة قوية وانضباطا لا يمكن للعصبية أن توفره .

أن ابن خلدون ـ في الحقيقة ـ يرى بأن الهدف الذي تسعـــى اليه العصبية هو الملك ، أي اقامة دولة . وهذا حقيقة ، غير أن العصبية ينتهي دورها الايجابي عند هذا الحد ، أي عند تنصيب رئيسها ملكـــا بعد اسقاط الدولة السابقة . وعندئذ يبدأ دورها السلبي ذو الطابـــع المشاغب ، ذلك الطابع الذي يأبى كل تطور لا يخدم مصالح العصبيـــة والانانية القبلية . وهكذا تصطدم مؤسسات الدولة ونظمها وقوانينهـــا بالاعراف القبلية وتقاليدها المتحجرة . وعندها يبدأ الصراع بـــين المؤسستين : الدولة ، والقبليـــة . ويغيب الاستقرار والامن ويتعطـــل النمو الاجتماعي والاقتصادي والحضاري بالجملة .

وعليه فان ظاهرة العصبية كانت من العوامل الرئيسية التي عرقلـــت النشاط الحضاري ببلاد المغرب كافة . وبهذا يتضح بأن الازدهار الحضاري يتم ـ غالبا ـ في الحالات التي تغيب فيها العصبية وتفسد . ولكن ما هـــي العوامل المفسدة للعصبية ؟ لقد سبقت الاشارة الى رأي ابن خـــلدون بخصوص فساد العصبية ، ومن خلال ذلك اتضح بأن ثمة عوامل تتعلـــق بالمستوى الحضاري ، وأخرى لها صلة بالدين والعقيدة . فالاولى تفســد العصبية تماما وتقضي عليها ، أما الثانية فتهذبها وتخفف وطأتها . وما ذكره ابن خلدون فيه كثير من الحقائق التي انبثقت من فكر عملي صائب . ولكنه لا يخلو من بعض النقائص . لذا فانه من الضروري اضافة الآراء الـــتي

يبدو أنها مكملة للموضوع . وعليه يمكن اجمال العوامل المزيلة للعصبيـــة فيما يلـــــي :

٩ ــ الحضـــــارة : من المبالغات التي يؤخذ عليها ابن خلدون حكمـــة على الحضارة بتلك القسوة التي تبعث على الاندهاش، فهو ينظر الـــــى الحضارة على أنها نهاية للعمران ومفسدة له . (1) بينما ينظر للعصبية القبلية كبانية ومشيدة للملك والدولة . واذا كان يعدد بعض الاعمـــــال التخريبية التي نسبها للاعراب وهم البدو ، فانه لا يتهم البدو بافســـاد العمران باطلاق ، بل يرى أنهم يتطورون بعمرانهم البدوي الى العمران الحضري، لأن ((الحضارة غاية للبداوة)) (2) . وبالتالي تزول العصبية القبلية في البيئة الحضرية ، وهذه البيئة الحضرية ترمز الى نهاية العمران وخرابــــه .

فاذا كانت البداوة شعار العصبية كما يقول ابن خلدون ، فـــان العصبية في هذه الحال تأخذ شكلا يتميز بالتخلف المضاد للحضارة . فالبدو في رأى ابن خلدون سابقون ــ بحكم الطبيعة ــ ومتقدمون على الحضـــر ، لأن البادية أصل للعمران ، والحضارة نتجت من التطور الذى عرفه أهـــل البادية . لكن ذلك التطور ــ في رأيه ــ لا يخلو من مساوئ وعيـــــوب وأمراض . فالبدو ، ، وان كانوا نهابين وأنانيين ومفسدين الا أنهم أقرب الى الخير والكرم ، وأميل الى صفات الفضلية من الحضر . والبدو أكثـــر شجاعة واقدام من الحضر ، ولا يرضى البدو بالمذلة والمهانة ، ويأبـــون الانصياع الى الاحكام الجائرة ، على خلاف الحضر الذين استسلموا للاحكام باختلاف اصنافها : السلطانية والتعليمية . وما القبول باعطاء الضرائــــب

(1) ــ أنظر ابن خلدون : المقدمة ، ج : 3 ، ص: 1010 .
(2) ــ نفـــــــــــس : ج : 3 ، ص: 1010 .

الا احدى علامات الذل . كما أن النسب الصريح والنقي يكون في الاوساط البدوية ، على خلاف الاوساط الحضرية التي اختلطت انسابهم والتبس أمرهما .

ويقارن ابن خلدون بين أهل البادية وأهل الحضر فيقول : ((وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها ، قد تلوثت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر ، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم ، فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم ، لا يصدهم عنه وازع الحشمة ، لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولا وعملا . وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم الا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها ...)) . (1)

لقد تبين من خلال هذا النص أن مآخذ ابن خلدون على الحضر محصورة في القيم الخلقية . أما مهاراتهم في الفنون والصنائع ، ونشاطهم الاقتصادي والثقافي ، كل ذلك لا يشفع لهم عنده ، وان كان يعترف بذلك . هذا بالاضافة الى المساوئ التي تميز بها أهل البدو من التخلف ، والجهل والانانية الفردية ، والنهب ، والتمرد على النظم والاحكام ، التي في غالب الاحيان تعود بالفائدة على المجتمع بكامله . وابن خلدون - في الحقيقة - لا يجهل الآيات القرآنية التي تصف الاعراب باوصاف لا تليق بالمؤمنين المخلصين . (2) كما أنه يعلم بأن الشرع نهى عن العودة الى

(1) - ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ص : 584 .

(2) - سورة التوبة ، الآيات : 90 - 97 - 98 - 99 - 101 - 120 .
وسورة الاحزاب ، الآية : 20 ، وسورة الفتح ، الآيات : 11 - 16 ، وسورة الحجرات ، الآية : 14 .

البادية بعد الهجرة التي ترمز الى التحضر والاستقــــرار. (١)

والمهم هنا أن الحضارة عامل من العوامل المفسدة للعصبيــة.
والملفت للنظر أن ابن خلدون عندما حلل وعلل فساد العصبية بواسطة العوامل التي تسببها الحضارة، حرص على ابراز تلك العوامل فــي ثوب كريه يوحي بأنها آفات وأمراض اجتماعية غير مرغوب فيهـــــا.
ولم يحاول ايجاد أسباب أخرى أكثر ايجابية وصلاحا من تلك الــتي أوردها. وربما عاد السبب في ذلك الى هيمنة الطابع العسكري للعصبية عليه، لأنه يرى فساد العصبية فسادا للقوة العسكرية التي يجــب الحفاظ عليها لحماية المجتمعات الاسلامية.

فالدعة والترف مفسدان للعصبية، وهما أيضا آفتان تفرزهما الحضارة فتصيب المجتمع بالانهيار. ومعاناة الاحكام تضعف العصبية وتقضي عليها. وهي أيضا من الآفات الحضارية المكروهة والتي تصيب المجتمع بالمذلــة والمهانة، وتنتهي به الى السقوط. وفقدان الشجاعة بدوره مــــن الامراض الحضارية التي تضعف العصبية وتسقط المجتمع وتنتهي به الــى الانهيار، والمذلة، والانقياد، ودفع الضرائب والمغارم، كل ذلك مــن ميزات الحضارة التي تفسد العصبية وتهدم تلاحمها. وبالتالي تتلاشــى قوة الدولة والمجتمع، والانفراد بالمجد ميزة من ميزات الحضـــارة والمذخ عاد بقودان الحاكم الى الطمع في الانفراد بثمرات المجـــد، ولذائذ السلطة، فينتهي الامر به وباصحابه الى السقوط، نتيجـــة لا نفراط اللحمة، وفساد العصبية، وذلك مما تفرزه الحضارة أيضـــا.

(١) – يحاول ابن خلدون تأويل مقصد الشرع في نهيه عن العودة الــى البادية بأنه قصد تشجيع الهجرة الى المدينة المنورة بسبب قلة المهاجرين آنئذ. أما بعد الفتح فقد سقطت الدعوة الى الهجرة، وعليــه فلا حرج من العودة الى البادية، غير أن المقصـــود في الحقيقة هو الدعوة الى سكنى المدن، وترك البادية. (أنظر المقدمــــة، ج ٢ ص ص: 588/585. أنظر أيضا علي الوردي: منطق ابن خلدون *

وكذلك الامر بالنسبة لنهاية الحسب ، حيث تؤدى الحضارة ومغرياتهـا بأهل البيت الحاكم الى ارتكاب أخطاء في حق أهل عصبيتهم فيستبد دونهم ، فينتهي به الامر الى السقوط ، وتنتقل السلطة الى بيت آخر من العصبية العامة ، والاتهام هنا أيضا يوجه الى الحضـارة وما تفرزه . (1)

وهكذا يتضح بأن ابن خلدون قد اختار سلبيات الحضارة جاعـلا منها عامل افساد للعصبية ، ولكن الحضارة تتميز أيضا بالمظهر الثقافي ، والمظهر الاقتصادى بمعناهما الواسع ، وهذان المظهران يتميزان بالتفوق على البداوة المتحجرة في السذاجة والتخلف . اما كون الحضارة ترمـز الى نهاية العمران وفساده فامر فيه نظر ، ومن الصعب التسليم بـه ، خاصة بالنسبة الى جيل كجيل هذه الايام .

2 - الديـن : لقد سبق ذكر رأى ابن خلدون فـي الأثر الديني على العصبية ، وكيف حاول أن يوفق بينهما ، حتـى لا يتعارضان ، ويبدو أنه قد اصاب في تحليله الى حد ما ، ولكن لا يعني ذلك مباركة الدين للعصبية ، خاصة وأن نصوص الشرع التي تنهى عـن العصبية ومشتقاتها صريحة ولا تقبل التأويل . (2) أما النصوص التي أتـى بها ابن خلدون فتتطلب التأويل . (2)

ومع هذا فان السيرة النبوية الشريفة تؤكد بأن الدين قد هادن لوقت ما ظاهرة العصبية خاصة عندما تبرز في جوانبها الايجابية التي تعـزز تلاحم المسلمين وتناصرهم ، وبالمقابل فقد واجهت العصبية القبلية رفضـا صريحا من النبي وخلفائه وذلك عندما تبرز بوجهها الجاهلي الاريـه ،

---

* ص : (103/100) .

(1) - أنظـر ما قبله .

(2) - أنظـر ما قبلـه .

ذلك الوجه الذي يدعو الى تثبيت المجهود الاستراتيجي للامة الاسلامية .

وعليه فان العصبية القبلية بعد تأسيس الدولة الاسلامية واتساع رقعتها ، وبعد اشتمالها على شعوب مختلفة أصبحت جميعها تمثل الامة الاسلامية ، واصبحت العصبية بعد هذا كله مضرة بالمجتمع الاسلامي المتلاحم بالتعاليم الدينية وليس بالانساب الدموية . وهكذا وقف الدين في وجه العصبية ودعاتها مستندا الى نصوصه الصريحة القرآنية منها والنبوية . ومن هنا يكون الدين أحد العوامل الاساسية في اضعاف العصبية والقضاء عليها .

٣ — **الروح القومية** : لم يتطرق الى هذا الموضوع ابن خلدون ذلك لان الروح القومية أو الوطنية بالمفهوم الحديث لم تكن معروفة في عهده . وهذه الفكرة نشأت بظهور مفهوم الوطن حسب الاصطلاح الحديث . ويبدو أن هذا المفهوم أرقى من مفهوم القبيلة ، ونشأ مع الوقت نتيجة لاتحاد قبائل عديدة وتلاحمها ، بغرض الدفاع عن اراضيها الموحدة . وهكذا تطورت العصبية القبلية وتعززت بالمفاهيم الثقافية الضرورية حتى غدت تؤمن بكيانها الجديد المتمثل في الوطن الواحد والمصير المشترك .

وعليه فان فكرة القومية والوطنية تقتل الروح العصبية التي تدعو الى تفكك الامة الواحدة ، بغرض الدعوة الى الانساب الدموية . والباعث للفكرة الوطنية — كما هو واضح — عوامل ثقافية و حضارية . ولا يتوصل المجتمع الى فهمها الا اذا نبذ سذاجة البداوة وعداوتها للثقافة والحضارة .

٤ — **الكثافة السكانية** : من العوامل التي تعزز القبلية والبداوة انتشار السكان ضمن مناطق واسعة . لأن البداوة لا تقوى ولا تمتد الا في القفار والمناطق الشاسعة . وحيث الكثافة السكانية تذوب البداوة ،

وبالتالي تتفكك القبلية ، بمقتضى الاختلاط والازدحام والتداخل بين الناس ، تبعا لمقتضى الحاجات الاقتصادية والثقافية . وعليه فان الكثافة السكانية تعتبر من العوامل المضعفة للعصبية القبلية وهذا العامل لم يشر اليه ابن خلدون

٤ — المذاهب والعقائد : ان المذاهب والعقائد بمختلف اتجاهاتها : سياسية كانت أم دينية تضعف العصبية القبلية وتقضي عليها ، لأنها تعتمد على مفاهيم ثقافية ، وتدعو الى روابط عقائدية وفكرية لا علاقة لها بالعرق ولا بالنسب . وهذا بالطبع يتناقض مع العصبية القبلية وخير مثال على ذلك المذهب الشيعي الذى يدعو أنصاره الى حصر الخلافة في بيت النبي القريشي العربي ، مع أن أغلبهم من الفرس، ثم المذهب الخارجي الذى يدعو انصاره — وهم عرب — الى رفض المقولة ((الأئمة من قريش)) وندائهم بضرورة اختيار الرجل الصالح لذلك دون اعتبار للجنس أو النسب واللون ، وهذا العامل الايجابي أيضا لم يشر اليه ابن خلدون ، الا اذا كان يقصد هذا حين ذكر دعوة الحق في ((فصل في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين اما من نبوة أودعوة حق)) . (١) على أنه يستحسن التذكير بالنص الذى كتبه الامام أبو حامد الغزالي في فصل ((بيان معنى المذهب واختلاف الناس فيه)) (٢) ، فهذا النص يفسر الكيفية التي تظهر فيها العصبية بفضل المذاهب ، ولكن تلك العصبية ليست العصبية القبلية بل شكل آخر من أشكال العصبية ، حيث تكون الرابطة فيها هي الافكار ، ومع هذا فهي تتدعم بفضل الانتماء المكاني والعرقي .

---

(١) — ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص: 636 .

(٢) — ميزان العمل ، ص: 405/406 . أنظر ما قبله .

وجملة القول أن العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية ضربت جذورها في اعماق تاريخ المجتمعات شبه الداثية العربية منها وغير العربية . ومصدر العصبية القبلية في تاريخ الشعوب الاسلامية يعود الى العصر الجاهلي الذى يتميز بهذه الظاهرة التي ابقت المجتمع العربي والامازيغي آنذاك .هكذا ضمن وحدات اجتماعية وسياسية صغرى تتطاحن وتتقاتل باستمرار ، ولا سباب قد تكون في منتهى التفاهة والسخافة .

وتلك الوحدات الاجتماعية والسياسية تعرف باسماء شتى ، تختلف بين وحدة وأخرى ، تبعا لحجمها واهميتها الاجتماعية والسياسية . والرابطة التي تعقد بين الوحدات وتعصبا بعضها بعضا هي العصبية ، وتستند في ذلك على النسب والقرابة الدموية . غير أن تلك الرابطة تطورت فيما بعد ، نظرا لظروف اجتماعية معينة ، فاتسع مجالها فاصبحت اللحمة لا تكتفي بالنسب العرقي والدموي فقط ، بل دخلت عليها مفاهيم أخرى : كالحلف ، والجوار والولاية (بالالتحاق أو بالرق) ، والاصطناع . غير أن العصبية التي تستند الى القرابة الدموية تعتبر أقوى لحمة وأشد نعرة . ومع هذا فقد اصبحت العصبية تستند الى روابط أخرى غير روابط الدم والقرابة .

ويتضح من استقراء تاريخ شعوب عديدة بأن العصبية ظاهرة ملازمة للبداوة ، ومعادية للحضارة ، وعليه فيمكن اعتبارها مظهرا من مظاهر التخلف الذى يأباها كل تنظيم جديد لا يتناسب مع الاعراف المتبعة في المجتمعات البدوية .

فان كانت العصبية تساعد على قيام الدولة فانها بالمقابل تطيح بدولة عندما تقيم دولتها . وبالتالي فانها باسقاط الدولة السابقة تقضي على معالمها الحضارية واذا كانت العصبية المنتصرة

تتطلع بعد ذلك الى تشييد حضارة تخصها ، فان قضاءها على الحضارة السابقة يمنع تواصل النشاط الحضاري وتكامله .

وبالجملة فان العصبية كظاهرة اجتماعية وتاريخية تعد من العلل والاسباب التي تحرك التاريخ ببلاد المغرب منذ حقبة بعيدة . كما أن هذه الظاهرة هي السبب الرئيسي في عدم الاستقرار والاضطرابات السياسية بهذه الديار ، وبالطبع فالمقصود هنا هي العصبية القبلية . وقد تم بحث موضوع العصبية في هذا الفصل كظاهرة اجتماعية وتاريخية ، وبقي الآن التكلم عن القبلية كنظام اجتماعي عام ، مع الاشارة الى الشكل القبلي المتبع في بلاد المغرب .

الفصل الثالث

٢

الملامح العامة للمجتمع القبلي بالمغرب الاسلامي

أن جذور القبلية في بـلاد المغرب ممتدة الى اعماق التاريخ البعيد ، وليست هذه الظاهرة بنت العصور الوسطى ،حيث تزخر المصادر القديمة بالشواهد والامثلة التي جعلت تاريخ هذه البلاد تاريخا للقبائل ،أكثر من كونه تاريخا لحضارات ودول ذات نظم ترتكز على روح المواطنة .

وتعتبر هذه الظاهرة ـ في الحقيقة ـ احدى العوامل السلبية في مسيرة هذه البلاد الحضارية ،وهي علامة من علامات الجمود الذي اصيب بـه هذا المجتمع خلال فترات عديدة من تاريخ بـلاد المغرب كافة .

وقد تساءل بعض الباحثين عن السبب الذي منع المجتمع المغربي من توحيد بـلاده في دولة واحدة . ثم زعموا بعد البحث أن العلة تكمن في ظاهرة الصراع المستديم بين البدو والحضر (1) ، ذلك الصراع الذي استعصى حسمه . وبقيت الحال هكذا .. كلما توصل المتحضرون الى انجاز أثر أو معلم حضاري ،جاء البدو في موجة من موجاتهم ليهدموا ما تم تشييده من قبل ... هذا بالاضافة الى العجز الكامن في نفوس المتحضرين ،اذ عجزوا عن التخلص نهائيا من ميراثهم المنحدر في العادات والتقاليد القبلية ،حيث كانوا في مدنهم يعيشون بعقليات قبلية ، وأن طبعت بطابع مدني بعض الشيء . وربما انقسمت المدينة الى أحياء عديدة ، وكل حي مخصص لقبيلة . وتتجلى القبلية كظاهرة اجتماعية وتاريخية في أوضح صورها

(1) ـ أنظر شارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ،تعريب الاستاذ مزالي، ج : 1 ،ص : 34 . واستند جوليان في تحليله الى ما ذكره غوتييه حول الصراع بين البدو والحضر . وكان أولى به أن يشير أيضا لابن خلدون ،خاصة وأن الفكرة أساسا من ابتكـاره .

بالارياف المغربية و صحرائها ، حيث تكاد التركيبة الاجتماعية تقتصر عليها .

ولما كانت القبلية احدى الخواص الاساسية للبداوة ،فلا بد في هذه الحـــال من الاشارة بايجاز لظاهرة البداوة التي تعتبر من أبرز الملامح المميزة للمجتمـــع المغربي عامة .

فالبداوة (1) بالمغرب الاسلامي لاتقتصر على الصحراء فحسب ،بل تشمـــل الارياف (2) أيضا ،بسهولها و جبالها . ومن هذا المنطلق يتحدد مجال هـــذا البحث في معالجة القبلية ذات الطابع البدوي ،أي الريفي و الصحراوي . لأن الظاهرة القبلية في بلاد المغرب كافة تنتشر عبر الصحاري والارياف . وبهذا الاعتبار يمكـــن القول بأن المواطن الحقيقية للقبلية ومراتعها في المغرب الاسلامي هي الاريـــا ف (السهول و الجبال) ،والصحراء باطرافها السهبية . وهذا لايمنع أن تظهر القبلية أيضا ضمن بعض المدن التي يغلب عليها الطابع الزراعي ، وأن كان ابن خلدون قـــد قسم المجتمع المغربي آنئذ الى فئتين : حضر وبدو ،باعتبار أن " البدو " معناه أهل الصحراء وأهل الريف أيضا : الا أنه أشار الى بعض الفروق التي تجعل مفهوم البـدو يعني فئات عديدة تختلف عن بعضها باختلاف حرفتها ، و طبيعة حياتها (3). فثمة فئة مستقرة ،بينما الأخرى متنقلة طلبا للنجعة ، وحتى هذه الأخيرة تنقسم الى صنفين، ذات النجعة القريبة ،وذات النجعة البعيدة . وثمة فئة تحترف الزراعة وتربيـــــة

---

(1) ــ ((والبدو ،والبادية ،والبداوة ،خلاف الحضر ،والنسب اليه بدوي . وبـدا القوم بدوا أي خرجوا الى باديتهم .. وقيل للبادية بادية لبروزها وظهـورها . وقيل للبرية بادية لانها ظاهرة بارزة .. وقال الليث : البادية اسم للارض التـي لاخضر فيها ...)) . (ابن منظور : لسان العرب ،ج :1، مادة : بدا ، ص : 178) .

(2) ــ ((الريف : الخصب والسعة في المأكل ،والجمع أرياف ... والريف : أرض فيها زرع وخصب . ورافت الماشية : أي رعت الريف ...)) (ابن منظور : لسان العرب ،ج :1 ،ص : 1268) .

(3) ــ أنظر ابن خلدون : المقدمة ،ج :2 ، ص ص : 577/583 .

الحيوانات الأليفة ، وأخرى حرفتها رعي الشاء ، والمعز ، والابل، والخيول والبقر في بعض الحالات . وبالطبع فان هذه الفئة الأخيرة تنقسم الى صنفين أيضا تبعا لشكل النجعة : فاصحاب النجعة القريبة يمكن لهم أن يكسبوا الشاء والمعز والخيول ، وأما أصحاب النجعة البعيدة فيكسبون الأبل ، لقدرتها وصبرها . ويمكن أيضا تمييز تلك الفئات تبعا لاختلاف مساكنهم . فبعضهم يسكن في بيوت من الطين والحجارة بدون عناية تذكر ، وآخرون يسكنون تحت بيوت من الوبر ، والشعر ، والجلود والخوص . كل هذه الاختلافات يستنتج منها أن البدو صنفان رئيسيان : الأول أهل الريف ، وهم مستقرون ، وحرفتهم الرئيسية هي الزراعة المستقرة ، وتربية الحيوانات المناسبة لحياتهم بدون ابل ، ومساكنهم في الغالب من طين وحجر ، ومعاشهم بسيط بالنسبة لأهل المدن ، بينما يعتبر كماليا بالنسبة لأهل الصحراء . ومن هؤلاء قبائل كتامة ، وصنهاجة الشمال ، ومصمودة ، وبعض الاحياء من زناتة ، وأحياء أخرى من بني هلال واحلافهم الذين اختاروا الاستقرار والزراعية (1) . الصنف الثاني : أهل الصحراء والسهوب ، وهؤلاء رحالة لا يعرفون الاستقرار وحرفتهم هي الرعي وتربية المواشي ، ومساكنهم تلبي مقتضى حالهم ، حيث يمكن تفكيكها ونقلها أينما ذهبوا ، وعليه فهي في الغالب أما من وبر ، أو شعر أو جلود . وهذه الفئة في الحقيقة تصنف هي الأخرى الى صنفين حسب بعد النجعة (2) . فالصنف الاول قريب النجعة ، ولا يتوغل اعضاؤه في الصحراء ، مكتفين برحلاتهم التي لا تتجاوز أطراف الصحراء والسباسب القريبة . ويحترفون شيئا من الزراعة المتنقلة

---

(1) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، ج 6 ، ص ص: 49ـ50ـ54ـ66ـ70ـ90ـ96 ـ98ـ117ـ124ـ131ـ238ـ301/303ـ306/307ـ311/316 ـ425/427ـ428ـ436ـ460/463ـ552ـ556/558 ، ج 7 ، ص ص: 4ـ24ـ50ـ59ـ114ـ124ـ129/130ـ134ـ150/151 .

(2) ـ للاستزادة انظر كتاب صلاح مصطفى الفوال تنمية المجتمعات الصحراوية (أسس نظرية) ، ص ص: 110/120 . وكتاب علم الاجتماع البدوي للمؤلف نفسه ، ص ص : 153/176 .

والفصلية مع حرفتهم الاساسية المتمثلة في رعي الحيوانات من : شاء ، وماعــز ، وخيل ، وأبل وهي عندهم وسيلة نقل أكثر من كونها مصدر غذاء . ومن هــؤلاء أكثر بطون زناتة ، ومكناسة ، وجل بطون بني هلال و سليم .

أما الصنف الثاني من أهل الصحراء فهم أصحاب النجعة البعيدة ، الذين يصفهم ابن خلدون بصفة الوحشية (1) . بسبب حياتهم الموحشة ورحلتهم الموغلة في أعماق الصحراء الشحيحة ، ذات الطبيعة القاسية . و هؤلاء لا يعرفون الفلاحة ، ويعتمدون في معاشهم على الجمع والالتقاط و القنص ، و ما تمدهم به الابل من لحم ولبن . والحيوان الوحيد ـ تقريبا ـ الذي ينسجم مع حياتهم هو الجمل . ومــن هؤلاء صنهاجة الجنوب وبعض القبائل العربية مثل : المعقل ، وبني هلال، وسليم .

اذن فالمجتمع المغربي يغلب عليه طابع البداوة بشكليها : الصحــراوي ، والريفي . وحتى مدن هذه الديار فهي لاتخلو من الروح القبلية . ومن هنا يستوجب الحال معرفة معنى القبلية ومفهوم النظام القبلي كمظهر اجتماعي عام ، مع التركيــز على النموذج المغربي و العربي .

1 ـ القبلية والقبيلة :

القبلية هي المظهر العام للوحدة الاجتماعية المسماة بالقبيلة . وهي بمثابة الصورة المعبرة عن روح القبيلة : بنظامها وكيانها المادي ، و قيمها المعنويــة . وهي مثل عبارة المدنية امام عبارة مدينة . فالقبلية بهذا ليست القبيلة فحسب ، بــل

(1) ـ المقدمة ، ج :2 ، ص : 582/583 . علما بأن هذه الصفة قد سبــق للامام أبي حامد الغزالي أن اطلقها على الاعراب والترك وذلك في كتابــه ميزان العمل ، حيث قال : ((وأقرب الناس الى البهائم أجلاف العــرب والترك ، ورعاة البهائم منهم . ولو وقع بينهم راع أو فرمنهم عقلا ، وأكثر منهــم دراية بصناعتهم ، لو قروه طبعا ، ولذلك ترى الأتراك بالطبع يبالغون فــي توقير شيوخهم . .)) . (ص : 332/333) .

هي الظاهرة الاجتماعية الصادرة عن مفهوم القبيلة كوحدة اجتماعية ، اقتضتها ظروف معينة .

أما القبيلة فهي تركيبة بشرية اجتماعية ،مكونة من عدة وحدات صغـــرى ، قد تكون أسرا ، أو عشائر ، أو إفخاذا . . . الخ . على أن تتلاحم تلك الوحدات بفضل الاعتقاد في الانتماء الدموي (النسب) ،وتبعا لمقتضى المصلحة المشتركة . كما يشترط في القبيلة أن يعيش افرادها معا ،في حلهم وترحالهم ،ضمن منطقـــة محددة . ويخضع افراد القبيلة الى عرف وعادات متفق عليها . ويسهر على تطبيـــق العرف واحترام العادات رئيس ينتمي الى اقوى أسر القبيلة واشرفها حسبا . ويعيش اعضاء القبيلة ووحداتها الصغرى في حدود نظام اجتماعي تتسلسل فيه الوحدات في شكل هرمي تكون القبيلة في القمة ، بينما تتشكل القاعدة من الاسر المنتمية للقبيلة .

2 ـ النظـــام القبلـــي :

يتجلى النظام القبلي من خلال تلك السلسلة من الحلقات والزمر المشكلـــة من فئات اجتماعية ذات قرابة حقيقية أو وهمية . وأطلقت هذه التسمية نسبة الـــى احدى الحلقات الهامة في تلك المنظومة الا وهي " القبيلة " كما يسمى هذا النظام أيضا بالنظام العشائري ، نسبة الى حلقة أخرى أقل أهمية وهي " العشيرة " .

ومنذ أن شعر الانسان بضرورة اجتماعه مع غيره ،وسلم بحتمية الحياة مـــع الآخرين ، والتعاون معهم ـ بفضل ما ركب الله فيه من غرائز حافزة على التكافـــل والترابط ـ فمنذئذ اخذ ذلك المخلوق في وضع نمط اجتماعي ينظم به حياته ،ومعاشه مع غيره ،من أبناء جنسه .

وهكذا . . بمرور الوقت توصل الانسان الى بلورة نمط اجتماعي منظم سمي ـ فيما بعد ـ بالنظام القبلي ،أو النظام العشائري وهذا النظام فرضته طبيعة الحياة على الانسانية ،حيث أنجر عن غريزة التناسل ـ التي وضعها الله في مخلوقاتـــه ـ ظهور نسل عرف بالذرية التي شكلت ما يسمى الآن بالاسرة ،وهي الخلية الأولـــى في النظام القبلي .

وليست غريزة التناسل وحدها هي الكفيلة بظهور هذا النظام من خلال خليته الأولى (الأسرة) ،بل ثمة عوامل اجتماعية أخرى تعتبر من خصوصيات الانسان ، كونسه اجتماعيا بالطبع . وتبعا للتطور المحتوم ـ نظرا للتناسل الكثيف وتشعب المـــولادات ـ ظهرت وحدات اجتماعية أخرى بالتتابع أوسع من الأسرة ، يمكن أن تكون فصيلـــة أو فخذا أو عشيرة . . . . وهكذا كلما تضاعف عدد أفراد الوحدة وازداد تفرعهـــا نشأت وحدة اجتماعية أعلى من الأولى وأشمل . وما القبيلة الا وحدة اجتماعية وسياسيـة في تلك المنظومة التي اختلف الناس في تحديد حلقاتها وفي تسلسلها ،كما تباينـــت الاسماء التي أطلقت عليها بتباين المجتمعات البشرية واختلافها . هذا ويتميز النظـام القبلي ببعض السمات التنظيمية : شكلا ومحتوى وسلوكا . ويمكن حصر تلك السمات فــي :

1ـ **النســـب** : ويعتبر النسب أو " ثمرات النسب " كما يسميها ابن خلدون (1) بمثابـة الركيزة الاسياسية في النظام القبلي ببلاد المغرب.و" ثمرات النسب " جـــاءت تعبيرا ونتيجة لاستحالة التحقق بيقين من صحة النسب ضمن سلسلة طويلة ومتشعبـــة من الآباء والأجداد .

فمجرد الاعتقاد في النسب الواحد ،وفي القرابة يكفي لتقوية الأواصر وتمتيـــن اللحمة . وبما أن الثمرات تتحقق بذلك الاعتقاد في الانتماء،فلا يهتم البحث بالحقيقـــة ذاتهـــــــا .

ولولا الاعتقاد التام في النسب ـ ولو كان وهما ـ لتفككت عرى القبائل بانحـلال الأواصر الداعية للقرابـة والالتحام . وهذا ما حدث في المجتمعات الانسانية (2) التي ذابت فيها القبلية وأنحلت نظمها تاركة المجال فسيحا لنظام الدولة ،ولروح المواطنـــة ، حيث سلكت تلك المجتمعات أسلوبا محينا ساعد على فصم الوصلة ،وكسر الالتحام بيـــن فئات القبائل واعضائها ،وبذلك انتهت القبلية ،والعشائرية في تلك الاوساط ،بانتهاء العصبية فيها .

(1) ـ المقدمة ،ج :2،ص : 427.

(2) ـ كالمجتمع الاغريقي والمجتمع الروماني ، والمجتمع الجرماني ،مثلا . أنظـــر ذلك في كتاب ارسطو الذي ترجمه طه حسين تحت عنوان نظام الأثينيين . وكتـاب فريدريك انجلس : أصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة : ص : 154 . وما =

أما المجتمع العربي والامازيغي فقد حافظ على النظم القبلية تبعا لمحافظته على الانساب ، والاستناد اليها — وهما كانت أم حقيقة — عندما يستدعي الامر سلوكا معينا . بل تطور الامر ، اذ أدخل العرب والامازيغ اشكالا أخرى في نسبهم أضفت عليه مرونة ملحوظة ساعدت على نمو القبلية وازدهارها . وتلك الاشكال لا يشترط فيها النسب الصريح ، أو النسب العرقي الذي يقتضي نسبا حقيقيا ومعلوما أبا عن جد ، وعليه فقد أقروا الانتساب :

(1) — **بالحلف الجوار** : ويعرف هذا بنسب الاستلحاق سواء ألحق شخص أو جماعة أو قبيلة بكاملها بنسب معين ، فتذوب فيه مع مرور الزمن (2) .

(2) — **بالمتاقة** : ويتم ذلك بعتق عبد ، أو أسير ، أو أكثر ، ثم الحاقه بنسب سيده الاول أو آسره .

وهكذا وبمرور الوقت صارت القبائل تمتص عناصر جديدة ثم تلحقها بها ، فيضاعف ذلك في مجهودها البشري ، ويساعدها على البقاء والحياة طويلا . وهذا العامل الهام افتقرت اليه النظم القبلية في مجتمعات أخرى ، فاسرع اليها الفناء ، كما كان الحال في بلاد الأغريق التي تصدع فيها النظام القبلي السائد في العصر البطولي وما قبله ، حيث عجزت القبائل في تلك المدن عن مواصلة مسيرتها التطورية ضمن النظم القبلية ، وذلك راجع الى تقوقع تلك القبائل وانطوائها على نفسها . وبعد اتساع الحركة التجارية وتنوع المبادلات ، اقتضي الحال أن يختلط اعضاء العشائر وأن يمتزجوا بانتقالهم من منطقة الى أخرى . ونتج عن ذلك التنقل والاختلاط أن ازدحمت كل منطقة بعناصر لا تنتمي الى القبائل المتواجدة بها . وبالمقابل فهم في نظر ((المجمع الشعبي)) (3) ، (Agora) والملك مواطنون يتمتعون بحقوق

= بعدها . ول وبل ديورانت : قصة الحضارة ، تعريب محمد بدران ، وزكي نجيب محمود : مج ، 1 ، القسم : 1 ، ص ص : 39/47 . مج : 2 ، القسم : 6 ، ص ص : 24—74/76—102/104—369 . مج : 3 ، القسم : 9 ، ص ص : 9/10 — 26/30 — 46/48 — 55/61 — 64/70 — 76/77 .

(2) — أنظر جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج : 4 ، ص : 353 ، 391 . احسان النص : العصبية القبلية واثرها في الشعر الاموي ، ص : 17 .

(3) — هو أعلى مجلس في النظام السياسي والاجتماعي باثينا ، وهو اسمى من المجلس العشائري (Boulé) .

كاملة . ومع هذا فهم غرباء في نظر القبائل ،تبعا لتواجدهم في مناطق لا تخص قبائلهم . وبالتالي فقد حرموا من المشاركة في الحياة السياسية ضمن المناطق العائدة الى قبائل لا ينتمون اليها . وانجر عن هذا تعارض واضطراب في تطبيق قرارات المؤسسات القبلية المستقبلة لأولائك النازحين والغرباء . وهكذا استدعت تلك العراقيل والتناقضات ادخال تعديلات على الدستور القبلي المعمول به ، وكانت التعديلات في صالح السلطة المركزية وعلى حساب القبائل . وبذلك انتقل المجتمع الآثيني خطوة هامة نحو انشاء الدولة وتعزيز دستورها (1).

وهذا بالطبع لم يحدث في البلاد المغربية بسبب المرونة التي تميزت بها الاعراف القبلية في تلك الربوع . لأن الاقرار باستلحاق الغرباء وادماجهم ضمن القبيلة المغربية أدى الى عدم ظهور التناقضات التي عرفها المجتمع الاغريقي ،بينما يظهر بأن هذه السنة (سنة الاستلحاق) قد عرفتها قبائل الهنود الحمر وعملت بها (2) وهذا ـ بالطبع ـ ساعد على بقاء النظام القبلي وازدهاره هناك .

وبالطبع فان سنة الاستلحاق لا تكفي وحدها لضمان بقاء القبلية ،بل ثمة عوامل أخرى تجتمع وتتفاعل ،وما هي الا احدى العوامل المساعدة ،لأن بعض الشواهد تنص على أن الاستلحاق عمل به في القبائل الرومانية (3) ، ولكن في حدود ضيقة . وهذا لم يمنع انقراض القبلية في روما . وذلك عائد فيما يبدو الى تواقر شروط أخرى ذات قوة وفعالية . وتلك الشروط تم العمل بها في بلاد الاغريق قبل روما ،وترتكز أساسا على تراث وأعمال فلسفية ذات قيمة عملية .

ويبدو الى جانب هذا أن القبائل المعزولة عن المجتمعات الانسانية الأخرى تتمتع بنسب صريح ،بحكم عدم الاختلاط ،وعليه فلا يمكن اعتبار القبائل العربية والامازيغية قبائل ذات نسب صريح باطلاق ،لكونها متصلة مع غيرها منذ أقدم العصور .

---

(1) ـ أنظر انجلس : أصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة ،ص ص : 170/171.
(2) ـ انجلس : نفسه ، ص : 136.
(3) ـ انجلس : ص ، 191 .

ب ـ البنـــاء القبلـي :

يتجلى النظام القبلي أيضا من خلال بنائه الشكلي أو الهيكلي ،وذلـــك بتركيب وحداته الاجتماعية و تسلسل مراتبه في شكل هرمي تظهر عليه البساطة وعـــدم التعقيد . وهذا البناء لاتخلو منه النظم القبلية في المجتمعات البشرية كلهـــا . والاختلاف قد يكون في عدد الوحدات وفي أسمائها . فلدى الاغريق مثلا ترتب وحدات المنظومة القبلية ،وتسمى كالتالي (1) .

- الأســـرة .
- العشيـــرة .
- الأخـــوة .
- القبيلـــة .
- اتحاد القبائـــل .
- الشعـــب.

والرومان لا يختلفون كثيرا عن الاغريق ، فيما عدا اتحاد القبائل ،والاخـوة التي تسمى عندهم كورية (2) . كما ترجم الويس هنرى مورغان (MORGAN L.H.) في كتابه " المجتمع القديم " (ANCIENNE SOCIETE) تسميات الوحدات القبلية في مجتمع الهنود الحمر بالترتيب المعروف في بلاد الاغريق (3) .

أما المجتمع العربي والاما زيغي ـ فعلى الرغم من بقاء النظام القبلي فـــي ربوعه الى الآن ـ فانه يفتقر الى الدراسات الاجتماعية المعمقة التي من الواجـــب أن

---

(1) ـ أنظر أنجلس : أصل الأسرة والملكية الخاصة و الدولة ،ص : 154.
ـ أنجلس : نفسه ،ص : 171.
(2) ـ أنجلس : أصل الاسرة والملكية الخاصة و الدولة ،ص ص : 137ـ197ـ198
(3) ـ أنجلس : نفسه ،ص ص : 138 ـ 145.

تفصل في الاختلاف والتضارب الذى وقع فيه المؤرخون والنسابة العرب، فموضوع البناء القبلي والعشائرى في هذه الديار يتطلب اتفاقا في الرأى، وهذا غير وارد الا في بعض الحالات. فالتقسيمات المعروفة للبناء القبلي والتسميات المتداولة لمراتبه تبعث على الشك في صدقها ، نظرا للطابع المصطنع الذى يبدو عليها . ولا يخفى أن السند الكافي غير متوفر حتى الآن . (1) ان الاختلاف في صورة البناء القبلي عند العرب يتجلى في تباين وجهات النظر التي سجلت في كتب الانساب والآداب، حيث جعل بعضهم حلقات ذلك النظام ست حلقات (2) ، وبعضهم الآخر أضاف اليها السابعة (3) ، بينما يجعلها آخرون عشر حلقات (4) . ولم يقتصر الاختلاف على عدد المراتب فحسب، بل تباينت آراؤهم أيضا في تسميتها . وكل هذا - بالطبع - يبعث على الاعتقاد بأن تلك المراتب من وضع النسابة العرب في صدر الاسلام، وان كانوا قد ورثوا بعضها عن العهد الجاهلي، وقد يكون ما ورثوه هي التسميات التي وردت في القرآن الكريم (5) . مثل : الشعب والقبيلة ، والعشيرة ، والفصيلة ،

---

(1) - أنظر ريجيس بلاشير : تاريخ الادب العربي (العصر الجاهلي) ، تعريب ابراهيم الكيلاني ، ص: 23/24 . جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج : 1 ، ص: 509 ، ج : 4 ، ص: 318/320 . احسان النص : العصبية القبلية وأثرها في الشعر الاموي ، ص: 60/61 .

(2) - أنظر النويرى : نهاية الارب في فنون الادب ، ج : 2 ، ص: 277/285 . احسان النص : العصبية القبلية وأثرها في الشعر الاموي ، ص: 60 .

(3) - أنظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج : 3 ، ص: 335 . القلقشندى : صبح الاعشى ج : 1 ، ص: 309 . ونهاية الارب في معرفة انساب العرب ، ص: 14 . احسان النص : العصبية القبلية وأثرها في الشعر الاموي ، ص: 60 .

(4) - القلقشندى : صبح الاعشى ، ج : 1 ، ص: 308/309 . ونهاية الارب في معرفة انساب العرب ، ص: 13/14 . احسان النص : العصبية القبلية ، ص: 60 .

(5) - جاء في الذكر الحكيم : ((ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم . ان الله عليم خبير)) (سورة الحجرات ، آية : 13) . وجاء ايضا ((وانذر عشيرتك الاقربين)) (سورة الشعراء ، آية : 214) . وجاء ايضا : ((وفصيلته التي تؤويه)) (سورة

والرهط . لذا فان هذه التسميات ظلت في بلاد الجزيرة العربية والمغرب الاسلامي طوال العصر الوسيط، بل لازال بعضها مستعملا حتى هذا العصر . وقد كانت كل قبيلة من القبائل المتواجدة في ربوع المغرب الاسلامي تشعر بالانتماء الى الاصول التي تنسب نفسها اليها - حتى ولو كان ذلك وهما - وتتصرف بوحي من ذلك الشعور الذى لا ريب فيه . والبناء القبلي في بلاد المغرب لا يختلف عما هو عليه في المشرق . على أنه لا يستبعد حدوث بعض التباين والاختلاف الذى يعود الى حقبة تاريخية سبقت الفتح الاسلامي . وربما استدعى هذا الموضوع دراسة معمقة مستقلة، نظرا لاهميته من جهة، وللغموض الذى يكتنفه من جهة أخرى .

ومع هذا فانه يمكن اجمال القول بأن مراتب البناء القبلي بهذه الربوع ليست واضحة كل الوضوح ،لأن النسابة هنا - على الرغم من كلامهم على القبائل ضمن التقسيمات المعروفة عند العرب - فانهم لم يهتموا كثيرا بالتصنيف الاصطناعي الذى وضعه النسابة في المشرق، كالتقسيم السداسي أو العشرى مثلا (1) . وحتى المؤرخين كابن خلدون - على سبيل المثال - فانه يخلط في المراتب المعروفة . فأحيانا يستعمل مرتبة بطن في محل قبيلة، ومرتبة قبيلة في محل شعب، وجذم في محل قبيلة، وبطن في محل فخذ (2) . وهكذا لا يلتزم بنهج يحدد فيه المراتب، أو يقابلها بأسماء ثابتة، مع ما عرف عنه من دقة في التعبير ، وضبط للمصطلحات . وحسبما يبدو فانه يعتبر تلك الاصطلاحات مترادفات تؤدي الى معنى واحد ، وهو

= المعارج ،آية : 13) . وجاء في قوله تعالى أيضا : ((وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون))،سورة النمل ،آية : 48) .

(1) - أنظر ما بعده .

(2) - إن الامثلة على ذلك كثيرة ويمكن الرجوع اليها في المجلدين : السادس والسابع من كتاب العبر ،من ذلك أن ابن خلدون يعتبر مرتبة الجذم أصغر من مرتبة شعب (مج : 6 ،ص: 177/179) . وفي موضوع آخر يجعل الجذ أعلى من الشعب (مج : 6 ،ص: 176) . ويجعل رياحا في مرتبة قبيلة (مج : 6 ، ص: 81) .

القبيلة . وحتى ابن حزم الذى ألف الكتاب القيم "جمهرة أنساب العرب" فانه لم يتعرض بدوره لتلك المراتب، وكل ما هنالك أنه شرع في سرد أسماء القبائل منطلقا من الجد الاول متدرجا حتى أصغر الابناء في سلسلة الانساب، دون أن يقابل ذلك بمراتب معينة . وصاحب روض القرطاس أيضا خلط في هذا الامر في عدة مواضع، حيث يعتبر لمتونه بمثابة فخذ من صنهاجة، بينما يذكر في السطر نفسه بأن صنهاجة فخذ من حمير (1) ،ثم يضيف قولا آخر يجعل صنهاجة احدى أفخاذ هوارة، وهوارة بدورها عبارة عن فخذ في حمير، وبعدها يقسم صنهاجة الى سبعين قبيلة ثم يقول : ((وفي كل فرقة وقبيلة بطون وأفخاذ وقبائل)) ؛ (2) ... وهكذا في كل قبيلة قبائل . وصاحب الذخيرة السنية بدوره لا يقيد نفسه بترتيب يحدد فيه المراتب، حيث جعل بني مرين فخذا من زناتة (3) . وفي موضع آخر جعلهم في مرتبة قبيلة . (4) وبعدها ذكر أن لبني مرين قبائل (5) . تتفرع عنهم .الامر الذى يبعث على الاعتقاد بأن مرتبتهم أعلى من مرتبة قبيلة .ثم يقول : ((فولد ورتاجن بن مرين جميع شعوب قبائل بني ورتاجن وهم تسع عشرة قبيلة)) (6) .وكذلك الحال بالنسبة ليحي بن خلدون ،فقد خلط هو الآخر في الامر حين تعرض لنسب بني عبد الوادى ، اذ جعلهم أحيانا في مرتبة قبيلة، وأحيانا أخرى في مرتبة فخذ ،ثم ذكر فروعهم على أنها في مرتبة شعب (7) .

غير أن الشيخ مبارك الميلي – في العصر الحديث – حاول ضبط الاصطلاح ، ووضع كل فئة في مرتبتها ،وذلك عندما ذكر بني هلال وسليم (8) ، حيث جعل هلالا في مرتبة شعب، وفروعها :الاثبج ،ورياح ،وزغبة ،وقرة، كل منها في مرتبة قبيلة ،

(1) – أنظر ابن أبي زرع :الانيس المطرب بروض القرطاس ،ص: 75 .
(2) – نفسه .
(3) – مجهول :الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ،ص: 9 .
(4) – نفسه ،ص: 11 .
(5) – نفسه ،ص: 17 .
(6) – نفسه ،ص: 17
(7) – أنظر يحي بن خلدون :بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ،ج : 1 ،ص: 186/190 .
(8) – أنظر الميلي :تاريخ الجزائر في القديم والحديث ،ج : 2 ،ص: 566 .

وفروع الاثبج هي : دريد ، وكرفة ، وعياض ، والضحاك ولطيف والعمور ، والعاصم ، ومقدم ، كل منها في مرتبة عمارة . وفروع رياح بمثابة عمائر أيضا وهي : مرداس، وسعيد وعامر ، وعلى . وكذا الحال بالنسبة لفروع زغبة ، وضعها في مرتبة عمائر أيضا هي : يزيد ، وحصين ومالك وعامر ، وعروة . هذا ولم يذكر الشيخ مبارك اذا ما كان هذا التصنيف اجتهادا منه ، أو استقاه من مصادر معينة . ويبدو أنه وضع ذلك الترتيب قياسا على ما اصطلح عليه العرب من قبل علما بأنه لم ينهج هذا النهج عند تطرقه للقبائل الامازيغية، مبررا ذلك بمراعاته للحياة الامازيغية التي تتميز باستقلال قبائلها عن بعضها (1) . وهذه ملاحظة هامة ، يستفاد منها أن القبائل الامازيغية آنئذ يتعذر عليها الاتحاد ضمن وحدة أعلى من القبيلة ، وربما أقل من مستوى قبيلة ، علما بأن هذه الظاهرة يتميز بها العرب أيضا (2) . حيث عجزت قبائلهم عن التكتل في وحدات أكبر من قبيلة ، وحتى مستوى القبيلة لا يتم الوصول اليه الا في حالات استثنائية وظرفية ثم تنفصم عرى الاتحاد ، حيث يتوزعون الى بطون وأفخاذ متناشرة ومتعادية .

وعلى الرغم من الغموض الذى يكتنف موضوع البناء القبلى فى المغرب الاسلامى فانه يمكن الاستعانة بما جاء فى كتب الأنساب وطبقات القبائل العربية لتقريب الصورة المطلوبة فى المغرب ، خاصة وأن نسابة أمازيغ كثيرون ينسبون قبائلهم الى أصول عربية . وعليه فلا حرج فى الاعتماد على ما ذكره أولائك النسابة تجاوبا واحتراما لاحساسهم وشعورهم بالانتماء للعرب ، ذلك الانتماء الذى يؤمن به عدد كبير من القبائل الامازيغية آنئذ (3) .

---

(1) _ الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ، ج :2، ص: 530 .
(2) _ أنظر جواد علي : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج :4، ص ص : 345/ 348 .
(3) _ أنظر ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، ص: 495 . ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ص: 75/110/119/184/189 ، كاتب مجهول : الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ، ص ص: 9/16 . محمد بن مرزوق التلمسانى المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن ، ص ص: 107/

وجملة القول فان التقسيم القبلي العربي المتداول يكون أما في ست مراتب أو عشر مراتب فأصحاب الرأي الأول يجملونه في البيت التالي :

الشعب ثم قبيلة وعمارة * بطن وفخذ والفصيلة تابعة (1)

(1) ـ الشعب :

وهو أوسع الوحدات الاجتماعية والسياسية وأبعدها في هذا التقسيم، ويقترن لدى النسابة العرب بعدنان أو قحطان . وسمي كذلك لتشعب القبائل منه . وثمة من يرى بأن هذه المرتبة من خصوصيات العجم ، فالشعب من مراتبهم ، بينما القبيلة من مراتب العرب (2) . وقد جاء في القرآن الكريم ذكر الشعوب والقبائل (3). وهذه التسمية استعملها اليونانيون والرومان بلغتهم للدلالة على اتحاد قبائلهم كافة ضمن شعب واحد تقوده حكومة موحدة . وربما توصل العرب ـ في حالات ما ـ الى تجميع قبائلهم ضمن هذه المرتبة ، حين استطاع بعضهم تشكيل حكومات عربية ، وخاصة في جنوب شبه الجزيرة . ويصدق هذا أيضا على بلاد المغرب التي عرفت ـ في فترات ما ـ تجمعات قبلية كبرى ، ولكنها انفرطت وانقسمت الى وحدات صغرى لما انتهت الاسباب الظرفية للاتحاد (4) . هذا وقد تخيل الشيخ مبارك الميلي أحياء بني هلال الزاحفين الى بلاد المغرب في مرتبة شعب (5).

(2) ـ القبيلة :

هي عبارة عن تجمع واتحاد لوحدات اجتماعية أقل منها حجما ، يمكن أن تكون :

---

* 109 . عبد الرحمن بن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 177ـ180ـ182 / 192 . مج : 7 ، ص : 9/6 . يحي بن خلدون : بغية الرواد ، ج : 1 ، ص : 178/181 . التنسي : الدر والعقيان ، ص : 152/153 .

(1) ـ أنظر الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، ج : 2 ، ص : 566 .

(2) ـ أنظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج : 3 ، ص : 335 .

(3) ـ أنظر ما قبله .

(4) ـ مثل الاتحاد القبلي الذي جمع قبائل زناتة خلف ميسرة المطغري ، والاتحاد الذي قاده ابو قرة ، والاتحاد الذي سار خلف أبي يزيد ... الخ .

(5) ـ أنظر ما قبلـــه .

عمائر ، أو أفخاذا ، أو عشائر ، أو فصائل ، أو أرهاطا . والقبيلة بدورها تنتمي الى حلقة أعلى منها وأشمل ، قد تسمى الشعب كما ورد ذلك في القرآن (1). ويعتقد بعض النسابة بأن تسمية قبيلة جاءت تعبيرا عن تقابل الانساب .

وقد تكون القبيلة هي الوحدة الاجتماعية والسياسية الكبرى في المغرب - مع الاستثناءات الظرفية - وذلك في حالة تمكن البطون أو العمائر من السمو الى ما هو أعلى في المسيرة الاتحادية . وقد يحدث هذا في فترات زمنية قصيرة أيضا ، وعند ظهور تهديدات ، و أخطار تعجز عن صدها الاتحادات الصغرى (2) .

وقد يحدث أيضا أن تتحد مجموعة من القبائل خلف رجل عظيم لفترة ما ، ثم ينفصم ذلك الاتحاد . وقد يدوم وقتا طويلا اذا ما تحول الاتحاد الى دولة قوية . وهذا ما حدث عند قيام دولة الموحدين ، ومن قبلها دولة المرابطين ، ودولة الفاطميين . ولتجسيم الصورة يمكن التسليم بما تخيله الشيخ مبارك الميلي حين وضع الأحياء التي تفرعت عن شعب هلال في مرتبة قبائل : مثل : الأثبج ، ورياح ، وزغبة ، وقرة ، وجشم ، والخلط، وسفيان، والمعقل (3) .

(3) - العمارة :

وهي الطبقة الثالثة في التقسيم السداسي . وتنشأ هذه الوحدة الاجتماعية بانقسام القبيلة الى عمائر ، تبعا للتكاثر الذي يحدث ، وللتشعب الكثيف في الوحدات الصغرى ، وذلك عندما يتكاثف أعضاء الوحدة نفسها ، فتتفرع عنها وبجوارها وحدة شقيقة مماثلة لها . ويقرن النسابة العرب هذه المرتبة بقريش ، أو بكنانة . فكليهما في مرتبة عمارة . أما في المغرب فانه يمكن اعتبار أحياء : دريد ، والضحاك ، والعاصم ، والعمور على سبيل المثال في مرتبة عمارة .

---

(1) - أنظر ما قبله .
(2) - أنظر عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ، ج 1 ، ص : 281 .
(3) - أنظر تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، ج 2 ، ص : 566 .

(4) ــ البطــن :

وهي الطبقة الرابعة ، وتأتي نتيجة الانقسام الذي يحدث في الوحدة الأعلى (العمارة) ، أو للتشعب الناتج عن التزاحم الحاصل في الوحدة ذاتها (أي البطن) . ومرتبة بطن يقرنها النسابة العرب ببني عبد مناف ، وبني مخزوم . ويبدو أن هـذه المرتبة شائعة جدا لدى مؤرخي المغرب الاسلامي ، وقد تكون هي الشكل النهائـي الذي تتوصل اليه الجماعات البدوية في مسعاها الاتحادي ، وذلك بسبب صعوبـة الوصول الى اتحاد تتشكل منه مرتبة القبيلة . واذا حدث هذا فلا يكون الا في حالات خاصة ميعشها الاحساس بالخطر في الغالب . وما أن يزول الدافع حتى تعود حليمة لعادتها القديمة ، فتتفكك عرى الاتحاد ، ويعيش أعضاء القبائل ضمن وحدات صغرى ، قد تكون كبراها " البطن " وربما في وحدة صغرى هي " الفخذ " وبالطبع فان مـن خاصيات العقلية القبلية اللجوء الى الانفراد والتجزئـة ، نظرا لما تمليه العصبيـة التي تدفع أعضاء القبيلة الى الارتباط بمن هو أقرب نسبا اليهم ، وكلما بعد النسـب بعدت معه روابط التلاحم والعصبية ، فالمصلحة المشتركة تكون دوافعها أقـوى في التجمعات الصغرى . ويعبر عن ذلك القول الشعبي : ((مع أخي على ابن عمي ، ومع ابن عمي على الغريب)) .

وجملة القول ــ بخصوص المغرب الاسلامي ــ أن التمييز بين مرتبة القبيلـة ومرتبة البطن أمر صعب في هذه الديار ، لأن المتتبع لكتابات المؤرخين والنسابـة ، لا يجد ذلك التقسيم الاصطناعي الموضوع من قبل النسابة العرب ، بل يلاحظ اختـلاط في المصطلحات . وحتى ابن خلدون نفسه لم يلتزم بمصطلح معين . من ذلك أنه قـد اعتبر ــ عند تقسيمه للامازيغ ، الفروع التي خرجت عن جذمي : البرانس والبتر بمثابـة بطون ، متجاوزا بذلك مراتب : شعب ، وقبيلة ، وعمارة (1) .

(5) ــ الفخــذ :

وهو الطبقة الخامسة ، وتنشأ من جراء انقسام البطن الى افخاذ ، أو تشعب الوحدة ذاتها فتتولد عنها وحدة مماثلة لها . ويقرن النسابة العرب هـــــذه ،

---

(1) ــ العبر ، مج : 6 ، ص : 177/181 . أنظر ما قبله .

المرتبة ببنى هاشم أو ببنى أمية . والفخذ هو شكل من أشكال التنظيم القبلي ، ويكون وحدة اجتماعية أعلى من العشيرة ، لأنه يجمع عدة عشائر متقاربة ومتجاورة في المسكن (والعشيرة ليست واردة في التقسيم السداسي) . كما يؤمن أعضاء الفخذ الواحد بوجود جد مشترك بينهم . هذا ويتمتع الفخذ بوظائف اجتماعية، وربما سياسية ، تسند تلك الوظائف الى رئيسه (شيخه) الذى يمثل الفخذ في المستوى الأعلى (كالبطن أو القبيلة) . ويتم اختيار الرئيس طبقا لما يتمتع به من صفات اخلاقية ، وما لديه من ثروة وعصبية . وهذه المرتبة ليست واضحة كل الوضوح في كتابات المؤرخين والنسابة المغاربة .

(6) ـ الفصيلة :

وهي الحلقة السادسة والأخيرة في هذا التقسيم . أما التقسيم العشرى فتحتل الفصيلة فيه المرتبة التاسعة . ويعتبر التلاحم بين أعضاء الفصيلة أشد وأمتن من التلاحم الحاصل في مراتب أعلى لقرب اللحمة بينهم . وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم (1) .

أما الذين يجعلون البناء القبلي في عشر مراتب ،فيضيفون الى ما جاء سابقا مراتب أخرى ، اعلاها :

(1) ـ الجذم :

وهو أول الطبقات وأقصاها . ومعناه لغة القطع ، أى قطع كل بحث في تسلسل الآباء واسمائهم لتعذر الأمر بعد مرتبة الجذم . ويمكن اعتبار مادغيس الابتر في مرتبة جذم ،وكذلك برنس في المرتبة نفسها (2) .

---

(1) ـ أنظر ما قبله .

(2) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6، ص : 176.

(2) ـ الجمهــــور :

ويسمى أيضا التجمهر بمعنى الاجتماع والكثرة . وتأتي هذه المرتبـــة كطبقة ثانية تلي الجذم في التقسيم العشري . وقد نشأت بعد انقسام الجـذم الى جماهير عديدة ، أو ترفع الشعب بعد أزدحامه فنشأت عنه وحدة مماثلة له . ولم يستعمل المؤرخون هذا التعبير في المغرب الاسلامي آلا في سياق مجازي ، دون أن يقصدوا مصطلحا معينا .

(3) ـ العشيـرة :

وهي الطبقة الثامنة لدى أصحاب التقسيم العشري . وتنشأ بانقســام الفخذ الى عشائر ، أو بعد تشعب العشيرة وتكاثفها فتنشأ عشيرة أخرى الـى جانبها . وقد اشتق اسمها من المعاشرة ، أي المخالطة . وهي من المراتـب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم (1) . هذا وقد تعرضت هذه المرتبة فـي البناء القبلي لابحاث كثيرة من قبل علماء الاجتماع . وقد أدى هذا الى شيـوع ذكرها وذيوع امرها في مجتمعات انسانية متنوعة ، منها ما هو قائم الى حد الآن .

ومجمل القول أن العشيرة عبارة عن قبيلة مصغرة ، واللحمة فيها أقرب وأمتن ، ولها وظائف اجتماعية ، وربما سياسية ، ويدير شؤونها شيخ ، يتميز بمميـزات أخلاقية بارزة ، ويتمتع بعصبية قوية ، يستمد منها نفوذه المعنوي . وعليه يمكـن القول بأن العشيرة هي فئة صغيرة من الاقرباء ، مشكلة من أسر عديدة ، يعتقـد اعضاؤها في انتمائهم الى أصل واحد (جد أو جدة) ، أو الى موطن مشتـرك ، ويعيشون ضمن أرض مشتركة في احياء متقاربة ومتجاورة ، وتجمعهم روابط اجتماعية ، واقتصادية ، وثقافية موحدة .

---

(1) ـ أنظر ما قبلـه .

ويحدد النسابة العرب نطاق العشيرة بالجد الرابع حيث قالوا : ((هم الذين يتعاقلون الى أربعة آباء .)) (1) . أما الباحثون المحدثون في المجتمعات الانسانية ككل فقد اهتموا بموضوع العشائرية ، وانتهوا الى تصنيف العشائر ، فاتضح لهم بأن المجتمعات البشرية عرفت ثلاثة أنواع هامة من العشائر هي :

أ ـ العشيرة الطوطمية : (2) .

وتتميز بوحدة الطوطم الذي يعتقد أفراد العشيرة بأنهم ينتمون اليه روحيا . والطوطم يكون أما حيوانا أو نباتا معينا . وما زال هذا المعتقد سائدا حتى الآن في بعض الجهات من المعمورة ، كالامازون . واسطراليا وافريقيا السوداء .

ب ـ العشيرة الطوطمية الاقليمية :

وتتميز هذه العشيرة بوحدة الطوطم ، ووحدة الاقليم معا اذ يعتقد اعضاؤها بأنهم ينتمون الى طوطم مشترك واقليم واحد . وبذلك تكون الرابطة هنا طوطمية واقليمية .

جـ ـ العشيرة الاقليمية :

وتتميز هذه العشيرة برابطة الاقليم الواحد الذي يجمع أعضاءها. ويرى الباحثون بأن هذا النوع يغلب على الفئات التي تركت البداوة واختارت الاستقرار في القرى ، حيث يتعاطون مهنة الفلاحة . ويبدو أن العشيرة الاقليمية هي السائدة في البلاد العربية وفي المغرب .

---

(1) ـ أنظر النويري : نهاية الأرب في فنون الادب ، ج : 2 ، ص : 161 . محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية ، ص : 91 .

(2) ـ للتوسع يستحسن الرجوع الى كتاب محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والامم السامية ، ص : 91/143 ، وكتاب =

وتجدر الاشارة هنا الى أن العشيرة العربية والامازيغية لم يثبت بعد أن كانت قد عرفت الطوطمية في يوم من الايام . ومع هذا فثمة من يقول بذلك . أمـــا هذا البحث فسيتجنب موضوع الطوطمية ، لانه لاداعي له في هذا المجال . وعليه سيقتصر البحث على المفهوم الشائع لدى النسابة المسلمين . ويمكن حصر ذلك فـي صنف العشيرة الاقليمية ذات الروابط الدموية .

وفي المغرب الاسلامي يستعمل المؤرخون عبارة " عشيرة " بصـــورة مجازية للدلالة على حي من أحياء القبيلة . وهذا ما جرت عليه العادة لـــدى المشارقة أيضا . وعليه فلا علاقة بين شكل العشيرة المغربية وشكل العشيرة فـــي المجتمعات البدائية ذات الطابع الطوطمي . ويصدق هذا الحكم – على الاقـل – خلال الفترة الزمنية المخصصة لهذا البحث . والنظام العشائري في المغرب يسود الارياف ، والصحارى (1) . ففي الارياف تمركز هذا النظام بالقرى واطرافها ، حيث تشتمل كل قرية على وحدات اجتماعية معينة يمكن تسميتها بالعشائر (2) . وهـــذه الوحدات تأتي في المرتبة الثانية بعد مرتبة العائلة (أي الرهط) نحو الاعلـى . وربما يكون هذا النظام قد نشأ في حقبة تاريخية بعيدة من تاريخ المغرب ، وربمـا فرضته سنة التطور التي طرأت على شكل العائلة ، حيث وجدت العائلة نفسها فـي حاجة ماسة لحماية املاكها و منتوجاتها الحيوانية و الزراعية ، فاضطرت الى الاتحاد مع عائلات أخرى تجمعها بها صلة القرابة ، مكونة بذلك وحدة اجتماعية وسياسيـة تدعى عشيرة . ومع الوقت اجتمعت العشائر ضمن اتحادات أعلى ذات طابع قـــروي فتشكلت من جراء ذلك ما يعرف بالجمهوريات القروية الصغيرة (3) . ذات الطابـع القبلي . وكان يحكم تلك القرى مجلس لشيوخ العشائر طبقا لعرف خاص . وفي حال الحرب تسلم السلطات لقائد عسكري واحد . وقد يتطلع ذلك القائد الى تأسيـس

= صالح مصطفى القوال : علم الاجتماع البدوي ، ص : 200/206 – 269/ 273 .

(1) – أنظر عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1 ، ص : 208 .

(2) – أنظر ابن منصور : نفسه ، ج : 1 ، ص : 281 .

(3) – أنظر شارل اندرى جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج : 1 ، ص : 81 .

4)

دولة ، منتهزا الفرص التي تقدمها الحروب ، حين تتوحد عشائر وقبائل عديدة ضمن اتحاد قوى .

أما المناطق الصحراوية فقد لجأت العائلة فيها الى الاتحاد مع غيرها من ذوى القربى بقصد التعاون على العيش والكسب والحرب ، فنشأت بذلك العشائر ، ثم الافخاذ ، ثم البطون ، فالقبائل ... الخ . وتجدر الاشارة الى أن العشيرة الصحراوية أقل انضباطا ونظاما من العشيرة القروية .

(4) - الرهط :

بمعنى الاسرة ، ويزعم بعضهم بانها اقل من الاسرة حيث يقولون ((الرهط دون العشرة ، والاسرة أكثر من ذلك)) (1) . طبقا لما جاء في القرآن الكريم : ((وكان في المدينة تسعة رهط)) (2) والاسرة في بلاد المغرب تعرف باسم ((العائلة)) . ومفهوم العائلة في الحقيقة يختلف عما هو شائع حديثا . لان الاسرة تنشأ - حسب المصطلح الحديث - من الزواج بين اثنين ، يضاف اليهما ابناؤهما . أما العائلة في بلاد المغرب فقد استمدت صفاتها من مصدرين رئيسيين : أولهما المجتمع الامازيغي القديم ، وثانيهما المجتمع العربي . وكل منهما يعرف شكلا واحدا من أشكال الأسرة ، مع بعض الاختلافات البسيطة . وهذا الشكل هو المعروف بالاسرة الابوية ، أو الاسرة الممتدة ، أو المركبة ، أو المشتركة ، أو الجامعة البيتية (3) . وتقوم الاسرة هنا على بعض المقومات الاجتماعية

(1) - النويرى : نهاية الارب في فنون الادب ، ج : 2 ، ص: 285 .

(2) - سورة النمل ، آية : 48 .

(3) - أنظر انجلس : أصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة ، ص ص: 88/94 . صلاح مصطفى الفوال : علم الاجتماع البدوى ، ص ص: 186/193 .

والاقتصادية ، أهمها :

- تمركز السلطة المطلقة في شخص الاب ، أو اكبر اعضاء الاسرة سنا ، و يتولى هذا الأخير صلاحياته بعد ممات الأب الأكبر (1) .

- اباحة تعدد الزوجات ، بقصد اكثار النسل ، وتوفير اليد العاملة داخل الأسرة .

- اشتمال الاسرة على عدد من العبيد وأزواجهم وأولادهم أيضا ، فتنشأ من جراء ذلك كتلة بشرية تتصدى للمهام الاقتصادية والاجتماعية : كرعي المواشي ، وحرث الحقول وزرعها ، وانجاب الاطفال والعناية بهم ، واعداد الطعام ... الخ. وعليه فاختلاف هذا الشكل من أشكال الأسرة اقتضى اضفاء تسمية عليه تميزه ، وربما صحت تسميه ((عائلة)) . كما هو معروف الآن في هذه الديار . وهذا النوع من أنواع الاسرة كان معروفا أيضا في مجتمعات أخرى : سامية وارية ، منها المجتمعات : الرومانية والسلافية ، والجرمانية والهندية . ومن مميزات هذا الشكل أن أعضاءه يشتركون في العمل جماعيا ، كما يشتركون في اللباس والمأكل . والملكية عندهم جماعية ، الا في حدود معينة . وقد تختلف احيانا صلاحيات الاسرة حسب اختلاف المجتمعات ، وتباين العقليات ، وثمة من أضاف مرتبة أخرى تدعى ((الجيل)) ورتبوها بين الفصيلة والفخذ ، أي في موضع العشيرة (2) . كما أضاف غيرهم حلقات أخرى : كالاسرة ، والعترة والذرية . ثم اضافوا : البيت ، والحي ، والجماعة (3) . كل ذلك تفنن واختراع .

(1) - أنظر جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية : ج : 1، ص: 81/80 . ولدى الشعوب السلافية ينتخب مسؤول الاسرة ، ولايشترط فيه كبر السن (انجلس: أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة ، ص:90) .

(2) - أنظر جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج : 1، ص: 509 .

(3) - أنظر جواد علي : نفسه ، ج : 1، ص : 510 .

ونظرا للتباين، ومنعا للالتباس فقد أجاز العرب لانفسهم اطلاق تسمية واحدة تعبر عن المراتب كافة ، وهي ((الحي)) فيقولون عند التعميم : ((حي من العرب)) ، وعند التخصيص يقولون : ((حي من بني فلان)) (1) . كما أن الشائع لديهم هي مرتبتان فقط : القبيلة ثم البطن (2) . وفي الوقت الحاضر أصبحت مرتبتا : القبيلة ،والعشيرة تعنيان شيئا واحدا ،بغض النظر عن الحجم والوظيفة . ويرى جواد علي بأن اسم "قبيلة" هو الشائع لدى البدو ،من العرب ، حيث يستعملون هذه التسمية بشكل واسع دلالة على الوحدات الاجتماعية الكبرى (3) . ويرى أيضا بأن عرب الجنوب في القديم لم يستعملوا اسم قبيلة ،حيث ثبت له من خلال دراسة الاثار المكتشفة بانهم كانوا يسمون تلك الوحدة الاجتماعية ((شعبسم)) ،أو((شعبن)) بمعنى : الشعب. وحتى الحلقات الاجتماعية الصغرى فلم يثبت لها وجود في الاثار . بل ثبت بانهم كانوا يقسمون الشعب الى أجزاء يسمونها ((ربعن)) أي الربع أو ((ثلثن)) بمعنى الثلث (4) .

و يستحسن - في هذا المجال - الاشارة الى بعض الملامح التي وردت في كتاب العبر عن مرتبة جذم ومرتبة شعب . وذلك أن ابن خلدون اعتبر كلا من برنس، ومادغيس الابتر في مرتبة جذم (5) . ثم قسم جذم برنس

(1) - القلقشندي : صبح الاعشى ،ج : 1 ،ص: 309 . ونهاية الارب في معرفة انساب العرب ،ص: 14 .

(2) - أنظر القلقشندي : نفسه ،ج : 1 ،ص : 309 .

(3) - أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ،ج : 1 ،ص: 511.

(4) - أنظر جواد علي : نفسه ،ج : 1 ،ص : 513 .

(5) - أنظر العبر ،ج : 6 ،ص : 176 .

الى عدد من الشعوب هي : ازداجة ، ومصمودة ، وأوربة، وعجيسة ، وكتامة ، وصنهاجة واوريغة ، ولمطة ، وهسكورة ، وكزولة. (جزولة) .

أما جذم البتر فقد قسمه ايضا الى أربعة شعوب هي : اداسة،ونفوسة، وضريسة ، وبنولوا الاكبر ، وهنا يتضح بأن البناء القبلي في المغرب يمكن أن يشمل مرتبتي : جذم ، وشعب ، غير أنه لوحظ بعض الاضطراب في حديث ابن خلدون ، لانه خلط في الترتيب بعد ذلك ، بحيث يزعم أن شعوب البرانس تنقسم الى أجذام ، في الوقت الذى يعتبر فيه برنس نفسه جذما (1) . فكيف - اذن - تصير فروعه اجذاما أيضا ؟ ثم كرر ابن خلدون التناقض نفسه مع البتر (2) . وبعدها أضحى يسمي الفروع التي خرجت عن الشعوب بطونا دون اعطاء أي اعتبار للتدرج المنطقي .

كل هذا التعارض والاضطراب يقود الباحث الى الاكتفاء بعبارة " قبيلة " قصد التعبير - مجازا - عن تلك الاشكال كلها . وأن كان في بعض الحالات يعبر عنها بـ "عشيرة " ، فيطلق على النظام القبلي اسم النظام العشائرى . لان هذا هو الشائع والثابت لدى الجميع .

جـ - الرئاسة في القبيلة :

يشتمل كل نظام قبلي على شكل ما واسلوب معين من اساليب واشكال الحكم . وتتميز جميعها - مع اختلاف صورها - بالبساطة والسذاجة ، وفي الغالب تنشأ في النظام القبلي مجالس متفاوتة في الترتيب والصلاحيات، حسب وحدات النظام ، من الصغرى الى الكبرى . أى من مجلس العشيرة ، الى مجلس الفخذ ، فمجلس القبيلة وهكذا . ويضم كل مجلس من تلك المجالس عددا من شيوخ واعيان الوحدة المعينة ، وعلى رأس كل مجلس رئيس ينتخب

(1) - أنظر ابن خلدون : نفسه ، ج : 6 ، ص : 176 . أنظر ما قبله .

(2) - العبر ، ج : 6 ، ص: 179 . انظر ماقبله .

أو يعين ليرعى شؤون عشيرته أوقبيلته . ويسند منصب السيادة في القبيلة الى رئيس عام يكون من وجهاء القبيلة . ويتم ذلك اما بواسطة الانتخاب أو بالتعيين ، تبعا لسنة الوراثة . والى جانب الرئيس يتشكل مجلس للقبيلة ، يضم شيوخ الوحدات الصغرى كالعشيرة ، والفخذ ، والبطن ... الخ .

هذه صورة عامة لما يمكن أن يكون عليه شكل الحكم في النظم القبلية كافة ، غير أنه يختلف في بعض جوانبه من مجتمع الى آخر . فلدى الآثينيين مثلا يتلخص شكل المؤسسات الحاكمة في القبائل كما يلي (١) .

أولـها : يرأس كل عشيرة يدعى أرخون (Archente) ، ويتولى مهامه بعد انتخاب يقوم به أفراد العشيرة . ومن هؤلاء الشيوخ يتألف ما يسمى بالمجلس التمثيلي (Boulé) ، وهو مجلس شيوخ العشائر . وقد تحول هذا المجلس فيما بعد (عند نشأة الدولة) الى مجلس للشيوخ ، (Senate) .

وثانيهما : المجمع الشعبي ويسمى الاغورا (Agora) ، وهو عبارة عن مجلس شعبي عام ، يفصل في القضايا الكبرى بدعوة من قبل أعضاء المجلس التمثيلي (Boulé) .

وثالثهما : البازيلوس (Basileus) ، وهي أعلى الدرجات في الحكم القبلي الآثيني ، وترأس هذه المرتبة اتحاد القبائل كافة ، وصاحبها هو القائد العسكري للقبائل الآثينية ، وله صلاحيات أخرى ذات طابع قضائي ، وكهنوتي . ولايعرف ان كانت هذه المرتبة تخضع للانتخاب ، أم يعين صاحبها عن طريق الوراثة . وهذا النظام القبلي في اثينا تطور - بالطبع - بانتهاء العصر البطولي ، وظهور الدولة في ذلك

(١) - أنظر فريدريك انجلس : أصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة ، ص ص : 178/154 . أنظر أيضا كتاب ارسطو الذي ترجمه طه حسين عن الفرنسية تحت عنوان نظام الاثينيين ، كما ترجمه الاب أوغسطينس بربارة عن اليونانية تحت عنوان دستور الآثينيين .

المجتمع . أما المجتمع القبلي الروماني (1) . فان النظام السياسي فيـــه يبنى على ثلاث مراتب ، كما هو الحال عند الآثينيين .

الاولى : وهي المرتبة الصغرى ويمثلها مجلس الشيوخ الـــذى يتشكل من شيوخ العشائر ، وهم أكبر الناس سنا ضمن عشائرهم الثلاثمائـة . وهذا المجلس يقابل المجلس التمثيلي (Boulé) بأثينا .

الثانيـة : هي مرتبة مجمع الكوريات (الاحياء) (Jomitia Curiate). وهذا المجمع يضم ثلاثين كورية تمثل المجتمع الروماني . وتتمتع كل كوريـة بصوت واحد داخل مجلس الاحياء . ويقابل هذا المجمع الآغورا في آثينـا .

الثالثـة : مرتبة الملك (Rex). وتقابل مرتبة البازيليوس في اثينـا أيضا. ومهام الملك تنحصر في دوره القيادى،ذى الطابع العسكرى،بالاضافـة الى الصلاحيات القضائية والكهنوتية . هذا ويقوم أعضاء مجمع الكوريـات بانتخاب أحدهم لمنصب الملك .

ولدى الهنود الحمر (2) تتحدد صورة الحكم ضمن أربع مراتـب:

الاولـى :مجلس العشيرة ، ويشارك فيه أفراد العشيرة بكاملهـم سواء كانوا نساء أم رجالا ، ولايستثنى من ذلك الا الاطفال غير الراشدين ، ويقوم هذا المجلس بانتخاب رئيسين : أحدهما لاوقات السلم ويدعـى الساشام ، أما الآخر فمهامه تبرز في أوقات الحرب ،ولايشترط في هـذه المرتبة أن يكون صاحبها من العشيرة ذاتها ، كما أنها لا تكون مشغولـة بصورة دائمة كما هو الحال في مرتبة الساشـام .

الثانيـة : مجلس القبيلة ، ويشترك فيه شيوخ العشائر ولهذا المجلس سلطات أدبية اسمى من سلطات مجلس العشيرة . فمن صلاحياته عزل أى شيخ من مشائخ العشائر حتى ولوكان ذلك بدون رغبة أعضاء عشيرته . وتعقـد

---

(1) ـ أنظر فريد ريك انجلس : أصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة، ص ص : 204/187 .

(2) ـ أنظر انجلس: نفسه ، ص ص: 153/130 .

جلسات هذا المجلس بصورة علنية ، ويسمح خلالها لاعضاء العشائر العاديين بابداء آرائهم ، ويبقى القرار بعد ذلك من صلاحيات المجلس، وهذا المجلس هوالذى يعلن الحرب أو السلم ، ويترأس المجلس شيخ ، له سلطات أدبية لا غير .

الثالثة : مجلس الاخوة ، ويشمل هذا المجلس شيوخ القبائل التي تنتمي الى تلك الاخوة ، وهو اسمى مرتبة من مجلس القبيلة . وصلاحياته أوسع وأشمل ، حيث يفصل في القضايا التي تستدعي التدخل تجاه أخوة أخرى أو تجاه اتحاد القبائل .

الرابعة : مجلس اتحاد القبائل ، وهو أعلى المراتب والاشكال في المنظومة الاجتماعية الهندية ، وهذا الشكل ليس معمما لدى الهنود جميعهم ، لأن الاغلبية في تلك الاوساط تتوقف منظومتها عند القبيلة . ومجلس اتحاد القبائل هذا يعتبر بمثابة السلطة العليا للقبائل المتحدة كلها . حيث يتصدى للشؤون الهامة . وتتم مداولة هذا المجلس بصورة علنية ، ويسمح لافراد القبائل والعشائر المنتمية للاتحاد أن يدلوا برأيهم أمام المجلس الذى يبقى القرار من صلاحياته . وليس لهذا المجلس رئيس فحسب ، بل يشترك في تسيير شؤونه رئيسان عسكريان ، يتمتعان بصلاحيات متساوية .

واذا كان النظام القبلي في المجتمعات الانسانية كلها قد حظي ببعض الاهتمام من قبل علماء الاجتماع ، الذين خصصوا لبعض التجمعات البشرية أبحاثا ميدانية ونظرية في غاية الاهمية فان هذا النظام في المجتمعات الاسلامية مازال في حاجة لدراسات معمقة كافية وكفيلة بكشف خفايا النظام القبلي في هذه الاوساط ،كما أن أخذ العينات من الشكل الحالي للنظم القبلية لا يكفي ، ولايمكن اعتباره حقيقة ثابتة ومطابقة لما كانت عليه نظم القبائل في العصر الوسيط أو القديم . ومع هذا فانه

يجوز أن تكون القبائل الحالية قد ورثت بعض التقاليد والاشكال التي ترجع الى حقبة بعيدة في التاريخ .

وجملة القول فانه من الثابت أن الوحدات القبلية في المجتمع العربي والامازيغي كانت تتمتع بشكل ما من أشكال الحكم ، تختلف طبيعته باختلاف المكان والزمان والمؤثرات الاخرى . ومن الثابت أيضا أن الطابع الديمقراطي (1) كان يسود المجتمع القبلي العربي والامازيغي - وان بدا في بعض الاحيان على غير ذلك - نظرا لاقرار قدماء العرب وقدماء الامازيغ مبدأ الطبقات وتفاوتها بين الناس في المنازل والشرف، ونظرا لاقتصار الرئاسة على فئة معينة تنتمي الى طبقة خاصة (2) ذات نفوذ مادى ومعنوى . وهي طبقة السادة والاشراف . هذا بالاضافة الى الكيفية التي يتولى بها رئيس القبيلة أو العشيرة منصبه الجديد بعد ممات الاول . حيث يتم ذلك - في غالب الاحيان - بفضل حق الوراثة (3) .

واذا كانت الممالك العربية ومدنها في العهد الجاهلي - وهي ممالك ذات طابع قبلي - تحظى بمجالس للشورى (4) الى جانب الملوك والاقيال فان أمر تلك المجالس في القبائل البدوية يحتاج الى كثير من البحث لمعرفة صحة وجودها ، والكيفية التي تعمل بها . وعلى الرغم

---

(1) - أنظر ريجيس بلاشير : تاريخ الادب العربي (العصر الجاهلي) ، ص: 35. فيليب حتى : تاريخ العرب (مطول) : ج :1، ص : 36 .

(2) - أنظر جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج : 4 ، ص: 573/541 . احسان النص : العصبية القبلية وأثرها في الشعر الاموي ، ص: 73/63 .

(3) - أنظر جواد علي : نفسه ، ج : 4 ، ص: 350/349 . احسان النص: نفسه ، ص: 74/73 . جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج : 1 ، ص: 81 .

(4) - أنظر ريجيس بلاشير : تاريخ الادب العربي ، ص: 36/35 . فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ج :1 ، ص: 36 . جواد علي : المفصل في تاريخ العرب ، ج : 5 ، ص: 236/226/215/213 .

مما ذكره جواد علي في كتابه (المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام) (1) عن وجود تلك المجالس في القبائل العربية ، مستندا في ذلك على ما تم كشفه بخصوص مجلس يدعى "عهرو" (ع.هـ.ر.و) باللهجة القتبانيـــة (2) الا أن هذا لا يكفـي للحكم بوجـودها في القبائل العربية كافـــة. كما أنه لا يمكن نكران وجودها وذلك بغرض المزيد من البحـــــث . أما المجتمع الامازيغي فالثابت فيه أنه كان يعرف مجالس قروية وقبليـــة تدعى ((الجماعة)) . (3) .

والذى لا شك فيه في نظم القبائل العربية والامازيغية هو منصـــب الرئيس (الشيخ) أو (الامغار) . (4) فالمصادر التاريخية والادبية كافـة تتفق على تواجد هذه المرتبة ضمن القبائل العربية والامازيغية منذ أقـدم العصور، بل اسهبت المصادر العربية في وصف مزايا صاحب هذا المنصب ، وشرح الصفات التي من الواجب أن يتحلى بها الرؤساء ، وتمجيد أعمالهم والتغني بمناقبهم .

وفي حالة التسليم بوجود مجالس للحكم في كل قبيلة وعشـــيرة، يكون من الثابت أيضا أن الحكم الحقيقي ضمنها مسند الى الرئيس الـــذى

---

(1) ـ ج : 5، ص: 238 .

(2) ـ نسبة الى مملكة قتبان باليمن الجنوبية . كانت قائمة حوالي 312ق.م. أنظر التفاصيل عن هذه المملكة في كتاب جواد علي : المفصل فـي تاريخ العرب قبل الاسلام، ج : 2، ص: 240/271 . وكتاب السيـــد : عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية، ص: 128/125 .

(3) ـ جوليـان : تاريخ افريقيا الشمالية، ج : 1، ص: 81 . ابن منصـــور : قبائل المغرب، ج : 1، ص: 281 .

(4) ـ ابن منصور : قبائل المغرب، ج : 1، ص: 281 .

يباشر مهامه معتمدا على رأى المجلس الذى يتألف -على مايبدو- من وجوه القبيلة أو أعيانها . وربما انحصرت صلاحيات مجلس القبيلة في القضايا الهامة : مثل اعلان الحرب أو اللجوء الى السلم ،أو التشاور فيما يجب عمله عند اصابة المراعي بالجدب والجفاف ... الخ . ويشترط في رئيس القبيلة أن يكون من أسرة ذات نسب وحسب ، ويكون من طبقة السادة والاعيان، ويتحلى بسجايا سمحة ، وخصال حميدة ،وخلال طيبة ، وشيم كريمة (1) . وقد حصر بعضهم الشروط الخلقية الواجب توافرها في رئيس القبيلة ضمن ست خصال هي : ((السخاء ،والنجدة ،والصبر ، والحلم ،والتواضع ، والبيان)) (2) . وقال آخرون (3) بصفات مرتبطة بالمهام التي سيتحملها الرئيس ، ومنها : سداد الرأى ، ورجاحة العقل ، والحلم ، ووفرة المال مع السخاء والجود (4) ، والشجاعة ، والصبر على المكاره ، والفصاحة . وقد أجمل حسان بن ثابت الصفات المطلوبة في الرئيس ضمن

---

(1) - جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج :4 ،ص: 349/ 352-569 . احسان النص : العصبية القبلية واثرها في الشعر الاموى: ص : 79/70 .

(2) - جواد علي :نفسه ،ج :4 ، ص: 350 .

(3) - احسان النص : المرجع السابق ، ص : 77/75 .

(4) - لا توصل الثروة صاحبها الى منصب الرئاسة الا اذا كان جوادا سخيا ،كما عبر عن ذلك شاعرهم : (طويل) .

اذا المرء أثرى ثم قال لقومه   أنا السيد المفضى اليه المعظم
ولم يعطهم خيرا ابوا أن يسودهم   وهان عليهم رغمه وهو أظلم

(الجاحظ : الحيوان : ج : 3 ، ص: 83 . ابن قتيبة : عيون الاخبار ،ج : 1 ،ص : 248) .

الابيات التاليـــة (1) : (طويل) .

وإنا لقوم ما نســوّد غادراً * ولا ناكلا عند الحَمالة (2) زُمَّـــلا (3)
ولامانعاً للمال فيما يَنوبُه * ولاعاجزاً في الحــرب جبسا (4) مُفَغفــلا
نسوّد منّا كل أشيبَ بارعٍ * أغرتراه بالجـَـلال مُكلَّــــــــــــلا

ومع هذا فالرئاسة لا تأتي طائعة مستسلمة للذى تتوفر فيه هــــذه الصفات كما يعتقد بشامة بن الفدير الذى قال (5) (طويل)

وجدت أبي فيهم وجدّي كليهما * يُطاع ويُؤتى أمره وهو محتَبِـــــــي
فلم أتمحّل للسيادة فيهــــــم * ولكن أتتني طائعاً غيرَ مُتعَـــبِ

بل لا بد لتحقيق الرئاسة من شروط أخرى يمكن اجمالها فـــــــي العصبية الجياشة . وهي ضرورية لكل طامع في مرتبة السيادة في القبائــل العربية والامازيغيـــة .

حقيقة فقد أشارت المصادر الادبية والتاريخية الى تولي رئاســـــة القبيلة عن طريق الوراثة ،الا أن شرط الوراثة هذا قد يجتمع في اثنــين أو أكثر . وهنا يبرز عامل آخر كشرط لتعزيــز حــق الوراثة وهـــــــو

---

(1) ـ احسان النص : العصبية القبلية وأثرها في الشعر الاموي،ص:78 .
(2) ـ الحمالة : حملت به حمالة : أى تكفلت (الملايلي : الصحاح فـــي اللغة والعلوم ،ج :1،ص: 301) .
(3) ـ الزمــل : الضعيف الجبان (الملايلي : الصحاح ،ج :1،ص:544) .
(4) ـ الجبــس : الجبان (الملايلي : الصحـاح ،ج :1،ص:169) .
(5) ـ الجاحـــظ : الحيــوان ،ج :2 ،ص: 95 . احســــان النص : العصبية القبلية وأثرهـــا في الشعر الاموي،ص: 74 .

-بالطبع- القوة والغلبة وما يتبع ذلك من عصبية نافذة. وربما جاءت أبيات عامر بن الطفيل تعبيرا صادقا عن هذا (1) . (طويل).

انى وان كنت ابن سيد عامر * وفارسها المندوب في كل موكب
فما سوّدَ تني عامر عن وراثة * أبى الله ان اسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي * أذاها وأرمي من رماها بمنكب

والرئاسة في القبيلة ليست امتيازا يبعث على الدعة والهناء وراحة البال ، بل هي مسؤولية ثقيلة تلقى على عاتق القائم بها كما قال حبيب الهذلي (2) .(وافر)

وان سيادة الاقوام فاعلم * لها صُعَدَاء مطلبها طويل

فعلى الرئيس أن يتحمل أعباء قبيلته في حالات السلم والحرب ، فالى جانب حرصه الدؤوب على وحدة القبيلة وتعزيز روح الأخوة والالفة بين أعضائها ، والسعي باستمرار لتحقيق الرخاء الاقتصادى لهم ، لتوجيههم نحوما يعود عليهم بالخير والفائدة ، سواء عن طريق الغزو أو تتبع المراعي الخصبة لمضاعفة قطعانهم والحفاظ عليها ، فانه الى جانب ذلك كله يسهر على أمن القبيلة والدفاع عنها ، وقيادتها في الحروب والغزوات ، فخسارتها خسارة له بالدرجة الاولى كما أن فوائدها تعود عليه بالخير الجزيل . وفي مقابل أعبائه ومهامه الثقيلة يتمتع الرئيس بفوائد مادية (3) لا سبيل الى نكرانها حيث اختص بحقوق

---

(1) - ديوان عامر بن الطفيل : ص: 28 . ابن قتيبة : عيون الاخبار ، ج : 1 ص: 227 .

(2) - ابن قتيبة : عيون الاخبار ج : 1 ص: 226 . احسان النص: العصبية القبلية ص: 75 .

(3) - أنظر حقوق السادة والرؤساء في كتاب جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج :5 ص ص: 267/264 . وكتاب احسان النص: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الاموي ص ص: 79/76 .

يمكن تلخيصها في بيت واحد من الشعر قاله عبد الله بن عتمة الضبيي في رثاء بسطام بن قيس الشيباني (١) . (وافر)

لك المرباع منها والصفايا * وحكمك والنشيطة والفضول

فالمرباع هو ربع الغنيمة ، تمنحه القبيلة لسيدها ورئيسها . ويبدو أن هذا الحق لا يطوله الا الرئيس القوى ، صاحب النفوذ والعصبية الغالبة ، حيث أضحى المرباع مبعث فخر واعتزاز ، وعلامة على شرف الرئيس ، وسمو مرتبته .

أما الصفايا فهي ميزة أخرى يتميز بها الرؤساء والسادة ، وتتمثل فيما يصطفونه لانفسهم من دون الناس ، سواء كان ذلك ، سلاحا ، أم فرسا ، أم جارية .

والحق الثالث هو النشيطة . وهي ما يحصل عليه الغزاة في طريقهم ، وقبل الوصول الى هدفهم المقصود . فتكون النشيطة هذه من حظ سيد القبيلة ورئيسها .

أما الحق الرابع فهو الفضول ، بمعنى الباقي من الغنيمة والذى تعذرت قسمته ، فيكون بذلك من نصيب الرئيس أيضا .

أما الحق الخامس فيتمثل في الحكم وهو حكم الرئيس عندما يبارز أحد فرسانه فارسا من الاعداء فيقتله . عندئذ تعود الغنيمة الى حكم الرئيس فان شاء أعطاها للفارس المنتصر وان شاء ضمها الى جملة الغنائم ، وان شاء أخذها لنفسه .

وبالطبع فان هذه الموارد المالية المخصصة للسادة والرؤساء تساعدهم على القيام بواجباتهم المادية تجاه أعضاء قبائلهم وضيوفهم ،

(١) ـ عبد الملك بن قريب الاصمعي : الاصمعيات ص : 28 . محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والامم السامية ، ص: 169/168 . احسان النص : العصبية القبلية ص : 79 .

نظرا لما يقتضيه العرف منهم، من حيث الجود والسخاء والبذل والعطاء، كما قال زيان بن سيار الفزارى : (1) . (طويل)

ولسنا كقوم محدثين سيادة يرى مالها ولا يحس فعالـــهـا .
مساعيهم مقصورة في بيوتهم ومسعاتنا ذبيان طراًعيا لـــهـا .

واذا كانت هذه الحقوق تعتبر بمثابة الموارد المالية التي يستزود منها الرئيس فانها لاتكفي لتنمية ثروته ، لذا فهو يعتمد على موارد أخرى أكثر فائدة ، وأضمن عطاء : كالتجارة وتربية الانعام ، والهدايا والاقطاعات(2) ، وما تفرضه القبيلة من رسوم على القوافل المارة بارضها ... الخ (3) ...

ويبدو أن الرئاسة في القبائل المغربية لا تختلف كثيرا عما هـــي عليه في القبائل العربية بالمشرق . وهذا الموضوع -في الحقيقة- ما زال في حاجة الى الدراسة والبحث . وكل ما عرف حتى الآن : ان كل قبيلـــة من قبائل المغرب -على اختلاف مشاربها- تخضع لسيد يرأسها : قـــد يسمونه أمغارا (4) ، أو شيخا . ويستعين ذلك الشيخ بمجلس للشـــورى يضم أعيان القبيلة ، قد يسمى "" الجماعة "" (5) والطريقة التي يعـــين

(1) -ابن قتية : عيون الاخبار ، ج :1، ص:248.
(2) -جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج :5 ،ص:261- 263 .
(3) -بلاشير : تاريخ الادب العربي (العصر الجاهلي) ، ص:34 . فيليـــب حتى : تاريخ العرب (مطول) ، ج :2، ص:31 . جواد علي : المفصـــل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج :5، ص:629/628 .
(4) -بمعنى الكبير ، وهذا يحث على الاعتقاد بأنه يشترط فيمن يتولـــى هـذا المنصب أن يكون أكبر المترشحين سنا .
(5) -شارل اندرى جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج :1، ص:81 . عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ، ج :1 ، ص:281 . مصطفـــى أبو ضيـــف : القبائـــل العربيـــة في المغـــرب ، ص:259.

بواسطتها رئيس القبيلة أو أعضاء " " الجماعة " " مازالت غامضة ، وان قال بعضهم بأنها تتم عن طريق الانتخاب (1) . ومع هذا فان الشواهد التاريخية أثبتت غير هذا ، وذلك عندما يتدخل السلطان أحيانا لتعيين سادة القبائل (2) .

وجملة القول .. فانه يشترط في المترشح للرئاسة أن يكون من أعيان القبيلة ، ومن أسرة ذات يسار وثروة ،وذات حسب وعصبية جامحة ، هذا بالاضافة الى السجايا الحميدة الواجب توافرها في المترشح ، وسلطات الرئيس ليست قهرية ، تبعا للأعراف القبلية التي تميل الى روح الديمقراطية وحب الحرية ، وان كانت في بعض الاحيان ديمقراطية تلقائية، لا ضوابط لها . وقد يحدث في أوقات ما - أن تقوم القبيلة بعزل رئيسها أو قتله ، (3) كما يحدث أيضا أن يؤدب السلطان ذلك الرئيس أو يقتله (4) .

ويحكم رئيس القبيلة جماعته تبعا لما تمليه الاعراف القبلية ، وقد يتخذ أعوانا لمساعدته في بعض المهام ، كمراقبة الاقطاعات وجبايتها . ويسمى صاحب هذا المنصب بالوكيل (5) ، كما يتخذ رئيس القبيلة

(1) - عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب، ج : 1، ص: 281. ومصطفى أبو ضيف : القبائل العربية في المغرب، ص: 259.
(2) - ابن خلدون : العبر، ج : 6، ص: 44 - 61 - 67 - 99 - 100 - 109 - 150 - 151 . مصطفى أبو ضيف :القبائل العربية في المغرب، ص : 259 .
(3) - ابن خلدون : العبر، ج : 6، ص: 101 - 108 - 157. مصطفى ابو ضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص:259 .
(4) - انظر ابن خلدون : العبر، ج : 6، ص: 53 - 60 - 61 - 64 - 65 - 66 - 67 - 68 - 112 - 113 - 11؟ - 130 - 131 - 152-
(5) - ابو ضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص : 260 .

كاتبا لمراسلاته (1) . وربما تطلع بعض رؤساء القبائل الى تعيين وزير لهم (2) من بين أعضاء القبيلة أو أجانب عنها . ويحدث هذا على الارجح -ضمن القبائل القروية ، أو المتمركزة في المدن .

3 -عادات وتقاليد قبلية :

تدخل العادات والتقاليد في الابحاث التي تعالج موضوع الثقافة ، لأن التقاليد والعادات -في الحقيقة- معارف تلقن بالممارسة والتطبيق العملي ، فهي نتاج تربية طويلة النفس . والذى يهم هنا هي تلك المظاهر الاجتماعية والثقافية التي تعرف ببعض العادات القبلية في بلاد المغرب . و بما أن مجال العادات والتقاليد واسع ، بينما لا يسمح المجال بالتوسع ، فانه من اللازم في هذه الحال تحديد المحاور ضمن عادات : الطعام ، واللباس والزينة ، والمسكن والاثاث ، وكرم الضيافة .

أ -الطعام : يتميز طعام الاوساط القبلية (ريفية وصحراوية) بالبساطة التامة (3) . وان كانت القبائل الصحراوية أكثر بساطة في مأكلها . وهذا مخالف لما هوعليه أهل المدن والامصار ببلاد المغرب (4) ، حيث الحضارة والبذخ اللذان تتولد عنهما فنون الطبخ . وعلى الرغم من

(1) -ابوضيف :القبائل العربية في المغرب ،ص:260 .

(2) -عبد الله التيجاني :رحلة التيجاني ، ص: 101 . ابن خلدون : العبر ، مج : 6،ص:154 - 546 - 792 . القلقشندى : صبح الاعشى ، ج :1، ص: 345 . ابوضيف : القبائل العربية في المغرب،ص: 260 .

(3) -أنظر الوزان : وصف افريقيا ، ج :1 ،ص: 58 - 60 - 61 - 72 - 96 - 102 - 106 - 120 - 129 - 136 - 140 - 141 - 328 - 331 - 333 . ج : 2 ،ص: 43 - 60 - 84 - 87 - 97 - 98 - 102 - 109 - 115 - 119 - 120 - 126 - 129 - 134 - 136 .

(4) -أنظر الوزان : نفسه ، ج :1 ،ص: 234 - 236 - 252 - 253 . ج :2، 75/76 .

بساطة طعام أهل الريف ، الا أنه مع ذلك لذيذ الطعم . غير أن طعام القبائل المتوغلة فى اعماق الصحراء لا يمكن اضفاء صفة اللذة وطيب المذاق عليه ، بسبب خشونته وسوء اعداده . وقد تكون بعض الاصناف الموجودة الآن فى الريف والصحراء هى نفسها التى عرفتها الاوساط القبلية منذ حقبة تاريخية بعيدة .

وعلى العموم .. فطعام أهل المغرب يتميز بكونه يرتكز اساسا على العجينيات الممزوجة بالخضار واللحم . لذلك فان الاطباق بهذه الديار تكون أما كسكسيا أو ثريدا . هذا باستثناء الاطعمة التى لا تتطلب اعدادا وطبخا مسبقا : كاللبن ، والعسل ، والفواكه والتمر ... الخ . وعليه يمكن اجمال المأكولات المغربية فى : الكسكسى ، والثريد ، واللحم مشويا ومسلوقا ، وخبز الشعير ، والحنطة أو الدخن ، وعسل النحل ، والدبس (وهو عسل التمر) ، وزيت الزيتون ، ومختلف الفواكه والثمار : كالتمر ، والتين المجفف والطازج ، والعنب والزبيب ... الخ . وشرابهم فى الغالب هو الماء ، فضلا عن الحليب ، واللبن المخثر (الرائب) واللبن الحامض الذى استخرجت زبدته . وفى بعض الحالات القليلة اشتهرت بعض القبائل المغربية بشرب الخمر (1) .

فطعام القبائل الصنهاجية وقبائل لمطة المتواجدة ببلاد نول الاقصى — على سبيل المثال — يسمى ((آسلو)) ، ويحضر هذا الطعام ببساطة متناهية ، تبعا لحياة البداوة ، حيث تدق الحنطة بعد قليها على النار قليلا ، ثم يمزج ذلك الدقيق بالعسل والسمن ، بعدها تعجن على النار ، ثم توضع فى مزاود ، وعندها يتناولونها يشربون معها اللبن (2) .

وثمة طعام آخر خشن وبسيط تأكله القبائل المتواجدة فى اقليم حاحة بالمغرب الاقصى وربما فى اقاليم أخرى فى بلاد المغرب كافة ، وتسمى ((عصيدة)) ،

(1) — أنظر الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص : 78—307—320—325—326—329—330—331—339—346 .

(2) — أنظر الادريسي : مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، تحقيق اسماعيل العربي ، ص : 126 .

ويتم تحضير هذا الطعام بأن يغلى الماء ،ثم يضاف اليه دقيق الشعير ،على أن يبقى الطباخ مواصلا عملية تحريك المزيج بقضيب حتى ينضج . وبعدها يوضع الطبيخ في اناء ،ثم تحفر العصيدة في وسطها وتملأ بالزيت. وقد يطبخ دقيق الشعير -أحيانا - وخاصة في وقت الربيع والصيف داخل اللبن ، ويدهن بالزبد (1) .

أما الطعام الشائع في بلاد المغرب كافة (بين البدو والحضر على السواء) فهو الكسكسي أو الكسكسو (2) . وللشهرة المطلقة التي تميز بها الكسكسي سمي في بعض مناطق المغرب بـ ((الطعام)) ،لأنه طعام أساسي ومنتشر لدى الطبقات كلها . وتحضيره آنئذ لا يختلف عن التحضير في الوقت الحاضر .

أما القبائل بافريقية فيتناولون نوعين من الطعام ، يبدوأنهما في غاية الرداءة (3) . يسمى الاول ((البسيس)) وهو عبارة عن دقيق من الشعير يمزج بالماء فيصبح خاثرا مثل الصمغ ،وبعدها يضاف اليه شيء من الزيت ، أو قليل من عصير الليمون أو البرتقال ،ثم يشرب المزيج بدون ملعقة .أما النوع الثاني فيسمى ((البازين)) وهو أفضل من البسيس بعض الشيء . ويتم تحضيره بأن يطبخ العجين مع الماء داخل اناء ،وبعدها يجمع ذلك العجين في وسط الاناء ،ويسقى بالزيت أو بالمرق المطبوخ باللحم .وهذا الطعام يؤكل أيضا دون حاجة الى المضغ .

وجرت العادة في بعض الجهات من المغرب الاسلامي أن يأكل أعضاء القبائل المختلفة بعض الحيوانات والحشرات التي يأباها في الغالب أهل الحواضر الكبرى ذات الحضارة والمدنية ،من ذلك أن أهل سجلماسة وقفصة

(1) - أنظر الوزان : وصف افريقيا ،ج : 1 ،ص: 96 .
(2) - تكلم الوزان عن الطريقة التي يتم بها اعداد الكسكسي (أنظر وصف افريقيا ،ج : 1 ،ص: 253 .) .
(3) - أنظر الوزان : وصف افريقيا ،ج : 2 ،ص: 76 .

يأكلون الكلاب والجرذان (1) . وفي جهات مراكش والسوس يأكلون الجراد (2) . وهذه العادة مازالت سائدة حتى الآن في مناطق الصحراء، كما يأكل بعض أهل الصحراء لحم النعام (3) .

بقي الآن معرفة العادات المتبعة من قبل القبائل في تناول الطعام. فبخصوص أهل حاحا فطعامهم -كما سبق- هي العصيدة . وعادتهم في تناولها أن تجتمع الاسرة كلها حول اناء العصيدة ،ثم يتناولون الطعام بايديهم دون ملاعق . أما جلوسهم فيكون على حصر مستديرة ،وليس لديهم موائد ولا اسمطة (4) . أما سكان أعماق الصحراء من قبائل الملثمين فان الحسن الوزان قد حظى بضيافتهم ، حيث ذبح شيخ القبيلة له ولاعضاء القافلة التي كان يرافقها بعض الجمال تبعا لعادة أهل الصحراء التي تلزمهم باكرام الضيوف ، لأنه من العيب ذبح الحيوانات الصغيرة كالاغنام مثلا . أما الطعام فكان عبارة عن لحم الجمال المشوى والمطبوخ متبلا بالاعشاب ، وتوابل السودان . أما الخبز فيحضر من دقيق الدخن والذرة . أما التحلية فعبارة عن تمر مع اللبن . ومن عاداتهم الا يأكل أحدهم مع الضيوف ، بل يأكلون منعزلين عنهم . كما أنهم لا يأكلون الخبز أبدا ، مبررين ذلك بأنهم لا يأكلون الا من نتاج أرضهم ، وبما أن هذه الارض لا تنبت الحبوب ،فانهم يخصصونها للضيوف فقط (5) . أما سكان الحواضر والمدن الكبرى فيتفننون في اعداد الطعام كما يتفننون في تناوله (6) .

(1) - أنظر البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ،ص ص: 49 - 148 ، الادريسي : مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، ص: 129 .
(2) - الادريسي : نفسه ، ص: 131 - 136 .
(3) - أنظر الوزان : وصف افريقيا ، ج :2 ، ص ص: 120 - 129 - 136 .
(4) - نفسه ، ج :1 ، ص ص: 96/97 .
(5) - نفسه ، ج :1 ، ص ص: 60/61 .
(6) - نفسه ، ج :1 ، ص ص: 252/253 .

ب ـ اللباس والزينة :

تختلف ملابس أهل المغرب حسب اختلاف المناطق الجغرافية وحسب تباين المراتب الاجتماعية (الاغنياء والفقراء) . فسكان التلول والجبال يحتاجون لألبسة دافئة تقيهم من القر الذى يسود تلك الربوع فى فصلى : الشتاء والخريف، أما سكان الصحراء فاحتياجهم للدفء أقل من غيرهم ،لذا فقد فضل سكان الارياف الالبسة الصوفية التى اقتصروا عليها تقريبا (1) .

وكما يختلف اللباس بين الريف والصحراء يختلف أيضا حسب اختلاف المستوى الحضارى والمادى . فأهل المدن المتحضرون والمرفهون يلبسون ألبسة انيقة ورفيعة وجميلة ، بينما يلبس أهل البادية الالبسة الخشنة والبسيطة . وذلك تبعا لمقتضيات الحضارة التى تجرى وراء الكماليات ،وتبعا لمستوى الذوق الجمالى بين أهل المدن وأهل البادية . ومع هذا فان لباس العامة والفقراء بالمدن يتفق مع لباس أهل البادية فى المواد التى تصنع منها الالبسة ، حيث اتضح بأن جل الالبسة ببلاد المغرب لا تعدو أن تكون أما من الصوف أو من الكتان ، بينما لا تلبس ملابس القطن والحرير الا من طرف الاعيان والاغنياء فى المدن . وعندما يصف الوزان ملابس أهل فاس وتلمسان وتونس يقدم للقارئ صورة جلية عن مستوى الاناقة فى تلك المدن ، بينما يصف احيانا ملابس أهل الريف وأهل الصحراء فيتضح ما هي عليه من رداءة وبساطة (2) . ومع هذا فان لباس أهل البادية يختلف بدوره حسب اختلاف الاوضاع الاقتصادية والثقافية للسكان . فأهل البادية

(1) ـ قال ابن خلدون بخصوص لباس الامازيغ : ((لباسهم وأكثر أثاثهم من صوف ، يشتملون الصماء من الاكسية المعلمة ،يفرغون عليها البرانس الكحل ، رؤوسهم فى الغالب حاسرة ،وربما يتعاهدونها بالحلق)) . (العبر ، مج : 6 ، ص : 176) .

(2) ـ يقارن الوزان بايحاء بين لباس أهل البادية ،ومن بين ايحاءاته قوله فى سكان جبال تسول بالمغرب : ((يرتدون لباسا لائقا كلباس الحضريين)) . (وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص : 358) . ويقول أيضا عن سكان وجدة : =

يتباين لباسهم تبعا للظروف الطبيعية وتبعا للعادات التي لها علاقة وطيـدة بثقافتهم الخاصة (1) . وقد أورد الوزان نصا يصف فيه لباس القبائل التي تسكن الصحراء التي يسميها ليبيا فيقول : ((يتركب لباسهم من عباءة ضيقة من الصوف الخشن ، ويضع كل واحد منهم على رأسه أويلف حول وجهه قطعة من النسيـج الاسود على شكل عمامة . ويتميز الأعيان والأشراف عن غيرهم بقميص طويل عريض الاكمام من القطن الازرق يبيعهم اياه تجار يأتون من ارض السودان)) (2) . أما سكان الجبال باقليم حاحا بالمغرب الاقصى ، وبالتحديد جبل قبيلة ((ادا وعاقل)) فيقول عنهم : ((لا يلبسون قميصا ولا ثوبا مخيطا بالابرة ، اذ ليس عندهم من يحسن الخياطة ، وانما يلتفون بقدر الامكان في قماش)) . (3) ويقول أيضا عن القبائل المتواجدة في جبل ((نفيفة)) باقليم حاحا : ((وسكان هذا الجبل متوحشون ، لاتربية لهم ، اذا رأوا حضريا عجبوا منه ومن لباسه)) (4) . ولا داعي لسرد الامثلة الكثيرة التي أوردها الوزان عن مستوى لباس أهل البادية ، غير أنه يستحسن التنبيه بأن كثيرا من القبائل التي عقدت مع البرتغاليين علاقات تجارية ، اضحت تتمتع بلباس أفضل . وهذا ما اشار اليه الوزان بكل صراحة (5) .

وبالجملة فان لباس الرجال – في الغالب – يتكون من قميص داخلـي ، وسروال يكون احيانا قصيرا ، واحيانا أخرى طويلا قد يصل الى الكعبين ، ثـم جلباب وهو عبارة عن قميص أو ثوب واسع ، ثم برنوس أو قشابة أو حائـك (ازار) ،

= (ويرتدون لباسا قصيرا خشنا شبيها بلباس الفلاحين)) . (وصف افريقيا ، ج : 2 ، ص : 13) .

(1) – اشار الوزان الى هذا الاختلاف حين قال : ((فالجبلي يلبس لباس أهل الجبل ، والاعرابي يلبس لباس الاعراب)) . (وصف افريقيا ، ج : 2 ، ص : 21) .

(2) – وصـف افريقيا ، ج : 1 ، ص : 158 .

(3) – وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص : 110 .

(4) – نفسـه ، ج : 1 ، ص : 138 .

(5) – نفسـه ، ج : 1 ، ص : 152–157–197 .

كما هو الحال في بعض المناطق من ليبيا وتونس وبعض الجهات المتاخمة لوادي ملوية (1) . ويرى الادريسي بأن لباس سكان الصحراء يتكون من : القـــوطة والازر ، والنقادر الصوفية (2) . أما لباس الرأس فهو عمائم تسمى ((كـزازي))(3)، لونها أبيض أو أسود حسب الجهات ، ويختلف نوع قماشها ويتباين طولها حسب الوضع الاجتماعي ومستوى المعيشة ، حيث تكون من القماش الجيد ، وتكون أكثر طولا لدى الاغنياء والاعيان (4) . ومن اصناف الاحذية التي ينتعلونهـــا : البلغة وهي من الجلد الخالص ، أو الخف أو النعل من الجلد أو من الحلفـــاء أما الجوارب الصوفية فتلبس أيام الشتاء القارس (5) .

وقد ذكر ابن صاحب الصلاة بعض اسماء الالبسة التي كان الموحـــدون يهدونها الى أعضاء القبائل من الفرسان والسادة (6) . واهداء تلك الالبسة يعني أنها كانت متداولة بينهم آنئذ ، من تلك الالبسة :

---

(1) ـ أنظر ابن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1 ، ص : 283/284 .

(2) ـ مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، ص : 98 .

(3) ـ أنظر الادريسي : نفسه ، ص : 126ـ147 . الوزان : وصف افريقيا ، ج : 2 ، ص : 58/59 .

(4) ـ مازالت هذه العادة متبعة لدى قبائل الطوارق بجنوب البلاد .

(5) ـ للتوسع في موضوع لباس أهل المغرب على اختلاف أنواعه حسب المناطق والطبقات أنظر الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص : 58ـ59ـ63ـ64ـ97ـ101ـ110ـ111ـ116ـ117ـ124ـ138ـ140ـ141ـ145ـ152ـ153ـ157ـ175ـ176ـ177ـ184ـ185ـ188ـ197ـ251ـ252ـ298ـ304ـ320ـ329ـ333ـ335ـ357ـ358ـ362ـ367ـ369 . ج : 2 ، ص : 13ـ15ـ21ـ42ـ52ـ53ـ74ـ74ـ78ـ84ـ87ـ102ـ103ـ116ـ117ـ145 . وحمدان خوجة : المرآة ، ص : 61ـ62ـ69ـ70 . وابن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1 ، ص : 283/284 .

(6) ـ المن بالامامة ، ج : 2 ، ص : 291ـ437ـ450 .

ـ القبطية : وجمعها قباطي ، وهي عبارة عن ثوب أبيض اللون مصنوع من الكتان الناعم .

ـ الغفارة : وجمعها غفائر ، وهي غطاء للرأس يلبس تحت العمامة .

ـ العمامة : وجمعها عمائم ، وهي عبارة عن قطعة مستطيلة من القماش الخفيف في الغالب ، تلف حول الرأس .

ـ البرنس : وجمعه برانس ، وهو عبارة عن كساء مشقوق من الامام ، وله قلنسوة مخروطية الشكل ملصقة به وتغطي الرأس .

ـ الشقة : وجمعها شقاق وشقق ، وهي عبارة عن ثوب رقيق ومستطيل .

وجاء في كتاب العبر أيضا نص في غاية الاهمية ، يوضح الطريقة التي يلبس بها أعضاء القبائل من بني هلال وزناتة عمائمهم . وهذا النص يفهم منه بأن الهلاليين قد تأثروا في لبسهم للعمائم بالزناتيين (١) . كما أورد الادريسي نصا يصف فيه زي قبائل المصامدة ببلاد السوس بالمغرب الاقصى (2) .

(١) ـ يقول ابن خلدون في وصفه لزي الاعراب : ((شعارهم لبس المخيط في الغالب ، ولبس العمائم تيجانا على رؤوسهم ، يرسلون من أطرافها عذبات يتلثم قوم منهم بفضلها ، وهم عرب المشرق . وقوم يلقون منها الليت (وهي صفحة العنق) ، والاخدع (وهو عرق في العنق بموضع الحجامة) قبل لبسها . ثم يتلثمون بما تحت أذقانهم من فضلها ، وهم عرب المغرب ، حاكوا بها عمائم زناتة من أمم البربر ، وكذلك لقثوا منهم في حمل السلاح ، اعتقال الرماح الخطية (بأن يجعلوا الرمح بين الركاب والساق أو تحت الفخذ ، ويسحب آخره على الارض) ، وهجروا تنكب القسي (أى تعليقها على المنكب) . وكان المعروف لاولهم بالمشرق لهذا العهد منهم استعمال الامرين)) . (العبر ، مج :2 ، ص: 27/26) .

(2) ـ يقول في ذلك : ((وهم اخلاط من البربر المصامدة ، وزيهم لباس الاكسية من الصوف التفافا ، وعلى رؤوسهم الشعور الكثيرة ، ولهم بها اهتمام وحفظ ، وذلك أنهم يصبغونها من كل جمعة بالحناء ، ويغسلونها في كل جمعة مرتين برقيق البيض والطين الاندلسي ، ويحتزمون في أواسطهم بمآزر صوف ، =

أما لباس النساء (1) ، فهو عبارة عن قميص من القطن وسروال ، وبعض الاثواب الصوفية (في المناطق الباردة) ، ثم أزار أمامي حرير (بالنسبة للاغنياء) أو من الكتان ، وربما من الصوف الخالص . ويشبك على طرفي الصدر من الاعلى والامام بمشابك ذهبية (للاثرياء) أو فضية حسب طبقة المرأة اجتماعيا . وما زال هذا النوع من اللباس معروفا الى الآن ويستعمل في صحراء الجزائر وجبالها ، حيث يسمى ذلك الازار بـ ((اللحاف)) ، ويسمى المشبك بـ ((الخلالة)) (2) ولما كان هذا الازار عبارة عن قطعة من القماش دون خياطة ، فان ذراعي المرأة تبقى مكشوفة ، لذا فقد ابتكروا أكماما تضاف عند الحاجة ، وتكون من الكتان الخفيف أو من الحرير الشفاف لدى الاغنياء ، وقد يطرز حرير الاكمام بخيوط من الذهب والفضة . فيضفي كل ذلك على المرأة البدوية رونقا وحشمة . كما تشد المرأة وسطها بحزام قد يكون من الصوف المزركش أو من الحرير الخالص . وما زال هذا النوع من الاحزمة معروفا حتى الآن ، ويسمى أحيانا بـ ((الحزام الاغواطي)) أما غطاء الرأس فهو عبارة عن منديل من الكتان أو الصوف أو الحرير . أما لباس الارجل فهو حذاء من الجلد المزركش ، وربما كان بلون أحمر وأخضر . وقد تلبس المرأة في بعض الحالات جوارب من الصوف .

هذا عن اللباس ، أما الزينة ففنونها في المدن أكثر من البادية ، ومع هذا فللبادية زينتها الساذجة . ذلك أن البداوة بحكم عزلتها وتقشف أهلها لا تستدعي ملابس جميلة ولا زينة اخاذة كما هو الحال في المدن ، حيث الحضارة برونقها . والعلة بالطبع هو العامل الاقتصادي . فالزينة تهتم بها المرأة أكثر

= يسمونها سفاقس ، ولا يمشي الرجل منهم ابدا الا وفي يده رمحان قصار العصي طوال الاسنان رقاقها ، ويتخذونها من أطيب الحديد)) . (مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، ص : 131) .

(1) ــ أنظر عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1 ، ص : 284 / 285 .

(2) ــ أنظر حمدان خوجة : المرآة ، ص : 61/70 .

من الرجل ، ووسائل الزينة يمكن حصرها في بعض المساحيق ، والحلي ،وانواع الطيب التي تستعمل من قبل النساء لاظهار مفاتنهن،وقد شرح الوزان في نص هام اساليب الزينة المتبعة لدى قبائل الاعراب بالمغرب،حيث قال : ((أما نساء هؤلاء العرب فيرتدين لباسا حسنا حسب عادة البلاد ، وهو قميص أسود واسع الاكمام ، يجعلن فوقه خمارا أسود أو أزرق يلتحفن به ويجعلن هدبه على اكتافهن من أمام ومن خلف ، حيث يمسك بمشبك فضي مصنوع بطريقة فنية ،ويضعن أقراطا عديدة من الفضة كذلك في آذانهن ،وخواتم في اصابعهن ،واساور في ايديهن ، وخلاخل في ارجلهن ،على عادة الافارقة ، تضع هؤلاء النساء أمام وجوههن ثوبا صغيرا مثقوبا أمام العيون ،فاذا رأين رجلا ليس من أهلهن احتجبن فورا بهذا اللثام ، وامسكن عن الكلام ... ولما كان العرب يرحلون من مكان الى آخر ، فانهم يحملون نساءهم على هوادج كالسلال تغطى بزرابي جميلة جدا . وهذه الهوادج صغيرة لايسع الهودج الا امرأة واحدة) ... ومن عادة هؤلاء النساء انهن — قبل الزفاف الى ازواجهن — يخضبن بالحناء وجوههن ،وصدورهن واذرعتهن،وقد اتخذ العرب المستعجمة هذه العادة عندما انتقلوا الى تمكني هذه البلاد الافريقية ،ولم تكن معروفة لديهم من قبل ، غير أن الحضريين ،واشراف البلاد لم يتبعوا هذه العادة ، وبقيت نساؤهم محتفظات ببياضهن الطبيعي ، وانما يستعملن في بعض الاحيان خضابا مصنوعا من عفن لوز الصمغة والزعفران ، ويرسمن به في وسط خدودهن زينة مستديرة تشبه الدينار ،وبين الحاجبين شكلا مثلثا ،وعلى الذقن شبه ورقة الزيتون ،وتخضب بعضهن الحواجب كاملة . يمدح الشعراء العرب والاشراف هذه العادة ، وتراها النساء انيقة وجميلة ، غيرأنهن لا يحتفظن بهذه الزينة أكثر من يومين أو ثلاثة ،لأنهن لا يستطعن البروز الى اقاربهن بتلك الحال ، ولايبدين زينتهن الا لبعولتهن أو ابنائهن . ويفعلن ذلك ليكن أكثر جاذبية ،متوهمات أن تلك الزينة تزيد كثيرا من جمالهن)) . (1)

---

(1) — وصف افريقيا ،ج : 1 ، ص : 64/65 .

وفي نص آخر يصف زينة النساء الامازيغيات بجبال الاطلس بالمغرب الاقصى فيذكر بأنهن يحملن في أذانهن عددا من الاقراط الفضية الضخمة قد يصل احيانا عددها الى الاربعة اقراط في الاذن الواحدة . أما مشابك الثياب فقد يصل وزن المشبك الواحد أوقية . وهذا بالاضافة الى الخواتم العديدة ، والخلاخل . وبالطبع لا يقتني هذا إلاّ الأغنياء ، أما الفقراء فحليهم في الغالب من الحديد والنحاس (1) .

هـ ـ المسكن والاثاث (2) :

تختلف مساكن القبائل المغربية حسب اختلاف فئاتها . فأهل المدر غير أهل الوبر . فالفئة الاولى أوطانها الارياف والجبال ،حيث المناخ البارد ، وتقلبات الطقس الدائمة . أما الفئة الثانية فمراتعها القفار والسهوب حيث الدفء والحرارة ،كما أن الفئة الاولى تتميز باستقرار اعضائها وثباتهم ضمن مقاطعات وأوطان لا يحيدون عنها ،أما الفئة الاخرى فأعضاؤها راحلون عبر القفار والفيافي طلبا للنجعة . ومن هنا تظهر الاسباب التي استدعت اختيار المساكن البسيطة التي يسهل فكها وتركيبها . وعليه فقد اتخذوا الخيام المصنوعة من الوبر ،والجلد ، والخوص .

وما يقال عن المساكن يصح قوله عن الاثاث ،حيث يميل اعضاء القبائل الرحل الى اقتناء الاثاث الخفيف والمطاوع الذى يسهل نقله دون أن يعرض للتلف والكسر . وذلك على خلاف القبائل المستقرة بالارياف التي يمتلك اعضاؤها أثاثا أكثر جودة واثقل حملا . وقد يشتمل على ادوات زجاجية وفخارية . هذا وقد

(1) ـ أنظر الوزان : وصف افريقيا ،ج : 1 ،ص: 110 .

(2) ـ للتوسع في معرفة مساكن واثاث أهل المغرب كافة يستحسن الرجوع الى كتاب الوزان : وصف افريقيا ،ج : 1 ،ص: 88ـ187ـ188ـ189ـ359ـ360ـ362ـ367ـ368ـ369 ،ج : 2 ،ص: 25ـ26ـ53ـ56ـ61ـ63ـ70ـ77ـ83ـ92ـ93ـ97ـ106ـ118ـ123ـ135ـ136 . وكتاب حمدان خوجة : المرآة ،ص: 41/43ـ45ـ52 .

وصف الوزان بايجاز أثاث بعض القبائل الامازيغية المتواجدة ببادية اقليم حاحا بالمغرب الاقصى فقال : ((يجلسون على حصر مفتولة من الوبر ونبات الاسل ، وينامون على اغطية مصنوعة من الصوف الطويل أيضا . يتراوح طولها بين عشرة اذرع وعشرين ذراعا ، ويستعملون طرفا منها كالفراش ، وطرفا آخر كازار وغطاء من فوقهم . وفي الشتاء يوضع جانب الغطاء الوبرى في الداخل مما يلي الجسد ويعكس الوضع في الصيف . والمخدات والوسائد أصناف من أكياس الصوف الخشنة الصلبة))(1) .

وبالجملة فان مساكن وأثاث أهل البادية (مدريين ووبريين) بسيطة جدا بالنسبة لمساكن وأثاث سكان الحواضر . لأن الفئة الأخيرة تفننت في العمارة وصنع الأثاث تبعا لمستوى المعيشة الرفيع الذين يتمتعون به ، بينما اضطرت الحاجة وروح التقشف أهل البادية الى الاكتفاء بما هو ضرورى من الاثاث والمسكن .

ـ القرى واكرام الضيف :

أن البيئة التى تحيط بالمجتمعات القبلية والظروف الصعبة المحيطة بها ، والمخاطر التى تهدد اعضاء القبائل فى الفيافي والقفار التى تعبرها القبائل ، اقتضت ظهور بعض الاعراف والعادات التى ساعدت على التكيف مع تلك البيئة الصعبة . ومن تلك الاعراف عادة القرى واكرام الضيف مهما كان ذلك الضيف فاذا كان المسافر فى القفار معرضا بين حين وآخر الى النهب والسلب من قبل اعضاء القبائل ، فانه أيضا يتمتع ببعض الضمانات التى تعطيه الحق ـ اذا ما جاع أو عطش أو التمس المأوى ـ فى أن يلجأ الى أى بيت من البيوت التى تعترضه في طريقه لكي يحصل على حاجته ، حيث يقدم له اصحاب البيت أعز مالديهم ، دون شح أو بخل ، فاكرام الضيف من المبادئ المقدسة فى

(1) ـ وصف افريقيا ، ج :1 ، ص : 97 .

المجتمعات القبلية خاصة في المغرب الاسلامي (1) . وقد أورد الوزان حكاية واقعية حدثت له عندما كان مسافرا الى بلاد السودان ، حيث اعترض طريق قافلتهم شيخ عشيرة صنهاجية لأخذ اتاوة المرور التي تتكون في الغالب من قطعة قماش عن كل جمل لا يتجاوز ثمنها الدينار الواحد . ويقول الوزان بأن ذلك الشيخ أصر على استضافتهم الامر الذي جعله ينفق على الضيوف اضعاف ما اخذ منهم ، ثم اخذ الوزان في الاشادة بكرم ذلك الشيخ وقبيلته (2) .

والامثلة عن كرم قبائل المغرب عديدة ولا يسع المجال لذكرها كلها . والذي يستحق القول هو أن الكرم والسخاء يكثر ويشاع كلما بعد الانسان عن العمران الحضري ، فقبائل الصحراء القاحلة اشد تمسكا بعادة قرى الضيف واكرامه . ومع هذا فلا يمنع قبائل تلك الديار من نهب وسلب الغرباء في الاماكن المنقطعة ، أما اذا دخل الغريب الى حماهم والتجأ الى بيوتهم فقد ضمن امنه وسلامته بالاضافة الى تمتعه بالطعام والشراب .

4 ـ القبلية وعلاقاتها الداخلية والخارجية :

سبق لبعض المؤرخين أن درسوا العلاقات الخارجية لعدد من دول المغرب الاسلامي . ومرد ذلك الى كون الدولة تضطلع عادة بالجوانب السياسية التي تؤهلها لعقد علاقات مع غيرها من الدول . ومن هذا المنطلق قد يبدو أن العلاقات الخارجية من صلاحيات الدول فقط . غير أن هذه الحقيقة لا تخلو من

---

(1) ـ أنظر الامثلة العديدة عن كرم الضيافة عند قبائل المغرب وذلك في كتاب الوزان : وصف افريقيا ، ج :1، ص : 60ـ61ـ99ـ109ـ123ـ155 .
ج :2، ص : 45ـ46ـ52ـ53ـ54ـ120ـ135ـ136 . وكتاب حمدان خوجة : المرآة ، ص : 62ـ63ـ71 .

(2) ـ وصف افريقيا ، ج :1، ص : 60/61 .

بعض الاستثناءات احيانـــا .

وعليه فقد بقي جانب هام في تاريخ المغرب الاسلامي يتطلب عناية الباحثين . وهذا الجانب يخص العلاقات ذات الطابع السياسي ،والاقتصادي ، والثقافي ، والعسكري ، التي تتمتع بها القبائل المختلفة بهذه الديـــار ، ولا سبيل الى نكرانها . لأن بلادا كبلاد المغرب التي تزخر بالقبائـــل ذات العصبية الجياشة ، عرفت ــ بحكم التركيبة الاجتماعية ــ بعض الاشكـــال من العلاقات التي تستوجب الوقوف عندها ، والتأمل فيها . من ذلـــك :

أ ــ العلاقات داخل القبيلة ذاتـــها .

ب ــ العلاقات بين القبيلة وقبائل أخرى .

جـ ــ العلاقات بين القبيلة والدولة الحاكمة .

د ــ العلاقات بين القبيلة والدول الاخرى .

ويتضح من خلال العناصر السابقة أن الاول منها تعبر عنـــه العلاقات الداخلية ، وهي التي تجرى داخل القبيلة ،بين أعضائهـــا ، وبين أحيائها العديدة . أما العنصران : الثاني والثالث فتعبر عنهمـــا علاقات خارجية بالنسبة للقبيلة ذاتها ،ولكنها بالنسبة للدولة التي تحكـــم تلك القبيلة تعتبر علاقات داخلية . أما العنصر الرابع فتمثله العلاقـــات الخارجية المطلقة ،لأنها خارجية بالنسبة للقبيلة المعنية ، وخارجيـــة بالنسبة للدولة الحاكمة . وعلاقات أى قبيلة هنا بأية دولة خارجيـــة قد يهدد كيان الدولة الحاكمة ،لذا فان سلوكًا كهذا تعتبره الدولـــة الحاكمة خيانة ، لايجب التسامح معها ــ .

ان هذا التقسيم مهم للغاية ،لأنه سيوضح مدى شرعية وسلامـــة العلاقات التي تعقدها القبائل في مختلف المستويـــات .

أ ــ العلاقات داخل القبيلة : بالطبع .. لا تخلوأية قبيلة من بعـــض المظاهر التي تطبعها بعلاقات اجتماعية واقتصادية وثقافية . ويحـــدث هذا اما بين أعضاء القبيلة كأفراد أو فيما بين عشائرها وأفخاذهـــا وبطونـــــــها ... الـــخ . ومـــــن

هنا يتضح بأن الصلات المختلفة التي تحدث داخل القبيلة ،فردية أو جماعية تعبر أصدق تعبير عن العلاقات الداخلية لتلك القبيلة . وعند التأمل في هذه العلاقات داخل القبيلة يتجلى الدور الذي تلعبه العصبية القبلية ،حيث تظهر العصبية هنا بمظهر المنظم والضابط الدقيق لتلك العلاقات ، التي لاتعدو أن تكون أما علاقات سلمية أو علاقات عدوانية وحربية . فالسلمية تتجلى من خلال المعاملات التجارية والمبادلات الثقافية ... الخ . بينما تكون الصلات العدوانية والحربية أما دفاعا وذودا عن الحمى أو هجوما وغزوا يستهدف عشيرة أخرى أوبطنا آخر من القبيلة ذاتها .

فالعلاقات الفردية يمكن معرفتها من خلال دراسة سلوك افراد القبيلة تجاه بعضهم بعضا ، أو تجاه الاعراف القبلية ، أو تجاه الهيئة الحاكمة للقبيلة ، تلك الهيئة التي يمثلها كبير القوم وشيخهم ، أو بعض الأعيان . فعلى الرغم من النزعة الفردية التي تتحكم في ابناء القبائل العربية والامازيغية ببلاد المغرب ، الا أن هذه النزعة – في الحقيقة – تنسجم كل الانسجام مع روح الجماعة داخل القبيلة . ويرجع الفضل في ذلك الى العصبية التي تنظم العلاقات بين الفرد وجماعته في الوسط القبلي . فشعار الفرد هنا هو ((أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب)) (1) . فحب الفرد لذاته يتصدر كل شيء ، ثم يأتي حبه لأسرته ،فعشيرته ،فالبطن الذي ينتمي اليه ،ثم قبيلته في النهاية (2) .

(1) – ابن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1،ص: 200 .

(2) – ينسب بعضهم للبدوي صفات متطرفة من حيث الانانية الفردية ،من ذلك استشهادهم برواية ابي هريرة التي اشارفيها الى ذلك الاعرابي الذي قدم على رسول الله ،ولما قام رسول الله وصحابته للصلاة اتجه الاعرابي الى الله داعيا فقال : ((اللهم أرحمني ومحمدا ولاترحم معنا أحدا)) . (أبو داود : السنن ،ج : 1،ص: 89 . جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ج : 1، ص: 283 . فيليب حتي : تاريخ العرب ، ج : 1، ص ص: 31/30) . وقد يدخل في هذا السياق قول أبي فراس : ((اذا مت ضمآنا فلا نزل القطر)) . لان هذا المعنى مستوحى من عقلية البادية .

وهكذا يتحدد مجال روابط الفرد وعلاقاته ضمن قبيلته. فالمجال هنا ضيق، ولا يتعدى حدود الولاء التلقائي للأسرة وللعشيرة أو البطن .. وربما القبيلة. وبالتالي فأن هذا الولاء يلزم الفرد بشكل ما من أشكال الطاعة التي لا تكون مقيدة، ولا مطلقة تجاه رئيس القبيلة، والملأ من قومه، ذوي السيادة والرئاسة. ولكن الفرد هنا يملك من الحرية ما يعطيه الحق في مناقشة الرؤساء والاعتراض عليهم دون خوف أو حرج. وبالمقابل فان سلطة الرئيس على أفراد القبيلة ليست سلطة قاهرة. ومع هذا فان الفرد داخل القبيلة أو الوحدة الاجتماعية الاصغر معرض لبعض العقوبات الزاجرة التي تسلط على المنحرفين والمخالفين للاعراف القبلية. وأهم العقوبات وأقساها هي عقوبة الخلع أو النفي من حمى القبيلة. وعلى سبيل المثال فان بعض القبائل الامازيغية بالمغرب الأقصى تلجأ الى نفي الذين يرتكبون جريمة القتل داخل قبيلتهم -اذا ما افلتوا من ثأر أهل الضحية- وذلك لمدة سبع سنوات. وبعد تمام مدة النفي يستطيع القاتل العودة الى قبيلته، على أن يدفع الدية لأهل القتيل (1).

وعقوبة النفي - بالطبع - معروفة ضمن القبائل العربية، وتسمى عندهم بالخلع. وتعتبر هذه العقوبة من أقسى وأشد العقوبات التي يمكن أن تسلط على الفرد من طرف قبيلته أو عشيرته (2). وهذه الظاهرة شائعة جدا ضمن القبائل العربية في العهد الجاهلي. ولا تخلو القبائل العربية ببلاد المغرب منها. واذا كان المخلوعون في جزيرة العرب قد عُرفوا بالصعاليك ويُسَمون أيضا ذؤبانا (3). فان بلاد المغرب بدورها عرفت هذه الفئة من قاطعي الطرق الذين يسمون ذؤبانا.

---

(1) - أنظر الوزان : وصف افريقيا، ج : 1، ص : 109-112-117، ج 2، ص : 117.

(2) - أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي، ص : 49/50.

(3) - جاء في لسان العرب : ((يقال لصعاليك العرب ولصوصها : ذؤبان لأنهم كالذئاب)) (ج : 1، ص : 1051).

كذلك،وقد اشار اليهم ابن خلدون — بهذا الاسم — مرات عديدة . (1) وقد يلجأ بعض المخلوعين من طرف قبائلهم الى قبائل أخرى طلبا للجوار والالتحاق ، وعندها يصبحون أعضاء تابعين للقبائل المجيرة،لهم ما على أفرادها ،وعليهم ما على أعضاء القبيلة كافة . وبذلك تتحدد علاقاتهم على نفس السياق المطلوب منهم في قبائلهم الاصلية ،اذ العرف واحد تقريبا في كافة القبائل والمنطلق الاجتماعي أيضا واحد وهو العصبية . فالواجبات التي تمليها العصبية على القبيلة يشترك فيها أعضاؤها جميعا . اذ يتحتم عليهم التناصر والتآزر مع بعضهم بعضا . لأن أي تخاذل أو تأخر عن نصرة أي عضو من أعضاء القبيلة

---

(1) — أنظر على سبيل المثال ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ،ص : 145 — 158 — 392 — 395 — 403 — 581 — 608 . مج : 7 ،ص : 570 — 571 .
لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص : 144/145 .

(2) — للجوار دلالات لغوية عديدة متباينة ،والذي يهم هنا هو المعنى الذي يرمي الى القرابة والنسب ،وقرب المساكن والبيوت من بعضها بعضا . وبالتالي الذود عن المستجير (القريب أو اللاجئ الى الحي)،هروبا من مكروه أو شر قد يلحق به . والجوار كما هو معلوم له علاقة وطيدة بموضوع النسب ،اذ يلتحق المستجير بنسب المجير في غالب الاحيان . وقد ساعد مبدأ الجوار هذا على ادماج اعداد كبيرة من الناس ضمن قبائل أخرى غير قبائلهم الأصلية . ومع مرور الوقت اصبحوا ينتسبون الى القبائل المجيرة . وهذه الظاهرة سائدة في أغلب المجتمعات القبلية ،وخاصة العربية والامازيغية منها . ويحق للمجير المطالبة بدية جاره (وتكون الدية هنا نصف دية العضو الصريح في القبيلة) كما يحق له المطالبة بثأره . وبالمقابل فهو ملزم بدفع دية من يقتله جاره . ويتم الاعلان عن الاجارة أو خلعها في التجمعات العامة بالاسواق أو المعابد أو المواسم . والكيفية التي يطلب بها المستجير الاجارة تكون أما بطلب ذلك بواسطة المخاطبة ، أو بالتعلق باطنان بيت احدهم ، أو بالارتماء على قبر والد أو ولد المجير . كما أن تناول طعام أحدهم يلزمه اجارة ضيفه . وما زالت هذه العادة متبعة في البلاد العربية عامة ،وفي المغرب الاسلامي بصفة خاصة ،اذ للطعام حرمته وقدسيته . (أنظر الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص : 334 — 336 — 337 . ومحمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية عند =

قد يتسبب في تفكك الروابط التي تشد تلك القبيلة ، وبالتالي تفسد عصبيتهـــــا وتنهار . لذا فقد نص العرف القبلي بحتمية نصرة الاخوة الذين كانوا أم مظلومين (1) وكما الزم أعضاء القبيلة بواجبات مشتركة ، فقد أقرت لهم حقوق مشتركة يتساوون فيها . فالقبيلة كلها مطالبة بالدفاع عن أي عضو من أعضائها وحمايته في شتى الظـــروف، والوقوف الى جانبه عندما يرتكب جريمة قتل خارج القبيلة فيشترك الجميع في واجب الدية . وعندما يقتل عضوا من القبيلة فعلى اعضائها جميعا واجب السعي للأخذ بثـــأره . وهكذا يعمل الكل بالمثل السائر : ((في الجريرة تشترك العشيرة)) (2) .

أما العلاقات التي تتم بين العشائر والافخاذ والبطون المنتمين لقبيلـــة واحدة فقد تكون علاقات متينة ، وقد تكون واهية ضعيفة . فنظراً لروح الاستقـــلال والتجزئة التي تسود القبلية ، فان العشائر أو البطون تسعى دوما للانفراد بنفسها . وقد يعزز هذه الروح الانفصالية بين أعضاء العشيرة رئيسها الطموح . كمـــا أن غريزتي التنافس والحسد تدفعان دوما رؤساء العشائر الى الصراعات التي تتسبـــب في فصل أحياء القبيلة واستقلالها الواحدة بعد الاخرى (3) . وربما منعت بعض الغرائز السلبية الأخرى من توحيد العشائر والبطون ، وجمع شملها ضمن قبيلـــة واحدة خاضعة لحكم رئيس واحد . وحتى لو تم ذلك فانه يكون في حالات قليلـــة . ولا يتم هذا – عادة – الا بالقوة والقهر ، وعندما تتدرج العصبية نحو الملك.

= قدماء العرب ، ص ص: 148/153 . وجواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج :4 ، ص ص: 360/365 . واحسان النص : العصبية القبلية ، ص ص : 6/88 . ومصطفى أبو ضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص ص : 248/251) .

(1) – يعبر عن هذه الفكرة قريط بن انيف حين قال : (بسيط) .

قوم اذا الشر أبدا ناجذيه لهم ... طاروا اليه زرافات ووحدانـــــا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ماقال برهانـــــا

(أنظر قصيدته في ديوان الحماسة لابي تمام : ج :1 ، ص ص: 13/15) .

(2) – أنظر أحمد بن محمد النيسبوري الميداني : مجمع الامثال ، ج :2 ، ص: 9..

(3) – الامثلة على هذه الظاهرة ببلاد المغرب كثيرة جدا ، ويمكن الرجوع اليها في اخبار القبائل الامازيغية والعربية ضمن كتاب العبر لابن خلدون وغيره في =

أن الرغبة في التجزئة والانفراد لاتكون الا في الحالات التي تتطلبها فائدة الوحدات الصغرى . أما في الحالات التي تشعر فيها تلك الوحدات بالخطر ، وتحس بالضعف أمام الاعداء المتربصين ،فان العشائر والبطون تسعى بكل حرص الى الالتحام بالاقرباء وأهل العصبية الآخرين من بطون القبيلة الأم . وربما تحقق ذلك أيضا لاغراض هجومية ،بقصد اكتساح بطون من قبائل أخرى ، طمعا في مالهم أو للاطاحة بدولة ما ،وامتلاك ربوعها .

ب ــ العلاقات بين القبيلة والقبائل أخرى :

يمكن اجمال هذه العلاقات فيما يعرف بالصلات القبلية ذات الطابع الحربي أحيانا ،وذات الطابع السلمي احيانا أخرى . ويتم ذلك بين القبائل بعضها ببعض . وفي هذه الحال تتغلب الصلات الحربية ــ في المجتمعات القبلية ــ على الصلات السلمية ،حيث تلجأ القبائل ــ في غالب الأحيان ــ الى التطاحن والقتال . ومع هذا فقد تضطر بعض القبائل الى عقد صلات سلمية مع غيرها من القبائل ،وذلك في شكل حلف بغرض تحقيق اهداف عسكرية وسياسية ، ومن هنا يتضح بأن هذه الصلات السلمية تعقد ممهدة لصلات حربية . اذ يقوم ذلك الحلف بالهجوم على احلاف وقبائل أخرى ،وربما على الدولة الحاكمة للاطاحة بها . وقد يكون السبب في عقد الحلف هدفا دفاعيا ،لصد العدوان ، والذود عن الحمى . والامثلة عن هذا كثيرة جدًّا في كتب تاريخ المغرب . ولا يختلف الامر بهذه الديار عما هو عليه الحال بالمشرق العربي .

(1) ــ الصلات الحربية :

الحرب في الاوساط القبلية بالمغرب تكون محدودة ،واسبابها في غالب الاحيان تافهة ،لأن المعروف عن الحرب بين الدول أنها لاتقوم الا بعد فشل

= كتب تاريخ المغرب . أنظر على سبيل المثال العبر ، مج : 6 ،ص ص : 48/49 /51/52-56-71-75-78-99-107/112-135-147/157-161/ 162-171-304/305-537-542/733 .

المساعي السياسية ، أما القبائل فقد تشعل حربا دون الالتفات الى تلك المساعي ، التي من الواجب أن تكون كصمام يضبط الوقت المناسب للحرب .

فالحروب القبلية تنشأ أما لاسباب دفاعية أو لأسباب هجومية ،وتحدث أما بين القبائل ذاتها ، وأما بين القبائل وتنظيمات أخرى كالدول مثلا . ونظرا لمحدودية الحروب القبلية بالمغرب وتفاهة اسبابها ،وسخافة اهدافها فقد ظلت محصورة ضمن مصطلح الغزو والاغارة ، مع بعض الاستثناءات التي تتحالف فيها قبائل عديدة لمواجهة قوة خارجية أودولة ما ، ففي هذه الحال يطول امد الحرب أحيانا ، وتأخذ شكلا هاما . أما الحروب التي تنشب فيما بين القبائل المغربية فلا تعدو أن تكون اياما كما جرى عليه الحال في الجزيرة العربية . وقد اصطلح العرب على تسمية حروبهم في الجاهلية بـ ((الايام)) . وهذه التسمية تعبر بصدق على محدودية تلك الحروب (زمانا) ، اذ لاتدوم أكثر من يوم واحد في الغالب (1) . وحتى لوطال امدها أكثر من يوم فانها تتم بشكل متقطع ،بحيث تغلب عليها صفة الاغارة ، أو الغزو القصير النفس . وهكذا فان الحروب التي تنشب بين القبائل محدودة من حيث الزمان ،ومن حيث الشمولية ،ومن حيث الوسائل المستعملة ،والاساليب المتبعة في المعارك . أما اسبابها فلا تعدو أن تكون أما بحكم الظروف الطبيعية القاسية التي تحيط بالمجتمعات القبلية ، أو بحكم عوامل اقتصادية قاهرة ، أو بحكم عوامل اجتماعية (2) .

فأما السبب الأول فيتجلى من خلال الوسط الذي يحيط ببعض القبائل الصحراوية التي تضطر – بحكم الجفاف وانحباس الامطار – الى الزحف نحو مناطق خصبة ولكنها لا تخصها ،طالبة الكلأ والماء ،عندئذ تصطدم بقبائل

---

(1) – أنظر كتاب محمد أحمد جاد المولى : أيام العرب في الجاهلية .

(2) – أنظر جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ،ج :5 ،ص: 333/334 .

أخرى تملك تلك المناطق الخصبة ،وهنا تنشب الحرب بين الطرفين . وهذه الظاهرة معروفة في تاريخ المغرب منذ حقبة تاريخية قديمة ،حيث كانت قبائل الجنوب (جدالة) في صراع مستديم مع قبائل الشمال في العهد الروماني وما بعده . وفي الفترة الزمنية المخصصة لهذا البحث امثلة كثيرة عن هذه الظاهرة ، حيث تتكلم المصادر التاريخية المغربية بكاملها عن القبائل التي ترعى في الصحراء والمناطق السهبية وكيف تقلق غيرها من قبائل الشمال حيث التلول الخصبة بهجماتها واغاراتها المتتالية . وهذا الامر جعل القبائل الجنوبية تزحف على شكل موجات صغيرة نحو التلول ،حيث تحظى احيانا باقطاع الدولة في تلك الربوع ، مثل بني يلومي وبني وامانو في العهد المرابطي ، وبني عبد الواد وبني توجين في العهد الموحدي ،واعراب بني هلال وسليم في عهد ما بعد الموحدين (في زمن بني حفص وبني عبد الواد وبني مرين) .

أما السبب الثاني فيتم بدافع اقتصادي ، ويحدث ذلك حسب الظروف السابقة الذكر ،أو بدافع من الطمع والجشع والحسد ، حيث تلجأ قبيلة اغراها الطمع في خيرات قبيلة أخرى الى الاغارة عليها وعلى ثرواتها ،فتصطدم القبيلتان . وقد حدث هذا كثيرا في بلاد المغرب وطوال تاريخها القديم والوسيط .

أما السبب الثالث فينشأ من جراء نزعات فردية أو جماعية ،مثل : الحسد ، والتنافس الذي يحدث بين سادة القبائل واعيانها ، وقد يحدث بسبب زواج امرأة ، أو حظوة لدى سلطان أو أمير ، أو ثروة ينالها احدهم ... الخ . كما يحدث أيضا بسبب اهانة أو طلاق امرأة ذات حسب ونسب ، أو من جراء كلمة نابية وجارحة ... الخ . وتدخل في هذا الاعتبار الفتنة التي حدثت بين بني وجديجن الزناتيين وقبيلة لواته . حدث ذلك عندما اشتكت امرأة وجديجنية الى أهلها من اهانة لحقتها من طرف اسرة زوجها اللواتي ، اذ يقال بانهم عيروها بالفقر ،وهكذا اشتعلت الحرب بين القبيلتين لهذا السبب التافه . وقد انضمت الى الحرب قبيلة مطماطة أيضا (1) .

---

(1) _ أنظر ابن خلدون : <u>العبر</u> ،مج : 6 ،ص : 237/238 .

وثمة سبب رابع للحروب القبلية وهو الثأر . ويعتبر الثأر من أهم خاصيات المجتمعات القبلية بصورة عامة (1) . وقد رسخت هذه الخاصية في المجتمع القبلي المغربي ، وانبنت اساسا على مبدأ أن ((الدم لا يُغسل الا بالدم (2))) . ومن هذا المنطلق يمكن تصور الاهوال والحروب التي اشتملت بسبب الثأر ، فقبيلة القتيل تَهُبُّ بكاملها لنصرة اسرته والأخذ بثأره ،بينما تتصدى لهم قبيلة القاتل ،حَمِيَّةً منها وعَصَبِيَّةً ،وغيرة على اعضائها حتى ولو كانوا ظالمين . ومن هنا تنشب الحرب . ومع هذا فقد يحدث أن تلجأ بعض الفئات الى وسائل أخرى كتعويض ،مثل الدية التي تقدم الى أسرة المقتول ،أو اللجوء الى القصاص بواسطة سلطة مركزية قاهرة للجميع . وهذه الوسيلة الأخيرة نادرة وقليلة في المجتمع المغربي ،وخاصة خلال الفترة الزمنية المحددة لهذا البحث . حيث استفحلت القبلية وطغت على سلطان الدولة .

(2) ــ <u>الصلات السلمية :</u>

لقد ألزمت الظروف الصعبة التي تحياها القبائل نشوء بعض الاعراف والتقاليد التي تسمح للفئات القبلية بالتعاون والتكاتف طلبا للأمن والعدل ، والقبائل في المغرب الاسلامي لا تختلف في هذا عن القبائل العربية بالمشرق ، فقد عرفت هي الأخرى بعض المبادئ والانساق التي تتجلى في مختلف العلاقات السلمية كالتجارة ، والاحلاف ، والمصاهرة ... الخ .

فالتجارة بين القبائل تقوم في الغالب على المقايضة والمبادلة ،وأن كانوا يتعاملون في حالات ما بواسطة النقود والعملات المختلفة . وبفضل التجارة تنتقل القبائل من مقاطعاتها الى اسواق قبائل أخرى للبيع والشراء ، دون خوف

---

(1) ــ للتوسع يستحسن الرجوع الى الفصل الخاص بالثأر في كتاب مصطفى الفوال : <u>علم الاجتماع البدوي</u> ،ص ص : 310/319 .

(2) ــ جواد علي : <u>المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام</u> ، ج :4 ، ص : 398 .

أو حرج ، وخاصة في أوقات السلم ، و المهادنة (1) .

أما الحلف (2) . فمعناه العهد الذي يعقد بين طرفين أو أكثر ، ويتم بأن يتعاهد المتحالفون مقسمين بأن يتعاضدوا ويتعاونوا في السراء و الضراء . وقد يتم ذلك باتباع طقوس معينة ، كأن يغمس المتحالفون أيديهم في سائل كالدم ، أو الماء ، أو الرب (3) والطيب (4) . ثم يقسمون يمينا على الوفاء بالعهد ، والصدق فيه ، فيبرمون بذلك ميثاقا مقدسا بينهم . وقد يعقد الحلف بشكل دائم ومستمر ، أو بشكل مؤقت ، بغرض تحقيق هدف معين ثم تنفك عراه .

وقد يتم الحلف بين قبيلتين أو أكثر ، حيث يلتجيء الضعفاء الى الالتصاق بغيرهم من القبائل القوية بواسطة الحلف . وربما تحالفت قبيلة قوية مع قبيلة قوية أخرى بغرض شن حرب على اعداء أشداء أو بهدف حماية انفسهم والذود عن حماهم واوطانهم ضد عدو شديد المراس . ولا يتطلب من الدارس لتاريخ المغرب الاسلامي مجهودا كبيرا لكي يكتشف هذا الامر ، لان المصادر التاريخية تزخر بالشواهد التي تؤكد قيام احلاف قبلية متنوعة (5) .

أما المصاهرة فلها أثر كبير في عقد الصلات السلمية بين القبائل ، لأن العادة جرت بأن يتزوج سادة القبائل ورؤسائها وبعض الامراء والسلاطين من بنات قبائل أخرى ، بغرض عقد صلات القربى والرحم ، فيضفي ذلك الامر عليهم

---

(1) ـ أنظر ما بعده .
(2) ـ للتوسع أنظر كتاب محمد محمود جمعة ، النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والامم السامية ، ص ص : 155/167 . وكتاب جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج : 4 ، ص ص : 370/388 . وكتاب احسان النص : العصبية القبلية واثرها في الشعر الاموي ، ص ص : 90/98 .
(3) ـ عصير بعض الثمار ، ويكون خاثرا .
(4) ـ أنظر محمد محمود : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب ، ص ص : 162/163 .
(5) ـ أنظر على سبيل المثال ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص ص : 55/56 / 66ـ76/77ـ86ـ89ـ95ـ116/117ـ119ـ123/124ـ131ـ .

قوة بعد قوتهم . اذ تتعزز عصبيتهم عن طريق ربط عرى الارحام وتمتين وشائج القربى مع القبائل المجاورة والقوية ، فتغد وبذلك سندا لهم وعونا يستنجدون بها عند الحاجة . ومبدأ المصاهرة هذا عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي بلاد المغرب انتشرت هذه السنة بين سادة القبائل وبين السلاطين والامراء والقبائل المختلفة (1) . ويعتبر مبدأ المصاهرة هذا من أهم العوامل التي ساعدت على ادماج وصهر العرب والامازيغ ، حيث تشابكت الانساب واختلطت بفضل المصاهرة التي حدثت عبر السنين المتوالية .

جـ - العلاقات بين القبيلة والدولة الحاكمة :

العلاقات بين القبائل والدولة الحاكمة في بلاد المغرب الاسلامي خلال الفترة الزمنية المخصصة لهذا البحث تتحدد بمدى ولاء القبائل للدولة . وبهذا يمكن تصنيف المغرب آنئذ الى : قبائل مناصرة وتابعة للدولة ، وقبائل مستسلمة وخاضعة للدولة ، وقبائل مشاغبة ومتمردة عن سلطان الدولة ، ولما كانت بلاد المغرب تزخر بالقبائل المختلفة فان عدد القبائل من كل صنف لا يمكن حصره . وعليه فقد تعرضت الدولة بهذه الديار لهزات عديدة كان السبب فيها القبائل المشاغبة والمخالفة (2) . وبهذا يصطدم الدارس لتاريخ المغرب ودوله بالاحداث اللامتناهية التي تتسبب فيها القبائل . بحيث يكاد تاريخ المغرب أن يكون تاريخا للقبائل وكفى .

= 135-148-167-243 ، 246/247-289 . ثم مصطفى ابي ضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص : 248/249 .

(1) - تزخر كتب التاريخ الخاصة ببلاد المغرب الاسلامي بالامثلة التي توضح مدى نجاعة المصاهرة في نصرة الاصهار من أعضاء القبائل ، أنظر على سبيل المثال ابن خلدون : العبر ، مج 6 ، ص : 31-34-65-108-260 .

(2) - أنظر ما بعده .

أن العلاقات بين الدولة والقبائل في بلاد المغرب تتميز غالبا بالتمرد والخيانة والغدر والعصيان . لأن الثقة معدومة بين المؤسستين ، والفاصل فيها دوما هو العنف والقوة والقهر . وبالطبع تلجأ الدولة الى ضرب القبائل بعضهم ببعض ليخلو لها الجو وتتمكن من السيطرة عليهم . غير أن هذه السياسة التي تعتمد على قبائل معينة دون الأخرى في العمليات الحربية جعلت الدولة في موقف ضعيف ، لأنها تفتقر الى الجيش المستقل عن القبائل كقوة ضاربة تقهر الجميع . ولكي تضمن الدولة ولاء بعض القبائل القوية لجأت الى منحهم الاراضي الخصبة اقطاعا ، كما اعطتهم حق فرض الاتاوات والضرائب على القبائل الضعيفة التي استسلمت للدولة ولانصارها . أما القبائل المتمردة فمجالها القفار الواسعة ، بعيدا عن الدولة وحلفائها . وقد تتصيد الفرص للاغارة والغزو ، طمعا في الخيرات التي يتنعم فيها انصار الدولة .

د ـ العلاقات بين القبيلة والدول الأخرى (خارج نطاق الدولة الحاكمة) :

فاذا رأى بعضهم في الأشكال السابقة من العلاقات شيئا من الشرعية فأن هذا الصنف الرابع من العلاقات يعتبر وصمة عار في جبين القبلية ببلاد المغرب ، خاصة عندما تعقد علاقات مريبة بين القبائل والدول النصرانية التي كانت تهدد ديار المغرب كافة . لقد انطلقت تلك العلاقات المخزية في البداية على شكل معاملات تجارية ، ولما كانت الانانية والشراهة من خصائص القبلية فقد تطور الأمر بالقبائل والدول المعادية الى حد اغماض الأعين عن احتلال مراكز تجارية قارة بسواحل المغرب ، ثم انتهى الامر كما هو معلوم الى احتلال المدن الساحلية الكبرى كسبتة ومليلة وطنجة ووهران وبجاية ، وجربة ، وطرابلس . . . الخ .

لقد استطاع النصارى احتلال بعض المدن الساحلية من بلاد المغرب الاسلامي كافة في اعقاب الضعف والوهن الذى انتاب الدول في تلك الديار ، وجاء ذلك بعد استفحال القبائل وتطاولهم على دول المنطقة ، فأضحت البلاد

ساحة للفوضى والعبث ،وتشتتت املاك الدول وظهرت بها كيانات وامارات قبليـــة صغيرة زاحمت الدول وتمردت عليها . وبالطبع فان القبلية تتحمل مسؤولية الانهيار الذى عرفته دول المغرب كلها ، كما تعتبر القبلية سببا مباشرا أو غير مباشر لاحتلال النصارى لسواحل البلاد . ولكى تكتمل الصورة يستحسن الاستشهاد بما ذكـــره الوزان فى هذا الامر . فعندما يصف مدينة تدنست بمقاطعة حاحا بالمغرب الاقصى يقول : ((وقد خربت تدنست عام 918هـ/ (1512م) وفرسكا نها بعضهم الــى الجبال وبعضهم الى مراكش ،لأن جيرانهم من الاعراب تواطؤوا مع قائد جيش ملك البرتغال المقيم بآسفى . وكان هؤلاء الاعراب يريدون تسليم المدينة للنصارى))(1). كما وصف بلدة أنماي بالقرب من مراكش وكيف انضم الاعراب الى البرتغاليين فى هجــومهم على المدينة ولكنهم فشلوا (2) . وكذا الحال بالنسبة لمدينة آسفى التى سقطــت بسبب خيانة رئيس من رؤساء القبائل المتمركزة بالمدينة (3) . وفى مدينة بلعـــوان على ضفاف أم الربيع بالمغرب نشبت معركة بين المسلمين والنصارى المعززين بالفين من الاعراب فانتهت المعركة بمجزرة كان ضحيتها المسلمون (4) . ولم يقف أعضاء القبائل عند هذا الحد بل تجاوزوه الى بيع انفسهم وأولادهم الى النصارى ،وفى ذلك يقول الوزان : ((الى أن احتل البرتغاليون آسفى وآزمور ،فثارت الفتــن بين القبائل وتفرقوا حزبين ،دمر ملك فاس أحدهما ،وقضى ملك البرتغال علــى الحزب الآخر ، كما نالت المجاعة السائدة فى افريقيا تلك السنة منهم كثيرا ،الــى أن هاجر العرب المساكين عن طواعية الى البرتغال يعرضون انفسهم كعبيـــد

(1) ـ الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ،ص : 99/100 .

(2) ـ أنظر الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ،ص : 137 .

(3) ـ أنظر الوزان : نفسه ، ج : 1 ،ص : 149/151 .

(4) ـ أنظر الوزان : نفسه ، ج : 1 ،ص : 155/156 .

لمن يحولهم ...))(1). ولا داعي للاكثار من الامثلة التي تملأ الكتب التاريخية لضيق المجال. ولكن المجال يستدعي التذكير بالادوار المخزية التي قامت بها بعض القبائل العربية والامازيغية في المغرب الاوسط حيث انحازت قبائل بني عامر وقبائل أخرى من زناتة الى الاسبانيين المتواجدين بوهران. وقد ورد شرح ذلك في كتاب المشرفي (2). كما أن المشاغبات والفتن التي تسببت فيها قبائل افريقية اضعفت الدولة الحفصية وألهتها عن التصدي للغزو النصراني (3).

هذه صورة موجزة توضح الملامح العامة للمجتمع القبلي بالمغرب الاسلامي مع مقارنة ذلك بمجتمعات قبلية أخرى. وقد اتضح بأن المجتمع القبلي بالمغرب لا يختلف في شيء عن المجتمع القبلي العربي بالمشرق.

---

(1) _ أنظر الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1 ، ص : 63.

(2) _ أنظر عبد القادر المشرفي الجزائري : بهجة الناظر في اخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الاعراب كبني عامر ، تحقيق محمد بن عبد الكريم.

(3) _ أنظر محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون ، ص : 178/179_185_186/193_196/198.

الفصل الرابع

قبائل المغرب الاسلامي ومواطنها

أولا : القبائل الامازيغية :

مازالت المصادر التاريخية عاجزة عن اقناع القارئ بالاصول الأولى للمجتمع الامازيغي (1) . ومع هذا فالمرجح أن أصول الامازيغ تعود الى سلالات مختلفة (2) تفاعلت واندمجت مع طول الزمن ضمن مجتمع واحد . والتسمية الحقيقية لأفراد هذا المجتمع ليست ((البربر)) كما أشيع واشتهر لأن هذه التسمية أطلقها عليهم الرومان (3) فورثها عنهم العرب الذين أعطوها مدلولا آخر يختلف عن المفهوم الروماني . حيث رد بعضهم أصل التسمية الى شخص يدعى بربر بن كسلوجيم ابن مصرائيم بن حام (4) . وبعضهم الآخر يرجع التسمية الى طريقة كلامهم ولغطهم وبربرتهم في الحديث (5) . وربما صحت تسميتهم بالامازيغ نسبة الى جدهم الأول (6) أو لصفة من صفاتهم بمعنى ((الاحرار)) .

---

(1) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص : 181/192 . شارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج : 1 ، ص : 65/70 . عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1 ، ص : 265/279 .

(2) ـ سلالات حامية ، وسامية ، وبحر أو سطية .

(3) ـ كان الرومان يطلقون هذه التسمية على الشعوب التي لا تنتمي لحضارتهم .

(4) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص : 184/185 . عبد الوهاب ابن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1 ، ص : 266 .

(5) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص : 176 . عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1 ، ص : 267/268 .

(6) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص : 191 .

وعبد الرحمن بن خلدون ينتهي الى حقيقة بعد أن عرض آراء المؤرخين والنسابة حول أصل الامازيغ فقال : ((والحق الذى لاينبغي التعويل على غيره فى شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح كما تقدم فى انساب الخليقة وأن اسم أبيهم مازيغ)) (1) . ومما يدعم رأى ابن خلدون أن القديس أوغسطين SAINT AUGUSTIN ينسب مجتمعه الى الكنعانيين أيضا ،حيث كتب فى احدى رسائله : ((اذا سألتم فلاحينا عن أصلهم سيجيبون : نحن كنعانيون)) (2) . فهذا النص كتبه فيلسوف من هذه الديار قبل الفتح الاسلامى بقرون (3) . ويتفق فيه مع أقوال ابن خلدون وغيره من مؤرخي المغرب ،وهم جميعا يعتمدون على معلومات تناقلها النسابة الامازيغ أبا عن جد (4) . وعليه فان الحقيقة ربما تكمن فيما قاله القديس اغسطين وابن خلدون (5) .

وينقسم المجتمع القبلى الامازيغي الى قسمين ،وجعل ابن خلدون كل قسم فى مرتبة جذم (6) ،وهما :

1 ـ جذم البتر ،نسبة الى مادغيس الابتر .

2 ـ وجذم البرانس ،نسبة الى برنس .

==

(1) ـ العبر ،مج : 6،ص: 191 . ويرى المستشرق بروكلمان بأن جد الكنعانيين هو سام وليس حاما . ويرى بأن اليهود هم الذين اقصوهم من شجرة سام والحقوهم بشجرة حام ،بسبب العداوة التى بينهم . (أنظر كتاب عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ،ج : 1،ص 36) .

(2) ـ أورد هذه الجملة بالفرنسية المؤرخ الفرنسى غوتييه فى كتابة (ماضى افريقيا الشمالية : ص : 139 .

((Si vous demandez à nos paysans ce qu'ils sont , ils repondent , : nous sommes des CHANANEENS)).

(3) ـ ولد بسوق أهراس سنة 354م ومات بعنابة سنة 430م .

(4) ـ يؤيد ابن حزم هذا الرأى فى جمهرته ص 495 .

(5) ـ ثمة من ينسب الامازيغ الى عرب اليمن ،وآخرون ينسبونهم الى عرب العدنان (أنظر ابن حزم : الجمهرة ،ص: 495 . والقلقشندى : نهاية الارب فى معرفة انساب العرب ،ص،ص: 119/115 . والمقريزى : البيان والاعراب ، ص،ص: 50/49 . والوزان : وصف افريقيا ،ج : 1 ،ص،ص: 35/34) .

(6) ـ العبر ،مج : 6،ص: 276 .

وقد اختلف النسابة في أمرهما ، فمن قائل بأنهما ينتميان الى أب واحد ، وقائل بخلاف ذلك (1) . وكل ما في الامر أن ابن حزم سرد آباء وأجداد مادغيس الأبتر (2) . وتغافل عن ذكر آباء برنس ، (3) غير انه أشار الى احتمال عودتهما لأب واحد وهو ((بر)) (4) . ولكنه يطعن في الرواية التي تنسب برا هذا الى قيس عيلان ، وقد وافقه في هذا الأمر عبد الرحمن بن خلدون . ونظرا لتضارب الاقوال وعدم ثبوت سلسلة الآباء عما بعد مادغيس الابتر وبرنس فان الباحث يكتفي بذكر القبائل التي تفرعت عن هذين الجذمين : البتر ، والبرانس ، علما بأن التقسيم الاصطلاحي المعروف لدى النسابة العرب لا يمكن اتباعه في هذا المجال لعدم وضوح المراتب في المجتمع القبلي الامازيغي ، وكل ما في الامر هو اعتبار المراتب المتدرجة عن البتر والبرانس بمثابة شعوب أو جماهير ، تتفرع بدورها الى قبائل ثم بطون . والتسميات هنا مجازية وليست اصطلاحات ثابتة . وكل ما في الامر هو الرغبة في التوضيح وسهولة الفهم .

1 - القبائل البترية :

فاذا كان النسابة الامازيغ والعرب قد نسبوا عبارة ((أبتر)) الى مادغيس (5) ، فان بعض الباحثين المحدثين لا يخفون شكهم في صحة ذلك . اذ منهم من يعتقد بأن هذه التسمية

---

(1) - أنظر ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص: 176/177 .

(2) - جاء في الجمهرة ((مادغيس بن هوك بن هرسق بن مازيغ بن هراكين هرياء ابن بدا بن بديان بن كنعان بن حام بن نوح)) (ص: 495) .

(3) - في كتاب مفاخر البربر سجلت اسماء آباء برنس هكذا : ((برنس سفكو بن وانوغ ابن خانوخ ... الى مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح (ص: 64) . وذكر ابن خلدون آباء برنس هكذا : ((برنس بن سحو بن ابزج بن جناح بن واليل ابن شراط بن تام بن دويم بن دام بن مازيغ بن كنعان بن حام)) . (العبر ، ج : 6 ، ص: 186) .

(4) - الجمهرة ، ص: 495 . ابن خلدون ، العبر ، ج : 6 ، ص: 176 .

(5) - مجهول : مفاخر البربر ، ص: 76 . ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص: 176-178-229 .

أطلقها الفاتحون العرب على القبائل الامازيغية التي ترتدي لباسا قصيرا ابترا ، فاضحت هذه التسمية علما لهم. وهذا التفسير لا سند له. ومنهم أيضا من يصر على اعتبار القبائل البترية قبائل وبرية تجري وراء النجعة . ويعتقدون بأنها تشكلت ضمن اتحادات قبلية،تعتمد في حياتها على الجمال والرحلة من مكان الى آخر ،وقد شجعها على ذلك بعض الاباطرة الرومان . وعليه فالقبائل البترية هي القبائل الوبرية (1) ،ومع هذا فان هذا الرأي لا ينطبق على القبائل البترية كافة ،حيث تعتبر بعض البطون من القبائل البترية قبائل مستقرة أي مدرية ،منها بطون من : نفزاوة ، ومطغرة ،ولواته ،وكومية ،ومغيلة ،ومديونة . . .الخ ،ويبدو أن مبعث هذا الاعتقاد هي النظرة الاولية لتلك القبائل التي تميزت في العصور الأولى بظاهرة الترحال ،غير أن بعض بطونها اختارت الحياة المستقرة فيما بعد . وما يستحق الذكر في هذا المجال ــ هو أنه كان لمادغيس الابتر ولد يدعى زحيك أو زجيك .وعن هذا الولد تفرعت القبائل الاربع . وهذه القبائل من الكبر والاتساع الى حد يمكن وضع كل حي منها في مرتبة أعلى من قبيلة (2) ، وربما تكون شعبا ، أو جمهرة .وذلك عند اتباع الترتيب الاصطناعي المعروف في علم الانساب . وهكذا فالاحياء التي تفرعت عن زحيك تنتسب الى ابنائه الاربعة وهم : اداس ، وضرا (أوضرى) ،ولوا ، ونفوس . واليهم نسبت أحياء : أداسة،وضريسة، وابناء لوا الأكبر (وهم لواتة ونفزاوة) ، ونفوسة .

1 ــ **اداســـة** : التحقت قبائل اداسة وبطونها بأحياء هوارة البرنسية، لأن أم اداس تزوجت بعد زحيك بن مادغيس بأوريغ بن برنس والد هوار حسب رواية ابن حزم (3) . وتفرعت عن اداس هذا قبائل عديدة لا داعي لذكرها لعدم الفـــائدة .

E.F.GAUTIER : Le passé de l'afrique du nord, PP : ــ (1) 242/244.-

جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج :2،ص : 30/27 .

(2) ــ جعلهم ابن خلدون مرة في مرتبة شعب ومرة أخرى في مرتبة جذم . العبر ، ج :6،ص : 179/178 .

(3) ــ الجمهرة ، ص : 496 . ابن خلدون : العبر ،ج :6 ،ص : 179 .

- **وطنهم** : وذكر ابن خلدون بأن مواطن بني آداس تدخل في مواطن هوارة بحكم الجوار والحلف . وكانت عند الفتح الاسلامي في جهات طرابلس وما يليها الى برقة ،وكان بعضهم مستقرا ،وبعضهم الآخر ظواعن طلبا للنجعة . وعليه فقد توغلت أحياء منهم في القفار ،فقطعت المفازة الكبرى متجاوزين بذلك أحياء لمطة ،محاذاة السودان (1) .

(2) - **ضريسة** :

وتنسب الى ضرى بن زحيك بن ماد غيس الابتر وتفرع عنها بنو فاتن ،واليهم تنسب قبيلة كومية الشهيرة ،مواطن بني فاتن في العهد القديم بالمغرب الاقصى ثم تفرقوا عبر المغربين الاوسط ،والادنى ،كما توغلوا في القفار . (2) ولضرى هذا ولدان هما : تمصيت ويحي ،وعن تمصيت تفرع بنو فاتن . وأهم قبائل فاتن :

أ- **كومية** : وهي -كما سبق- من بني فاتن ،وتنتهي الى ضرى بن زحيك ابن مادغيس الابتر . وكانت هذه القبيلة تعرف قديما بصطفورة . وتفرعت عنها ثلاث عمائر هي صغارة ،وندرومة ،وبني يلول . وقد انبثق عن عمارة صغارة بطنان هما : حياسة وماتيلة . وكومية هذه ،هي قبيلة عبد المؤمن بن علي الخليفة الموحدي ، وهو من بيت بني عابد المستوطنين بحصن تكرارات في الجبل المشرف على مدينة هنين في ناحيته الشرقية . وتتميز هذه القبيلة بكثرة العدد ،وشدة الشوكة ،في العهد الموحدي ،حيث كانت تشكل القوة الضاربة والرادعة في عهد عبد المؤمن ، فهي عصابته ودرعة . وقد انجر عن اعتماد الدولة على هذه القبيلة أن أكلتها الحروب وتوزع ابناؤها في الاقطار الواسعة ،فانقرضوا بالتدريج . وقد بقي منهم بعض الفئات الصغيرة كبني عابد المستوطنين بمواطنهم الأولى ، وهم من القبائل الغارمة الذين أذلتهم قبائل زناتة واماراتهم (3) . وقد ذكر عبد الواحد المراكشي

---

(1) - ابن خلدون : العبر ،مج :6 ،ص : 284/286 .
(2) - أنظر ابن خلدون : نفسه ،مج :6 ،ص : 239-244/245 .
(3) - ابن خلدون : نفسه ،مج :6 ،ص : 257 .

هذه القبيلة فذكر بانها كانت قبل ظهور الموحدين قبيلة كثيرة العدد ولكنها لم تصل الى مرتبة الرئاسة من قبل . بل كان أفرادها يتعاطون حرفة الفلاحة والتجارة البسيطة في الاسواق . (1) وبذلك يمكن تصنيفهم ضمن أهل المدر من سكان الارياف .

ـ **موطنهم** : موطنهم الاول هو منطقة ارشكول المحاذية لتلمسان والممتدة على شاطئ البحر، ومركزه جبال ترارة شمال غرب تلمسان (2) . ولما استولى الموحدون على مراكش واتخذوها حاضرة لسلطانهم استدعى عبد المؤمن كومية الى تلك الربوع ليكونوا درعا له وعصابة يشد بها ازره (3) .

ب ـ **لماية** : وهم من بني فاتن أيضا . وتعتبر لماية من أكبر قبائل ضريسة وأوسعها بطونا . ذكر ابن خلدون منها أربع بطون (4) . كبني زكوفا، وبني مدينين، ومزيزة، وزمليزة . وقد لعبت قبيلة لماية دورا بارزا في تاريخ المغربين : الاوسط والادنى، حيث اعتنق أفرادها المذهب الاباضي وشاركوا في حركة ابي الخطاب عبد الاعلى بن السمح عند تملكه طرابلس واستيلائه على القيروان بعد اخراج ورفجومة منها . ولما قتل ابو الخطاب لجأ عامله على القيروان عبد الرحمن بن رستم الى قبيلة لماية بالمغرب الاوسط بالقرب من جبل كزول، نظرا لكون هذه القبيلة من حلفائه الاولين (5) . وبالفعل اجارته لماية وحمته ضد اعدائه ثم شيدت له مدينة تيهرت حاضرة دولته وبايعته بالامامة . وظلت هذه القبيلة سندا للدولة الرستمية حتى سقطت فتشتت أفراد قبيلة لماية في الاقطار، وانقرض

---

(1) ـ أنظر عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص : 339.

(2) ـ أنظر عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب، ج : 1، ص : 309.

(3) ـ أنظر ابن خلدون : العبر، مج : 6، ص : 261.

(4) ـ العبر، مج : 6، ص : 246.

(5) ـ انظر ابن خلدون : نفسه، مج : 6، ص : 247.

جلهم بسبب الحروب . بقي من لماية فئات متفرقة وموزعة بين القبائل الاخرى . ومن هذه الفئات جربة التي سميت بها الجزيرة المعروفة في بحر الروم . وسكانها حتى عهد ابن خلدون من لماية (1) . كما أن قرية لماية التي تتوسط الطريق بين طرابلس وزوارة تحسب هي الأخرى لهذه القبيلة (2) . وقد نقل الشيخ مبارك الميلي عن ((البوراس)) مافاده : أن أهل فسرندة والحوارث من لماية ولكنهم تركوا المذهب الخارجي (3) .

- **مواطنها** : يقول ابن خلدون بأن لماية من القبائل الرحل ، فافرادها ظواعن بافريقيا والمغرب ، على أن جمهورهم يرتع في مراتع المغرب الاوسط ، في التخوم التي تلي الصحراء . ثم يحدد تلك المواطن بأرض السرسو ، جنوب منداس ، والى الغرب أرض زواغة . وفي الشمال والشرق مطماطة ، ومكناسة ، وزناتة .

- **مديونة** : (4) .

وهم من بني فاتن ولعبت فئات من هذه القبيلة أدوارا هامة في الاندلس ، بعد أن اجازوا اليها أيام الفتح . ومن امرائهم المعروفين جرير بن مسعود الذى شارك أباقرة وأباحاتم في ثورتهم على ولاة القيروان . ومنهم أيضا هلال بن ابزيا الذى خرج على عبد الرحمن الداخل بشنتمرية بالاندلس . ثم نابتة بن عامر . ولما تغلبت زناتة على ربوع المغرب الاوسط ، مدت سلطانها على مواطن مديونة وكانت هذه الأخيرة قد ضعفت بسبب تضاؤل عددها . وهكذا الزمت زناتة قبيلة مديونة بدفع الضريبة وأعطاء المغارم . ثم زاحمتها زناتة في مواطنها فالتجأت فئات من مديونة الى الحصون بجبل تسالة ، وجبل وجدة الذى يعرف بهم . ومع الايام بقي منهم من يتعاطى حرفة الفلاحة ، وبعضهم الاخر موزعون بين القبائل . ويوجد حي منهم بين فاس وصفروى ، مجاورين لمغيلة .

(1) - أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 250/249 .
(2) - أنظر عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1 ، ص : 309 .
(3) - أنظر تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، ج : 2 ، ص : 556 .
(4) - أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 257/256 .

ـ موطنها : يحدد ابن خلدون موطن جمهور مديونة بأطراف تلمسان ، وبالتحديد ما بين جبل بني راشد (جبل العمور حاليا) وبين جبل مديونة جنوب وجدة ، وهم ظواعن يرتحلون عبر هذه الضواحي والجهات . وموطنهم مجاور لبني يلومي ، وبني يفرن ، من جهة الشرق والى الغرب منهم مكناسة ، أما جهة الساحل فكومية وولهاصة .

د ـ مطغرة : (1) .

وينسبون أيضا لبني فاتن،يتميز هذا الحي بوفرة العدد ، وهم من القبائل المستقرة في الارياف ، وفي بعض الواحات والقصور ، وقد لعبت أدوارا خطيرة في تاريخ المغرب الاوسط ، حيث تزعمت هذه القبيلة الاحلاف الامازيغية التي ثارت على ولاة بني أمية ، بعد أن اعتنقت هي واحلافها المذهب الخارجي الصفري ، فثاروا جميعا بقيادة ميسرة المطغري مابعد العقد الثاني من القرن الثاني للهجرة ، فاشعلت هذه القبائل المتحالفة المغرب الاسلامي كافة بنيران الثورة والعصيان ، الامر الذي كاد أن يقضي على الوجود العربي تماما من هذه الربوع . وفي عهد الادارسة سجل التاريخ بعض الحركات المخالفة لهم من قبل مطغرة ، ثم انصاعت بعد ذلك لحكمهم . وقد انتهى بها الامر اخيرا الى الضعف وفرقة الحال ، فاندرجت ضمن قبيلة كومية في العهد الموحدى ، بحكم الجوار والحلف ، ثم اضحت بعد ذلك في عداد القبائل الغارمة .

وفي عهد بني عبد الواد حاول شيخ مطغرة هارون بن موسى بن خليفة انشاء امارة مستقلة لهم بندرومة ، ولكنه فشل امام قوة بني عبد الواد ، فالتجأ الى بني مرين ، ثم أجاز الى الاندلس بغرض الجهاد ، فاستشهد بتلك الديار . فخلفه على مطغرة اخوه تاشفين بن موسى بن خليفة الذى توارث ابناؤه رئاستها فيما بعد .

(1) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 239/245 .

غير ان ابن خلدون يذكر بأن فئات من مطغرة تسكن القصور الصحراوية جنـــوب تلمسان واختص بنو سيد الملك منهم برئاستها .

- **مـــواطنهم** : لقد تعددت مواطن هذه القبيلة وتنوعت ،فمنها ما هو بالتلول والجبال ،ومنها ما هو في الواحات والقصور الجنوبية . ففي البداية استوطـــن جمهورهم المغرب الاقصى ،ثم انتقل جمع منهم الى الاندلس عند الفتح ،فاستقـروا هناك . وبقي جمهور هم في تلول المغرب وصحرائه . فمواطنهم بالتل مجاذيـــة للبحر بجوار كومية ،حيث شيدوا حصنهم المعروف بتاونت . كما أن محاولتهم لاقامة امارة في ندرومة تدل على وقوعها في مواطنهم ،خاصة في العهد الذي تحالفوا فيه مع جيرانهم من كومية . ويقول ابن خلدون بأن بعض الاحياء من مطغرة تسكن بجبل يسمى مطغرة ،جنوب مدينة فاس . كما يوجد باطراف سجلماسة جمع كبير منهم . ثم يقول ((وربما حدثت بها عصبية من جراهم)) (1) . ويذكر أيضا بأن صحـــراء المغرب تشمل عددا كبيرا منهم ،يحترفون فلاحة النخل على الطريقة العربيـــة . كما أنهم متواجدون في شريط عريض من القصور المتتالية ،في الصحراء ،من سجلماسة الى توات ،الى القليعة التي يسكنها فريق من مطغرة . وهم مختلطون في تلـــك الربوع ببني عامر من زغبة ،اذ تعتبر تلك المواطن الممتدة جنوب جبل بني راشد من مجالاتهم ،واوطانهم المنسوبة اليهم .

هـ - مطماطـــة (2) :

وهم من بني فاتن . أن مطماط لقب لابيهم ،أما اسمه فهو مصكاب . وهذا الحي له بطون كثيرة جدا منتشرة في ربوع المغرب وافريقية قاطبة . هذا وقد كـان لمطماطة دور هام بالمغرب في عهد الدولة الزيرية ،حيث استفحل امـر هـــذا الحي في أواخر الدولة ،كما شاركت مطماطة في فتنة حماد بن بلكين . وكـــان

---

(1) - العبر ،مج : 6 ،ص: 245 .

(2) - أنظر ابن خلدون : العبر ،مج : 6 ،ص: 250/254 .

رئيسهم آنئذ عزانة ،الذى قاد قومه فى الحروب والايام التى دارت بينهم وبين جيرانهم من لواتة وغيرهم.وبعد موته خلفه ابنه زيرى الذى أجاز الى الاندلس بعد تغلب صنهاجة على المغرب ،فاستضافه المنصور بن أبى عامر ، ثم اصطنعه مع من انضم اليه من امراء الامازيغ . ومن رؤساء مطماطة أيضا ارها ص بن عصفراض، وفى عهده تم اخراج مندا س من موطنها ،واحلال مطماطة فيه . ومن اعيان مطماطة ومشاهيرها النسابة كهلان بن أبى لوابن يصلاتن الذى أجاز بدوره الى الاندلس ، ونزل عند عبد الرحمن الناصر بن أبى عامر . ثم النسابة الشهير سابق بن سليمان ابن حراث بن مولات ذوفاس ،وقد وصفه ابن خلدون بانه كبير نسابة الامازيغ ،كما أن عبد الله بن ادريس كاتب خراج الدولة الفاطمية فى عهد عبيد الله المهدى كان من مطماطة .

- مواطنهم : تنتشر مواطن مطماطة فى ربوع المغرب الاسلامى كلها . فبعضهم يسكن جنوب فاس فى جبل يسمى مطماطة ،ويربض بين فاس وصفروى . كما أن فئة منهم موجودة بنواحي قابس،حيث تعرف بهم بلدة غربيها على العين الحامية . وتسمى حمة مطماطة . كما أن قبائل افريقية تشمل بعض الاوزاع من هذه القبيلة . أما جمهور هذا الحي فكان يقطن بتلول مندا س الممتدة من جبل وانشريس الى جبل كزول باطراف تيهرت . وذكر ابن خلدون بأن مطماطة فى عهده نزحت عن مندا س بعد أن أخرجها من تلك الارض بنو توجين ،ولجأت الى جبل وانشريس . ويقول أيضا بأن مطماطة اصبحت من ضمن القبائل الغارمة (1) .

و - مغيلة : (2) .

وهم بدورهم من بنى فاتن من ضريسة ولعب هذا الحي دورا خطيرا فى

---

(1) - العبر ،مج : 6،ص: 254.

(2) - أنظر ابن خلدون : نفسه ،مج : 6،ص: 256/254.

القرون الاولى من الفتح ،حيث كانوا في مقدمة الثائرين على ولاة القيروان ،وربما كان ابو قرة زعيم الثوار منهم (1) . وقامت مغيلة أيضا بنشر دعوة ادريس الاكبر مع أوربة وغيرها ،فأخضعوا جزءا من المغرب لدولته ،ومن مغيلة هذه حي ملزوزة فهو تابع ،ومعدود ضمنها .

مواطنهم : ويمكن حصرها في منطقتين : الاولى بالمغرب الاوسط،حول مصب نهر الشلف بضواحي مازونة . ومن هذه المنطقة أجاز عبد الرحمن الداخل الى الاندلس. أما المنطقة الثانية فهي بالمغرب الاقصى ،وتمتد من مدينة فاس الى صفروى ومكناسة ،وتازة (2) .

هذا ما أمكن ذكره عن تمصيت (أو تمزيت) بن ضرى . أما اخيه يحيى ابن ضرى فهم بنو يحي بن ضرى بن زحيك بن مادغيس الابتر . وهؤلاء يتفرعون الى ثلاثة فروع هم : بنو جانا (أو شانا) (3) . وهم زناتة ،وبنو سمكان ،وبنو ورسطف . وجميعهم أولاد يحي بن ضرى . أما ابناء جانا فيأتي ذكرهم في مكان لاحق بعد الكلام عن بعض قبائل ورسطف أما قبائل سمكان (4) . فلا داعي لذكرهم لضيق المجال من جهة ،ولعدم الاهمية من جهة أخرى .

أ – ورسطف : وهو ورسطف بن يحي بن ضرى ،ويتفرع ابناؤه الى ثلاثة أحياء (5) هم : أركنة ،ومكناسة ،وورتناجة ،وسيقتصر الحديث هنا على مكناسة لدورها الهام في تاريخ المغرب ،أما البقية فلا أهمية لهما .

(1) – **مكناسة** : يقول ابن خلدون (5) بأن لمكناسة بطونا كثيرة بالاضافة الى بطون اخوتيها : أوكتة ،وورتناجة لكونهما عند مجتازن بكاملهما ضمن مكناسة .

---

(1) – ذكر ابن خلدون بأن هناك من ينسب اباقرة الى مغيلة وآخرون ينسبونه الى بني يفرن وهذا على ما يبدو هو الاصح . (العبر ،مج :6،ص:255) .

(2) – ابن خلدون : نفسه ،ج :6،ص:254/255/256 . وعبد الوهاب ابن منصور : قبائل المغرب ،ج :1،ص:310 .

(3) – ابن حزم : جمهرة انساب العرب ،ص:495 . وابن خلدون : العبر ، مج :6،ص:261/265 . مج :7،ص:4 .

(4) – سيقتصر الامر هنا على قبيلة واحدة ،وهي مكناسة لما كان لهذه القبيلة من أثر في تاريخ المغرب .

(5) – العبر ،مج :6،ص:265/280 .

ونظرا لكبر مكناسة يمكن وضعها فى مرتبة شعب. وقد لعبت ادوارا هامة وعديدة في تاريخ المغرب الاسلامي والاندلس ،حيث كانت لهم عصبة معتبرة في بلاد الاندلس، وكانت لهم أيام وثورات هناك ،بهدف انشاء دولة مكناسة في تلك الربوع ،وذلك من خلال ثورة شقيا بن عبد الواحد الذى تلقب بالفاطمي (1). وفي المغرب تمكنت بعض بطون مكناسة من اقامة دول وامارات منها : امارة بني واسول الصفرية بسجلماسة،(2) وامارة موسى بن ابى العافية بن أبي باسل بالمغرب الاقصى (بتازا وتسول وكرسيف)،(3) فمنذ منتصف القرن الثاني للهجرة اخذت عصبية مكناسة تقوى وتشتد حتى اضحت تهيمن على أرياف المغرب الاقصى وصحرائه ،وظهر من جراء طغيان تلك العصبية انها اخضعت قبائل عديدة لسلطانها ولارادتها ،فتدرج قبيل مكناسة بفضل عصبيته نحو اقامة دول متتالية في المغربين الاقصى والاوسط. فدولة بني واسول نشأت بعد تجمع فئة من مكناسة وبنائها لسجلماسة. وهذه الامارة تنسب أيضا لمدرار ،وهو أحد أمرائهم من ذوى الشأن والسلطان. أما دولة بني أبي العافية فقد نشأت بعد استفحال عصبية مكناسة في المغرب الاقصى بنواحي تازا وتسول وكرسيف. وكانت الرئاسة في مكناسة آنئذ بيد أبي باسل بن أبي الضحاك بن أبي يزول. وكان هذا الحي ظواعن بين ملوية وكرسيف ومليلة وما يتصل بها من التلول المنبسطة في جهات تازا وتسول. ومع مرور الايام اخذت هذه القبيلة تتطلع الى اقامة دولة بحكم عصبيتها المتغلبة على تلك المناطق ،بحيث اخذت تزاحم نفوذ الدولة الادريسية بفاس وامارة بني سليمان بن عبد الله بتلمسان. وبالفعل فقد تمكنت هذه القبيلة من تصديع صرح دولة فاس منتهزة فرصة هرم الدولة الادريسية وشيخوختها . وعليه فان رئيس قبيلة مكناسة موسى بن أبي العافية بن أبي باسل أعلن الحرب على الادارسة بفاس ،وبني سليمان بتلمسان ،فحدثت بينهم حروب وأيام انتهت بسقوط الدولتين وبروز دولة جديدة هي دولة بني أبي العافية تم ذلك بفضل الدعم الذى تلقاه المكناسيون من قبل الفاطميين الذين بعثوا الجيو...

---

(1) – خرج على عبد الرحمن الداخل سنة : 151هـ/768م وانتسب الى الحسن ابن على (العبر ،مج : 6،ص: 266).

(2) – أنظر ابن خلدون ،نفسه ،مج : 6،صص: 267/273.

(3) – أنظر ابن خلدون ،نفسه ،مج : 6،صص: 273/280.

المغرب الاقصى جيوشهم تحت قيادة ابن عم موسى بن أبي العافية وهو مصالة بن حبوس بن منازل . وبالطبع فقد اقتضت العصبية أن يتحالف أبناء العم ضد سلطان بني ادريس، وعليه فقد عزز مصالة قوة قومه من مكناسة بتوسيع نفوذهم وبسط سلطانهم على مقاطعات جديدة لم تكن لهم من قبل .

وقد كان بنو أبي العافية في بداية امرهم اتباعا للفاطميين ،ثم نقضوا عهدهم بعد ذلك ،وحولوه الى الامويين بالاندلس ،مما أدى الى ارسال الفاطميين حملة تأديب ضدهم ،فتذبذب أمر المكناسيين في الولاء للفاطميين حينا ،وللامويين آخر . ولكنهم ثبتوا اخيرا على الدعوة للامويين ،متحالفين في ذلك الامر مع قبيلة مغراوة المتغلبة على المغرب الاوسط . ولكن مغراوة هذه اصبحت فيما بعد قوة نافذة بحيث تغلبت على مكناسة نفسها ،وازاحتها عن حكم المغرب الاقصى ،لكن دخول بلكين بن زيري في مسرح الاحداث بالمغرب الاوسط قلب الكفة فعادت مكناسة الى البروز ،خاصة عندما اتصلت يدها بدولة بلكين . وبقي الحال هكذا حتى ظهرت عصبية أخرى أكثر قوة وعنفوانا وهي العصبية اللمتونية المعززة بالتعاليم الدينية فقضت على مكناسة ومغراوة معا ، وازالت نفوذهما عن ربوع المغربين : الاقصى والاوسط، وذلك سنة 463هـ/1070م .

أما الامارة الثالثة لمكناسة فهي امارة مصالة بن حبوس بن منازل بتيهرت والمغرب الاوسط (1) . وهذه الامارة – في الحقيقة – عبارة عن ولاية تابعة للدولة الفاطمية وهي منحة وَهِبَةٌ للمكناسيين ،ممثلين في شخص مصالة الذي كان احد القادة الافذاذ لدى الدولة الفاطمية ، فكوفئ على خدماته بتعيينه واليا على تيهرت والمغرب الاوسط . وخلفه بعد مماته اخوه يصلتن بن حبوس ،ثم تلاه ولده حميد بن يصلتن الذي تنكر للفاطميين واعلن دعوته لبني أمية ، وتحالف في ذلك الأمر مع بني خزر المغراويين . ولما توفي خلفه ابنه يصل ثم فياطن بن يصلتن ثم علي بن مصالة . وكانوا جميعهم موالين لبني أمية .

---

(1) – أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6،ص: 236 .

- **مواطنهم** : أما مواطن مكناسة فهي كما يحددها ابن خلدون بقوله : ((وكانت مواطنهم على وادي ملوية من لدن أعلاه بسجلماسة الى مصبه في البحر وما بين ذلك من نواحي تازا وتسول)) (1) . فقد كان جمهور مكناسة ظاعنين عبر تلك المواطن ، يرتحلون فيها طولا وعرضا . وقد سميت بهم مدينة مكناسة المغربية ، ويقول عبد الوهاب بن منصور بأن بعض البقايا من مكناسة ما زالت حتى الآن بالقرب من تازا وتدعى بهذا الاسم . كما أن قبيلة أخرى تدعى أيضا مكناسة ما زالت الى الآن بالقرب من مدينة عين موسى في ولاية وهران ، بالاضافة الى بعض الاوزاع منهم هنا وهناك في بلاد المغرب العربي (2) . أما ابن خلدون فيختم الحديث عن مكناسة بخلاصة ذكر فيها ما وصل به حالهم فقال بأنهم في عهده متواجدون في جبال تازا ، بعد أن استكانوا لسلطان الدولة ، فاعطوا الجباية بوفرة ، ومد والدولة بالمقاتلة والخيل . كما توزع بعضهم ضمن قبائل أخرى بافريقية والمغرب الاوسط (3) .

ب - **زناتة** : وبعد ابناء ورسطف بن يحي بن ضري يأتي دور ابناء جانا (أوزانا أو شانا) بن يحي بن ضري . ويعرفون بزناتة ، وهم على حد قول ابن حزم ثلاثة (4) . الديديت ، وورسيك ، وفريني . وقد تناسلوا وتكاثفت أحياؤهم الى حد أصبحوا به في مرتبة قبائل ، نظرا لقول ابن خلدون بأن كل حي منها يشمل بطونا عديدة متشعبة وكثيفة . وهذا الامر يضعهم في مراتب أعلى من مرتبة بطن اذا ما اعتمد الترتيب المتبع عند النسابة العرب . وابن خلدون عندما يتكلم عن زناتة يجعلها في مرتبة جيل (5) . كما يكثر من قول ((شعوب زناتة)) ، وهذا كله يدل على ضخامة زناتة ، وكثافة احيائهم ، وتشعبهم . اضف الى ذلك أنه خصص لزناتة حيزا كبيرا من كتابه العبر ، ويتمثل في المجلد السابع تقريبا ، بينما خصص لقبائل الاعراب بكاملهم مع بني هلال ، وسليم بالمجلد السادس ، وبالموازنة تظهر أهمية زناتة .

---

(1) - العبر ، مج : 6 ، ص : 265 .
(2) - قبائل المغرب ، ج : 1 ، ص : 312 .
(3) - العبر ، مج : 6 ، ص : 280 .
(4) - جمهرة انساب العرب ، ص : 496 .
(5) - العبر ، مج : 7 ، ص : 3-9-13-14-16 .

- مدلول زناتة ونسبها : يستعمل ابن خلدون كلمة ((زناتة)) باسلوب يبعث على الاعتقاد بأنها مقابلة للامازيغ ومتكافئة معهم . ففي المقدمة يقول في فصل أن جيل العرب في الخلقة طبيعي ((هؤلاء هم العرب وفي معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والاكراد والتركمان والترك بالمشرق)) (1) . ويقول أيضا : ((فاما أولية هذا الجيل (زناتة) بافريقية والمغرب فهي مساوقة لاولية البربر منذ احقاب متطاولة لايعلم مبدأها الا الله تعالى)) (2) . ((وملك الافرنجة بها يومئذ جرجير فظاهره زناتة والبربر على شأنه)) . (3) وثمة أمثلة أخرى من هذا النوع . ويبدو أن ابن خلدون ساير نسابة زناتة في اعتقادهم بنسبهم العربي ، وأن كان لايؤمن بادعاءاتهم . ويمكن توضيح ذلك من خلال الاعتقاد السائد لدى زناتة بأنهم ليسوا من الامازيغ ، وأنهم يمتون الى العرب في نسبهم وبالتحديد الى حمير (4) . لذا فهم عندما يتكلمون عن سكان المغرب يقولون : زناتة والبربر . فزناتة - كما سبق - تنتسب - الى زانا (أو جانا) ابن يحي بن ضرى بن مادغيس الابتر . وثمة يتصل نسبهم بحمير ، أو الى قيس عيلان ، أو الى جالوت (5) . ولكن ابن حزم وابن خلدون ينكران ذلك الزعم ، ويرجحان القول بنسبهم الى كنعان ابن حام (6) ، كبقية الامازيغ . والظاهرتان المميزتان لزناتة يحددهما ابن خلدون في أسلوب المعيشة وفي اللهجات .

- اسلوب المعيشة : تعتمد زناتة في حياتها على النجعة والظعن عبر السهوب والفيافي . فهم كالاعراب - يتخذون الخيام سكنى لهم ، ويكسبون الابل والخيل ،

---

(1) - المقدمة ، ج : 2 ، ص : 583 .
(2) - العبر ، مج : 7 ، ص : 14 .
(3) - نفسه ، مج : 7 ، ص : 15 .
(4) - أنظر ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص : 600 . والعبر ، مج : 7 ، ص : 9/7 . ولم يقتصر هذا الادعاء على زناتة فقط ، بل نسبه الى انفسهم عدد كبير من الامازيغ ، بترا كانوا ، أم برانس .
(5) - أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 7 ، ص : 9/4 .
(6) - الجمهرة ، ص : 495 . والعبر ، مج : 7 ، ص : 7 .

وفي ذلك يقول ابن خلدون : ((وهم لهذا العهد آخذون من شعائر العرب في سكنى الخيام ،واتخاذ الابل،وركوب الخيل ،والتقلب في الارض،وايلاف الرحلتين ، وتخطف الناس من العمران ،والاباية عن الانقياد للنصفة ..))(1).
اذن فحياتهم شبيهة بحياة الاعراب ،وحتى النزعة المتطرفة التى لاتميل الى التسليم بحق الغير ،والانسياق وراء التعدى والغزو والاغارة على العمران هى من خصائصهم ايضا ،مثل ما هو حال الاعراب بالضبط .

- **اللهجــــات** :أن اللهجات التى تتكلمها زناتة تختلف عن لهجات الامازيغ الاخرى . (2) وثمة أبحاث تقول بأن لهجاتهم تنتمى الى أصول لسانية سامية وتلتقى مع اللغة العربية فى بعض الخصائص المشتركة (3) . وبالطبع فان هاتين الظاهرتين تبعث على الاعتقاد بأن زناتة قدمت الى المغرب من المشرق فى عهود ليست بعيدة . وربما تتزامن مع ظهور الجمل فى هذه الربوع فى أواخر القرن الثالث ،وبداية القرن الرابع للميلاد (4).

ومعنى كلمة زناتة عالجه ابن خلدون فى بعض الفقرات من العبر ،حيث توصل الى حقيقة وهي أن الحرف الاول من الكلمة ليس جيما ولا زايا ،بل هو حرف ينطق بين الجيم والشين ،ويميل فى النطق الى السين ،ولصعوبة النطق به ابدلوه زايا فقالوا : زانا ،ثم اضافوا تاء ،لانهم يضيفون حرف التاء فى آخر الكلمة عندما يتعلق الامر باسم الجنس،فى حال التعميم . فقالوا : ((زانات))(5). وهي جانات (6) ،بنطق العرب . وهذا الاسم - فى الحقيقة - لم يكن معروفا بشكل واضح قبل الفتح الاسلامى . ومع هذا فلا يستبعد وجود هذه التسمية فى

---

(1) - العبر ،مج : 7،ص: 3.
(2) - فى ذلك يقول ابن خلدون : ((وشعارهم بين البربر اللغة التى يتراطنون بها ،وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر)). (العبر ،مج : 7،ص: 3).
(3) - GAUTIER , LE PASSE DE L'AFRIQUE DU NORD, P. 218.
(4) - أنظر محمد عميرة : دور زناتة فى الحركة المذهبية بالمغرب الاسلامى، ص: 24. - 195/194.
(5) - العبر ،مج : 7،ص: 13/14 . وينتسب الى زناتة ((واصل الزناتى)) ، قرب قسنطينة .
(6) - قد تكون مدينة جانات بالجنوب الشرقي من الجزائر منسوبة الى هذا الجيــل .

العهد البيزنطي ، وأن صعبت البرهنة عليه . ذلك أن العثور على بعض التسجيلات المكتشفة بالشلف ، وشرشال تذكر اسما أمازيغيا هو ((كلود يوس زناتوس)) CLAUDIUS، ZENATUS (1) . وهذا يدل على وجود تسمية زناتة في العهد البيزنطي . ولكن هذا لا يكفي ، لأنّ شاهدا واحدا كهذا لا يجلي الحقيقة كلها . غير أن ابن خلدون يرى بأن أولية زناتة تعود الى حقبة بعيدة في التاريخ . وهي متماشية – في القدم – مع قدم الامازيغ كافة (2) . ويذكر بأن زناتة كانت تؤدي بصورة ما للرومان فروض الطاعة على شكل خراج مؤقت ومقاتلين يحاربون الى جانبهم ((ويمتنعون عليهم فيما سوى ذلك)) (3) . اذن فزناتة قد تكون معروفة في العهد الروماني ؟ وربما كانت في عداد القبائل الابالة ، ذات النجعة الموغلة في الصحراء ، والتي ظهرت في أواخر العهد الوندالي (4) . تلك القبائل التي استعملت الجمال في حربها ضد الوندال والبيزنطيين .

– **مواطنها** : لقد حدد ابن خلدون مواطن زناتة بصورة عامة ضمن ما يعرف بالمغرب الاوسط لأنه منسوب اليها ، ومعروف بها . ومع هذا فقبائل زناتة متواجدة في اقطار المغرب كافة . على أن جمهورهم متواجدون في المناطق التي تنبت فيها النخيل ، ما بين غدامس والسوس الاقصى . كما يتواجدون أيضا بتلول افريقية ، وطرابلس ، وجبل أوراس ، ثم يقول ابن خلدون : ((والاكثر منهم بالمغرب الاوسط ، حتى أنه ينسب اليهم ويعرف بهم فيقال : وطن زناتة . ومنهم بالمغرب الاقصى أمم أخرى ، وهم لهذا العهد أهل دول وملك بالمغربين ((الأقصى والاوسط)) . وكان لهم دول أخرى في القديم)) (5) .

(1) – GAUTIER, LE PASSE DE L'AFRIQUE DU NORD, P : 223 .
ومحمد بن عميرة : دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الاسلامي ، ص : 15 .
(2) – العبر ، مج : 7 ، ص : 3 . 14 .
(3) – نفسه ، مج : 7 ، ص : 15 .
(4) – GAUTIER , IBID : P, 195.
وشارل أندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج : 1 ، ص : 348/349 . ج : 2 ، ص : 27 . ومحمد بن عميرة : دور زناتة في الحركة المذهبية ، ص : 27 .
(5) – العبر ، مج : 7 ، ص : 4 .

- **دور زناتة في المغرب** : يبدأ دور زناتة بوضوح بعد الفتح الاسلامي حيث أخذت هذه التسمية تتردد في كتابات المؤرخين بعد ذلك (1) . وابن خلدون يبرز دور زناتة من خلال حديثه عن الفتح الاسلامي لسبيطلة حاضرة جرجير (2) . ثم ينتقل الى المقاومة التي أعلنتها الكاهنة (وهي من زناتة) . ودور زناتة في المغرب الاسلامي يمكن اجماله ضمن الادوار التي قامت بها فروع زناتة كجراوة ، وبني يفرن ، ومغراوة ، وبني عبد الواد ، وبني مرين ، وبني توجين .

1) - **جراوة** : وهم ابناء جراوة بن الديديت بن زانا . وقد برز دور جراوة منذ بداية الفتح الاسلامي ، وذلك من خلال المقاومة التي تزعمتها هذه القبيلة بقيادة الكاهنة (وهي دهيا بنت تابتة بن تيقان بن باورا بن مصكري بن أفرد ابن وصيلا بن جراوة) (3) . وربما كان مقتل عقبة بن نافع بايعاز من الكاهنة التي حرضت سكان تهودة على قتال المسلمين (4) . ولما كان المسلمون يعرفون ذلك فانهم سارعوا - بعد هزيمة كسيلة - الى غزوها في عقردارها بجبال أوراس . وقد تمكنت جراوة وحلفاؤها من القبائل البترية في بداية الامر من صد المسلمين ، ولكنها خسرت الحرب في النهاية حيث قتل المسلمون منهم حوالي مائة الف كما ذكر المؤرخون (5) . وبعد هذه الهزيمة تفرق شمل جراوة وانتشر امرهم ، حيث توزعوا ضمن القبائل الامازيغ الاخرى ، فاضحوا في عهد ابن خلدون اوزاعا بين القبائل ، فمنهم من حل بسواحل مليلة بالمغرب الاقصى ، حيث المدينة المنسوبة اليهم . وقد أظهروا دور جراوة للمرة الثانية في مسرح الاحداث عندما استجاريهم الحسن بن أبي العيش أمير تلمسان

---

(1) - أنظر ابن عميرة : دور زناتة في الحركة المذهبية ، ص ص: 24/46 .

(2) - العبر ، مج : 7 ، ص : 15 . وما بعدها .

(3) - أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 7 ، ص: 17 ، ومابعدها وعبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج : 1 ، ص ص: 148/149 . وموسى لقبال : المغرب الاسلامي ، ص ص: 61 / 67 .

(4) - ابن خلدون : العبر ، مج : 7 ، ص: 18 . موسى لقبال : المغرب الاسلامي ، ص : 63 .

(5) - أنظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ : ج ، 4 ، ص: 32 . وابن عذارى : البيان المغرب ، ج : 1 ، ص ص: 35/39 . وجوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج : 2 ، ص ص: 24/26 . وموسى لقبال : المغرب الاسلامي ، ص: 61/67 .

بعد هزيمته أمام أمير مكناسة ابن أبي العافية (1). وهم الى ذلك العهد مقيمون بتلك الديار، ومنذ رجون ضمن قبيلة يطوفت وغيرهم من أحياء غمارة.

2) - بنو يفرن : وهم ابناء يفرن بن يصلتين بن مسرا (أو مصرا) بن زاكيا ابن ورسيك (أو ورسيج) بن الديديت بن زانا. وكانوا في بداية الفتح الاسلامي ضمن القبائل الامازيغية المتحالفة مع جراوة بهدف مقاومة المعلمين (2). وبعد هزيمة ذلك الحلف، ومقتل الكاهنة وتفرق شمل القبائل في أقطار المغرب، تعرض بنو يفرن للمصير نفسه.

وبعد فترة برز بنو يفرن من خلال الاحلاف القبلية الامازيغية الاخرى التي ثارت على الامويين ثم العباسيين (3). بقيادة كل من : مسيرة المطغرى، وعبد الحميد ابن حميد الزناتي، وابى قرة اليفرني. كما ظهروا أيضا ضمن الاحلاف القبلية التي ثارت على الدولة الفاطمية. وكانت تلك الاحلاف بقيادة أبي يزيد مخلد اليفرني (4). وقد بلغ تأثير هذه الثورة في الدولة الفاطمية أنها كادت أن تسقطها نهائيا، لولا بعض النزعات السلبية التي تفرق من جرائها جل القبائل عن أبي يزيد. ومع هذا استطاعت قبيلة بني يفرن أن تصل برؤسائها الى مرتبة الملك، حيث أقامت دولا (5). صارعت الفاطميين والامويين طمعا في الاستقلال، ولكن تعذر ذلك عليهم، نظرا لتضارب المصالح بين القبائل والبطون الزناتية، حيث لم تتمكن اية عصبية من احتواء العصبيات الصغرى الاخرى. ومواطنهم كانت في البداية بافريقية، وجبال الاوراس

(1) - العبر، مج : 6، ص : 275/276، مج : 7، ص : 18.
(2) - أنظر ابن خلدون : العبر، مج : 7، ص : 18.
(3) - أنظر ابن خلدون : العبر، مج : 7، ص : 25/26. جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية، ج : 2، ص : 39/40. ولقبال : المغرب الاسلامي، ص : 155/174.
(4) - أنظر ابن خلدون : العبر، مج : 7، ص : 35/36.
(5) - دولة يعلى بن محمد بن صالح بمدينة ايفكان. ودولة يدو بن يعلى بفاس ثم سلا بعد، ودولة ابي نوار بن ابي قرة برندة في بلاد الاندلس.

والمغرب الاوسط بجهات تلمسان وتاهرت، ثم انتقل جلهم الى المغرب الاقصى، حيث اقاموا دولة في فاس وسلا (1).

وجملة القول أن بني يفرن قد ضعف حالهم بعد العز والسلطان فتفرقت أحياؤهم عبر بلاد المغرب والاندلس. وقد عرف منهم ابن خلدون حيا بافريقية يدعى مرنجيصة، بعد أن وهنت عصبيتهم، وضاعت عزتهم، فاضحوا في عداد القبائل الغارمة. وكانت مواطنهم ما بين القيروان وتونس، حيث كانوا ظواعن في تلك الجهات ينتجعون الكلأ، ويرعون الشاء والبقر، كما يتعاطون الفلاحة في بعض الحالات. وقد الزموا في عهد الدولة الموحدية بدفع المغارم، وتقديم حصة من المقاتلة للدولة عند الحاجة. هذا وقد تسلط عليهم حي من بني سليم يسمى الكعوب، بعد أن استنجدت بهم الدولة الحفصية ضد الدواودة من أحياء رياح، فاقطعتهم المنطقة ما بين قابس وباجة. فاضحت مرنجيصة — بذلك ضمن اقطاعاتهم، فالزموهم دفع الخراج والمغارم لهم، دون الدولة، بل فرضوا عليهم تقديم حصة من المقاتلة عند الحاجة، لتكون معهم في حروبهم.

(3) — **مغراوة:** وهم ابناء مغراو بن يصلتن بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك ابن الديديت بن زانا. أثناء الفتح الاسلامي سقط أميرهم خزر بن حفص بن صولات وأزمار أسيرا في أيدي المسلمين (2). حيث نقل الى المدينة اين اسلم على يدي عثمان رضي الله عنه، فاضحى من مواليه. ومنذ ذلك العهد اختصت مغراوة بالولاء لبني أمية، وبعد قيام الدولة الادريسية انحازت اليها مغراوة وسلمت لها مقادة الأمور في تلمسان، واكتفى امراؤها بمرتبة الرئاسة على بطونهم عبر الأرياف والبوادي وقد اخلصت مغراوة الطاعة في البداية للادارسة، ثم نقلتها بعد ذلك الى بني أمية، بالاندلس، بعد ظهور الدولة الفاطمية وهرم دولة الادراسة. هذا وقد عرفت مغراوة فتنا عديدة وصراعات شديدة بينها وبين الدول المتواجدة آنئذ بالمغرب

(1) — العبر، ج: 7، ص: 22، وما بعدها.
(2) — أنظر مفاخر البربر، لمؤلف مجهول، تحقيق بروفنسال، ص ص: 5، 46. ابن خلدون: العبر، ج: 7، ص ص: 50/51—55. غير أن صاحب العبر، يقول. أنه صولات بن وزمار. أما صاحب روض القرطاس فيرى أن هذا الامير من بني يفرن وهو حرب بن حفص صولات بن وزمار اليفرني (ص: 54).

الاسلامى : كالدولة الفاطمية والدولة الصنهاجية (الزيريرة والحمادية) . هذا بالاضافة الى الحروب الطاحنة بينهم وبين اخوتهم من بنى يفرن ، لانهما كانا يسعيان الى اقامة دولة تخضع القبائل الاخرى لسلطانها . ونظرا لتكافؤ العصبيتين فقد تعذر حسم الحرب فى صالح احد الطرفين . ومع هذا فقد تمكن كل طرف من انشاء دول . فدول مغراوة هي : دولة بنى خزر بتلمسان والمغرب الاوسط ، ودولة بنى زيرى بن عطية بفاس ، ودولة بنى خزرون بن فلفول بسجلماسة ودولة بنى خزرون بن فلفول بطرابلس ، ودولة بنى يعلى بن محمد بتلمسان . ويضاف الى هذه الدول بعض الامارات المغراوية الصغيرة فى المغرب الاقصى والاوسط .

ومواطن مغراوة ممتدة من تلمسان الى الشلف ، وحتى جبل مديونة (1) . ثم امتد سلطانهم بعد ذلك على المغرب الاوسط ، وجزء كبير من المغرب الاقصى . وبعدها اخرجهم الصنهاجيون عن المغرب الاوسط .

تلك هي الطبقة الاولى من مغراوة أما الطبقة الثانية فقد ظهرت بعد أن تسرب الوهن والضعف للدولة الموحدية . حيث برزت مغراوة للمرة الثانية من خلال امارة بنى منديل (2) . فى الشلف ومتيجة . غير أن امارتهم هذه كانت تتميز بالطابع البدوى ، وكانت ضعيفة الى الحد الذى جعلها لقمة سائغة التهمتها الدولة العبد الوادية فيما بعد .

4) ـ **بنو يرنيان** : (3) : وهم بنو يصلتن بن مسرا (أومسرا) بن زاكيا ابن ورسيك بن الديديت ، ومن بطونهم بنو وطاط . وكان بنو يرنيان من أشد القبائل شكيمة وجهادا ، حيث أمدوا الدولة الاموية بالاندلس بأقوى الجنود واصدق المجاهدين . وكانوا أيضا سندا لاخوانهم مغراوة . وقد تحالف بنو يرنيان مع بنى مرين وجاوروهم بالقفر فى عهدي : المرابطين والموحدين ، وكانوا سندا قويا

---

(1) ـ ابن خلدون : العبر ، مج : 7 ، صفحة : 50 . ومابعدها .
(2) ـ أنظر ما كتبه ابن خلدون عن هذه الدولة فى العبر ، مج : 7 ، صص : 131 / 146 .
(3) ـ ابن خلدون : نفسه ، مج : 7 ، صص : 101 / 103 .

لهم عند اسقاط الدولة الموحدية ،فشاركوهم في مناصب الدولة ، وخصوا بعض بيوتهم بمرتبة الوزارة ،واستعملوهم في مناصب الحكم و مراتبه .

ومواطن بني يرنيان الاصلية تمتد بين سجلماسة وكرسيف على ضفاف ملوية ، حيث كانوا مجاورين لمكناسة . وفي عهد ابن خلدون كانوا متواجدين بالجبال المشرفة على وادي ملوية ،من ناحية الجنوب ،وينتشرون في القصور الممتدة في تلك الجهات من ملوية الى تازة وفاس. وفي عهد المرابطين والموحدين من بعدهم نزح الظواعن من بني يرنيان الى القفر،وبقي منهم العاجزون عن الظعن : كبني وطاط، وغيرهم ، حيث خضعوا للدولة وانصاعوا لفروض الطاعة و التزموا بدفع المغارم و الجبايات.ولما استولى المرينيون على سدة الحكم في المغرب الاقصى اقطعوا بني يرنيان البلد الطيب، في اطراف سلا و المعمورة ،بالاضافة الى موطنهم الاصلي بملوية . ومن رؤسائهم في ظل الدولة المرينية : الوزير ابراهيم بن عيسى وأولاده : مسعود ،وحسون ، وموسى،وقد تقلد هذا الاخير منصب الوزارة في عهد ابي الحسن ، بينما اسندت اعمال السوس لكل من : مسعود وحسون بالتوالي . ثم محمد السبيع بن موسى الذى رشحه ابو عنان للوزارة ،وقد تقلدها أيضا في عهد السلطان عبد الحليم الحلي بن أبي علي، وبعدها بقي في مرتبة سامية في الدولة .

(5) ـ **وجديجن** :وهم أولاد ورتنيص بن زانا . ويقول ابن خلدون بأن هذا الحي قد أضيف الى زناتة من قبل نسابتها (1) .

ومن اشهر رؤساء وجديجن الشيخ عنان ،الذى أعلن الحرب على لواته بسبب امرأة وجديجنية (2) . وقد لقي حتفه في تلك الحروب . أما مواطنهم فبمنداس حيث يجاورهم بنو يفرن من جهة الغرب ،ولواته من جهة الجنوب في السرسو، ومطماطة من جهة الشرق بالونشريس . ولما تغلبوا على لواته استولوا على أراضيهم وظلوا هنا لك

---

(1) ـ العبر ،مج : 7،ص: 11 .

(2) ـ انظر ما قبله .

حتى تغلبت عليهم إحياء بنى يلومى وبنى ومانوا .

(6) _ **وامـسـرته** : ويعرفون بغمرت (أو غمرة) هم ايضا ابناء ورتنيص بن زاناء وكان هذا الحي من اوفر الاحياء عددا . وقد إنضموا الى أبي يزيد في ثورته على الفاطميين ،فكان جزاؤهم بعد فشله أن تعرضوا للتصفية،والقتل ،والتشريد من قبل عاهل الدولة الفاطمية إسماعيل : (المنصور) آنئذ ،ثم اكمل مهمة الاثخان فيهم بلكين بن زيري سيد صنهاجة ،فساءت حالهم بعد ذلك ،وخاصة عند اجتياح ديارهم من قبل بني هلال الذين أجبروهم على الاعتصام في الجبال الجنوبية من المسيلة ،حيث تركوا الظعن واستقروا في القرى والمدن ،فضعفت بذلك عصبيتهم ، وانقادوا الى غيرهم من القبائل الهلالية ،مثل الدواودة الذين اقطعتهم الدولة الجبال التي تسكنها واغمرت ،فأصبحوا بذلك من القبائل الغارمة التي تدفع مغارمها الى قبيلة الدواودة . أما مواطنهم فكانت في بداية الامر جنوب بلاد صنهاجة . من المشتتل الى الدوسن ،غير أن الاحداث التي مرت بهم اجبرتهم على ترك تلك الديار لغيرهم ،والاكتفاء بالجبال الجنوبية لمدينة المسيلة .

(7) _ **بنو وامانـــوا** : ذكر ابن خلدون بأنه لا يعرف تسلسل نسبهم ،وان كان قد جعلهم من زناتة ، تبعا لروايات النسابة (1) . وبنو وامانوا هؤلاء كانوا حلفاء لاخوانهم وجيرانهم بني يلومي ،حيث تمكن الحيان من التغلب على ربوع المغرب الاوسط . ولا يفوقهم من زناتة آنئذ في القوة وكثرة العدد سوى بني يفرن ومغراوة . ولما أجبر بلكين بن زيري زناتة على النزوح الى المغرب الاقصى بقي بنو وامانوا واخوانهم بنو يلومي في مواطنهم ،حيث حالفوا صنهاجة ،وانضموا اليهم في حروبهم . وقد أصهر المنصور بن الناصر بن علناس الصنهاجي الى بني وامانوا في أخت شيخ القبيلة ماخوخ ،فتعززت بذلك أواصر القربى بين الدولة والقبيلة . ولكن الخلاف دب بين الطرفين عندما ظاهرت قبيلتا : بني وامانوا وبني يلومي المرابطين ضد الدولة الحمادية فانتقم المنصور من صهره ،فقتل زوجته أخت شيخ القبيلة ماخوخ . وذلك بعد فشله

---

(1) _ العبر ،ج : 7،ص: 11/114_119 .

في عملياته الحربية ضـد القبيلتين : بني يلومي وبني وامانوا . ولما توفي المنصور وتولى العزيز بعده رجع بنو وامانوا الى طاعة الدولة الحمادية وأصهر اليهم كذلك العزيز ،فتزوج ابنة ما خوخ . ولم يدم الحلف بين بني وامانوا وبنو يلومي طـويلا ، حيث نشبت بينهما الفتن ،انضمت اليهما احياء أخرى من زناتة . وكان بنو وامانـوا متذبذ بين في ولائهم للدولة ،فهم احيانا مع صنهاجة ،وأحيانا أخرى مـــع المرابطين ،وأخرى مع الموحدين وقد ينتهزون أدنى فرصة تمنح لهم لكي يتنكروا لطرف ما ،ويقدمون الولاء لطرف آخر . ومع مرور الوقت أخذ الضعف والوهن يدب فيهم بسبب الفتن والحروب التي أكلت خيارهم ،فأضحوا مغلوبين لقبيلتي توجيـن وبني عبد الواد . وقد بقي من بني وامانوا بطن يعرف ببني يالدس وهم الذيـن اختطوا قصور توات ، وتيكورارين جنوب المغرب الاوسط ،حيث يتعاطون فـلاحة النخيل . ولهم اساليب خاصة بهم في استنباط المياه اد هشت الذين اطلعـوا عليها (1) . وهذا الاسلوب متبع أيضا في وركلا وريغ . أما مواطنهم فهي فـي المغرب الاوسط في شرق وادي مينا بمنداس ،وحتى أسافل الشلف . ويجاورهـم على الضفة الغربية لوادي مينا بنو يلومي . كما يسكن بطن منهم وهم بنو يالدس في قصور توات وتيكورارين .

(8) ـ **بنـو يلومي** : كل ما قيل عن بني وامانوا ينطبق على بني يلومي ،لأن هذين الحيين جمعهما مصير واحد ،نظرا لتلاحمهما وتحالفهما ، بالاضافة الى النسب الواحد الذي يجمعهما . ويرى بعضهم أن بني يلومي وورتاجن اخوان ، وورتاجن هو أبو مرين . (2) . وعليه فقد أضحى بنو يلومي يشاركون بني مرين في عصبيتهم

وحدث خلاف فيما بعد بين الحيين (بني يلومي وبني وامانوا) ،فنشبت بينهما فتن دامية ،شارك فيها بعض الاحياء من زناتة ،حيث انضم كل حليف الى حليفه . كما تباين ولاؤهم للدولة ،حيث انضم ـ في البداية ـ وامانوا الى الموحدين . أما بنو يلومي فقد مالوا بولائهم للمرابطين . وتسببت تلك الفتن والحروب خاصة في عهد

---

(1) ـ انظر ابن خلدون : العبر ،مج : 7 ،ص : 119 .

(2) ـ انظر ابن خلدون : نفسه ،مج : 7 ،ص : 114 .

الدولة الموحدية في اضعاف شأن بني يلومي واخوانهم بني وامانوا ،حيث انقرض عزهم ،ووهنت شوكتهم ،فاضحوا أوزاعا بين القبائل الزناتية .

والرئاسة في بني يلومي يمكن حصرها في بيت أمير الناس ،من خلال ولديه سيد الناس ،ويدرج . أما مواطنهم فهي بالمغرب الاوسط أيضا ،في الضفة الغربية لوادي ميناء ،بالجعبات ،والبطحاء ،وسيك ،وسيرات ،وجبل هوارة ،وجبل بني راشد .

(9) - **بنو واسين** (1) : وهم ابناء واسين بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا . اشتهروا بفرعيهم : بادين ،وورتاجن . فمن بادين تفرع بنو عبد الواد ،وبنو توجين ،وبنو زردال ،وبنو مصاب . أما ورتاجن فصدر عنه بنو مرين . وبقي بنو راشد وهو أخ لبادين ،وقد اندرجوا في بني عبد الواد . وقد ساند بنو واسين ابا يزيد في ثورته على الفاطميين ،حيث حاصروا توزر كما أمرهم (2) ، وربما انضم بنو عبد الواد منهم الى عقبة بن نافع في ولايته الثانية وابلوا معه في الجهاد (3) . وبنو واسين كانوا في البداية مغلوبين للطبقة الاولى من زناتة ،وأن اعتزوا ببداوتهم اذ كانوا من أهل الظعن ،وسكنى الخيام ،حيث ينتجعون في السباسب والسهوب بربوع المغرب وافريقية ،ما بين ملوية والزاب . ولما أخرج الصنهاجيون أهل الطبقة الاولى من زناتة عن المغرب الاوسط ،ظل بنو واسين هؤلاء في منتجعهم معتزين ببداوتهم ومنعتهم عن قهر الدولة . الى العهد الموحدي . وما أن دب الهرم في الدولة الموحدية حتى شرعوا في الاستبداد ،والتطلع لمراتب الملك .

ومواطن بني واسين تنتشر في ربوع افريقية والمغرب الاوسط . فقد كانوا بجهات قسطيلية ،وتوزر ،وبلاد الحمة ،فالى الغرب من قابس يسكن بنو ورتاجن ،

---

(1) - أنظر ابن خلدون : العبر ،مج : 7 ،صفحة 120 ، وما بعدها .
(2) - ابن خلدون : نفسه ،مج : 7 ،ص: 120 .
(3) - نفسه ،مج : 7 ،ص: 124 .

وفي جبال اوراس يوجد حي منهم وهم بنو عبد الواد ، كما يوجد آخرون بصحراء برقة ، وارض الزاب ، وقصور غدامس التي يسكن بعضها بنو واطاس وهم من بني مرين . وفي قصور مصاب أحياء منهم وقد سميت تلك الديار بهم ، ويسكن في تلك البلاد بالاضافة الى مصاب ، فئات من بني عبد الواد ، وبني توجين ، وبني زردال ، وهم جميعا ابناء بادين . وجل بني واسين متواجدون ما بين ملوية وجبل بني راشد . وفي أواخر الدولة الموحدية تغلبوا على تلول المغرب الاوسط كافة ، سواء بالاقطاع أو بالاحتلال ، ثم تدرجوا بعدها الى الملك القاهر ، وهكذا فان بني واسين كانوا أيام الطبقة الاولى من زناتة معروفين بهذا الاسم . ونظرا لتشعب بطونهم ، وتكاثرهم ، فقد تفرعوا الى أحياء منفصلة ، ومتنافسة على الرئاسة ، وظهر منهم في البداية فرعان هما : **بنو بادين** ، **وبنو ورتاجين** . وكانت عصابة بني بادين أقوى لاشتمالهم على اربع بطون هم : **بنو عبد الواد** ، **وبنو توجين** ، **وبنو زردال** ، **وبنو مصاب** ، بالاضافة الى بطن أخر ينتمي اليهم ، وهم بنو راشد أخو بادين ، ومع مرور الوقت ، وبعد وصول بني عبد الواد الى مرتبة الملك ، وانفرادهم بعزه وشرفه دون البطون الاخرى . عندها دب الخلاف بين أحياء بني بادين ، وانقسمت عصبيتهم الى عصبيات اضيق ، فبرز بذلك كل حي بذاته . وهنا قويت شوكة بني مرين ، بانقسام عصبية بني بادين . وحدث من جراء الصراع والتنافس المحتمل بين أحياء بني واسين ، أن نشأت دول لهم وامارات بالمغربين : الاقصى والاوسط . كدولة بني عبد الواد ، ودولة بني مرين ، وامارة بني توجين . وقد اشتد الصراع والقتال بين هذه الدول طوال سنوات حياتها ، وذلك بغرض احتواء مجموع الامارات ضمن دولة واحدة ، ولكن عامل الحسم عسكريا كان مفقودا لديهم جميعا .

2 _ القبائل البرنسية :

أن تسمية " برانس" مثل تسمية " بتر " اكتشفت بعد الفتح الاسلامي . ولا يعرف اذا كانت هاتان التسميتان من وضع المسلمين ، أم من التسميات التي أطلقها الامازيغ على أنفسهم ، فورثها المسلمون . وقد زعم بعضهم بأن المسلمين اطلقوا اسم بتر على القبائل الامازيغية التي يرتدي أفرادها لباسا أبتر ، واسم برانس على القبائل التي يرتدي أعضاؤها اللباس المسمى بالبرنوس (1) .

(1) _ أنظر غوتييه : E.F.GAUTIER, LE PASSE DE L'AFRIQUE DU NORD, PP : 241/242,

وشارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ج : 2 ، ص : 28 .

غير أن هذا المزعم تكذبه الشواهد التاريخية والاجتماعية . (1) وقد رأى بعض الباحثين بأن البرانس هم القبائل الامازيغية المدرية المتمدينة والمستقرة بمدن وقرى أفريقية والمغرب ، وبالمقابل فالبتر هم القبائل الوبرية ذات النجعة (2) . غير أن الشواهد تظهر بعض القبائل البرنسية في مظهر يجعلها ضمن القبائل الوبرية الناجعة، والعكس صحيح (3) . مثلا القبائل الصنهاجية بالصحراء كلمتونة ، ومسوفة ، بالاضافة الى لمطة ... الخ .

والذى يمكن اجماله هنا هو أن برنس أسم لشخص قد يكون أبا للشعوب المنسوبة اليه : أزداجة (4) ، وأوربة (5) ، وأريغة ، وصنهاجة ،

---

(1) _ أنظر ما قبله . وموسى لقبال : دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، ص ص : 60/61.

E.F.GAUTIER : Le passé de l'afrique du nord, PP: 242/243. — (2)

وجوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج : 2 ، ص ص : 26/28 . وموسى لقبال : المغرب الاسلامي ، ص ص : 58/60.

(3) _ أنظر ما قبله .

(4) _ كانت ازداجة وافرة العصابة ، منيعة الحمى ، عزيزة الجانب . ومواطنها آنئذ في جهات وهران . ومن بطونها : مساطة ، ومسقن . وقد تذبذبت في ولائها بين الامويين بالاندلس والفاطميين بافريقية ، فانتهى بهم الامر الى القتل والتشريد ، من قبل يعلى بن أبي محمد اليفرني سنة 343 هـ / 945م . فانتقل بعضهم الى الاندلس ، وبقي الآخرون تحت قهر القبائل والدول ، في عداد القبائل الغارمة ، (ابن خلدون : العبر ، مج : 7 ، ص ص : 293/295 ،
GAUTIER :IBID,PP:238/239. -
وموسى لقبال : دور كتامة ، 68/69.

(5) _ اشتهر أمر هذه القبيلة في أحداث الفتح الاسلامي ، وفي قيام الدولة الادريسية ، ومن رجالها كسيلة بن لزم الاوربي الذى قاد الحملة على عقبة ابن نافع في تهودة ، واسحاق بن محمد بن عبد الحميد الذى أجار ادريس ابن عبد الله ، ودعا الامازيغ الى طاعته ، وساعد في قيام دولته بالمغرب الاقصى (ابن خلدون : العبر ، مج : 7 ، ص ص : 296/300.
GAUTIER : IBID , PP :237/238-267/270-301/304/313 ---
وموسى لقبال : دور كتامة ، ص ص : 72/174) .

وعجيسة (1)، وكتامة، و جزولة (2) (أو كزوله)، ولمطة (3)، ومصمودة، وهسكورة (4). والذي يهم في هذا المجال من تلك الشعوب :

---

(1) — عجيسة تنطق بالامازيغية عديسة، بمعنى البطن، ولكن العرب قلبوا الدال جيما، فاضحت عجيسة. وكانت لهم وفرة وقوة. وقد ناصروا أبا يزيد، وأجاروه عندما لجأ اليهم هربا من الفاطميين. ومواطنهم في جوار صنهاجة بالمغرب الاوسط، بجهات المسيلة، وبافريقية في نواحي تونس. هذا وقد أثقلت عليهم الدولة الحمادية بكلكلها، واستلحمتهم حتى انطفأت شمعتهم، وانقادوا لغيرهم حين أضحوا يعطون المغارم في طاعة و خضوع (البكري : المغرب، ص: 59. وابن خلدون : العبر، مج : 6، ص ص: 296/295. وغوتييه : GAUTIER, LE PASSE DE L'AFRIQUE DU NORD PP:238/239.- وموسى لقبال : دور كتامة، ص ص: 72/70).

(2) — مواطن جزوله (أو كزولة) في منطقة السوس بالمغرب الاقصى بجوار لمطة. وهم ظواعن، وكانت لهم مع قبيلة المعقل العربية أيام وفتن انتهت بتغلب المعقل الذين صيروهم في عداد الاتباع والخول (البكري : المغرب، ص: 157. الادريسي : مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق اسماعيل العربي، ص: 139. وعلى بن سعيد المغربي : كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ص ص: 112/113-124. ابن خلدون : العبر، مج : 6، ص: 420. الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقيا، تعريب محمد حجي، ج : 1، ص ص: 144/146. موسى لقبال : دور كتامة، ص: 89).

(3) — مواطن لمطة مجاورة لصنهاجة الجنوب أصحاب اللثام. وهم كجيرانهم ظواعن ينتجعون الكلأ في اطراف المغرب الاقصى، وفي الصحراء، و جنوب تلمسان، وافريقية، وقد اندرجوا في عداد بطن حسان من المعقل (البكري : المغرب، ص ص: 124-157. الادريسي، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، ص ص: 125-128. علي بن موسى بن سعيد المغربي : كتاب الجغرافيا، ص ص: 113-123/124. ابن خلدون : العبر، مج : 6، ص: 420).

(4) — لم يدرج ابن حزم في الجمهرة : جزولة، ولمطة، وهسكورة ضمن قبائل البرانس. أما ابن خلدون فقد ذكرهم نقلا عن سابق وغيره من نسابة الامازيغ (الجمهرة، ص: 495. العبر، مج : 6، ص: 177). وهذه القبائل الثلاث مع صنهاجة اخوة لأم واحدة وتسمى تصكى العرجاء بنت زحيك بن مادغيس (العبر، مج : 6، ص: 310).

أ ـ أوريغــة (1) : وأشهر قبائل أوريغة (2) هي هوارة المنسوبة الـــى هوار بن أوريغ (3) . ومنهم أحياء ظواعن وأخرى مستقرة ، وكانوا عند الفتح بجهات طرابلس وحتى برقة . وقد توغـل بعضهم في الصحراء حتى جاوروا الملثمين ، وقــد لعبت هوارة أدوارا هامة في الثورات التي اشتعلت بربوع المغرب : كثورات الاباضية على ولاة القيروان . وثورة أبى يزيد على الدولة الفاطمية (4) . وقد انتهى بهـــم الحال بعد مقتل أبى يزيد الى التشتت والضياع ، حينما سلطت عليهم الدولة الفاطمية ادوات سخطها وغضبها ، فشردوا وقتلوا ، وأضحت بقاياهم في عداد القبائــــل

---

(1) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص ص : 282/293 . والقلقشندي : نهاية الارب ، ص : 87 . وموسى لقبال : دور كتامة ، ص ص : 74/73 .

(2) ـ تفرع عن أوريغ بن برنس أربع قبائل ، تنتسب الى أولاده وهم : قلدن ، وملد ، ومغر ، وهوار . وقد تفرع عن كل قبيلة من هذه القبائل عمائر عديدة . وقـــد اندمج جميعهم في هوارة فاضحوا ينسبون اليها . (أنظر : جمهرة انساب العرب ، لابن حزم : ص ص : 497/498 . وكتاب العبر ، لابن خلدون ، مج : 6 ، ص ص : 283/284 . وكتاب البيان والاعراب ، للمقريزي ، ص ص : 51/53 . وكتاب قبائل المغرب ، لعبد الوهاب بن منصور : ج 1 ، ص ص : 314/318 . وكتاب دور كتامة : لموسى لقبال ، ص : 78) .

(3) ـ اختلفت الاراء حول نسب هوارة ، فمنهم من ينسبهم الى عرب اليمن ، أو قضاعة أو القبط ، واخرون ينسبونهم الى الامازيغ ، وهو الصحيح (أنظـــر رحلة التجاني ، ص : 213 ، وابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص ص : 282/283 . والقلقشندي : نهاية الارب في معرفة انساب العرب ، ص ص : 441/442 . والمقريزي : البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب ، ص ص : 51/53-58 . والادريسي : مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، ص ص : 125/126 . وموسى لقبال ، دور كتامة ، ص ص : 74/75) .

(4) ـ عبد الله بن محمد التجاني : الرحلة ، ص : 327 . وابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص ص : 285/287 . وغوتييــه :
G.G. FIER : LE PASSE DE L'AFRIQUE DU NORD PP : 293/298-318/332-284/355.
وموسى لقبال : دور كتامــة ، ص ص : 76/77) .

الغارمة .فاختار الباقون من هوارة خلال الفترة الزمنية المخصصة لهذا البحث حياة النجعة والترحال ، حيث اختلطوا بعرب سليم وهلال ،واندمجوا بهم ، حتى تعذر التفريق بينهم في الزي أو اللغة ، أو أسلوب الحياة (1) . وهم كما يقول ابن خلدون — في عهده — يعمرون ضواحي افريقية ،ويملكون الشاء، والبقر ،ويمتطون الخيل . أما علاقتهم بالدولة آنئذ فيجملها ابن خلدون في العبارات التالية : ((وللسلطان بافريقية ،عليهم وظائف من الجباية ، وضعها عليهم دهاقين العمال بديوان الخراج ،قوانين مقررة ،وتضرب عليهم مع ذلك البعث في غزوات السلطان بمعسكر مفروض ،يحضر بمعسكر السلطان متى استنفروا لذلك . ولرؤسائهم آراء قاطعات وكان في الدول بين رجالات البدو)) (2) . ومن عشائر هوارة التي ظلت في ربوع طرابلس وسرت وبرقة : ترهونة ومسراتة،وهما من الظواعن ثم مجريس وبنو خطاب وهم من أهل المدر . وفي المغرب الاوسط يوجد بعض الأحياء من هوارة بالقرب من البطحاء بالجبل المعروف بهم . ومنهم عشائر من مسراتة ، ورئاستهم في بني عبد العزيز وكانوا مصطنعين من قبل بني حماد (3) . في عهد عبد الواد اصطنعتهم الدولة وانتظموا في اعداد اعوانها ، حيث ابرا تاشفين بن أبي حمو العبد الوادي يعقوب بن يوسف بن حيون الهواري قائدا على بني توجين (4) . كما استعمل ابو الحسن المريني أعضاء هذا البيت في المهمة نفسها التي اسندت لهم من قبل ،

---

(1) — يقول فيهم ابن خلدون : ((صاروا في عداد الناجعة عرب بني سليم ، في اللغة والزي وسكنى الخيام وركوب الخيل ،وكسب الابل ،وممارسة الحروب ، وايلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلولهم ،قد نسوا رطانة البربر ،واستبدلوا منها بفصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم (العبر، مج 6،ص : 288 . أنظر أيضا غوتييه GAUTIER : Le passé de l'afrique du nord : PP, 431/433.-

(2) — العبر ،مج :6،ص : 289 .

(3) — ابن خلدون : نفسه ، ص‌ص : 291/290 .

(4) — ابن خلدون : نفسه ، ص‌ص : 293 .

ب ـ **صنهاجة** (1) : يعتبر شعب صنهاجة من أوفر الشعوب وأوسعها .

وهم ثلاث طبقات : فالطبقة الاولى تمثلها قبيلة تلكاتة التي تولت حكم افريقية والمغرب الاوسط نيابة عن الفاطميين . وهم من أهل المدر . أما الطبقة الثانية فتمثلها قبائل لمتونة ومسوفة من أهل الوبر الظواعن في أعماق الصحراء . والطبقة الثالثة عبارة عن قبائل متفرقة لم تصل الى مرتبة الملك وهم منتشرون في بعض المناطق من المغرب الاقصى . وقبائل صنهاجة عديدة وهي منتشرة في ربوع المغرب كافة ،منها : أنجفة (2) وتلكاتة (3) . (وهي قبيلة بني مناد) . وشرطة . وكدالة ، ولمتونة (وهي التي أسست دولة المرابطين) ، ومسوفة (4) ومندلة ، وبنووارث وبنو ينيسن (5) . وقد صنف صاحب كتاب الانساب في معرفة الاصحاب المتحالفين من صنهاجة مع الموحدين الى: صنهاجة القبلة (أي أهل الجنوب) ،وصنهاجة الظل (ويقصد بذلك على ما يبدو أ...س

---

(1) ـ وهم من أبناء صنهاج بن عاميل بن كيما ... حتى حام بن نوح ،ويسمى في الحقيقة صناك وينطق بالامازيغية صادا مشمة بالزاي وكافا قريبة من الجيم . وقد أضاف العرب حرف الهاء بين النون والالف . فاصحى ينطق صنهاج (أنظر مفاخر البربر،لمجهول ،ص: 51 . والعبر ،ج :6،لابن خلدون : ص: 303 . ونهاية الارب في معرفة انساب العرب ،للقلقشندي ،ص: 317 . ودور كتامة ، لموسى لقبال ،ص: 91/79) .

(2) ـ بطون أنجفة هي : بنو سليب ،وفشتالة ،ومزوارت ،و ملوانة ،وبطون أنجفة كثيرة ومتفرقة في ربوع المغرب : (ابن خلدون : العبر ،ج : 6،ص: 310) .

(3) ـ تلكاتة من أهل المدر ،ومواطنها في المغرب الاوسط على حدود افريقية ، سيأتي ذكرها) .

(4) ـ شرطة ،وكدالة ،ولمتونة ،ومسوفة من القبائل الصنهاجية التي تسكن الصحراء ، وهم من أهل الوبر .

(5) ـ ذكر ابن أبي زرع وابن خلدون بأن النسابة الامازيغ ومؤرخيهم قد أحصوا حوالي سبعين بطنا من بطون صنهاجة (روض القرطاس،ص: 75 . العبر ،ج : 6،ص: 311) . وقد ورد في كتاب قبائل المغرب ،لعبد الوهاب بن منصور عدد كبير من أسماء تلك البطون : كانجفة ،وانوغة ،وبجاية ،وبطيوة ،وتاركة ،وتلكاتة وجزولة ،وبني جعد ،وبني حميد ،وبني خليل ،وبني دركون ،وبني زروال والزنالة وزغاوة ،وبني عمران ،وفشتالة ،وكدالة ،ولمتونة والمديه ،ولمطة ،وبتان وبني مزغنة ، وبني مزكلدة ،ومسوفة وملوانة ،ومليانة ، (ج : 1 ،ص: 330/334) .

الجبل (1) . أما ابن خلدون فيذكر منهم : صنهاجة البز لعملهم في الحياكة وصنهاجة الذل بسبب رضوخهم للمغرم ، وصنهاجة العز لمنعة جبالهم وعزهم (2) . والى جوار تلكاتة توجد أيضا بعض البطون الصنهاجية : كأنوغة وبطوية ، وبني جعد ، وبني عثمان ، وبني مزغنة ، وملكانة ، وتمتد مواطنهم جميعا من المسلية الى الجزائر والمدية (3) .

فاصحاب الطبقة الاولى من صنهاجة هم تلكاتة و خلفاؤها المذكورون سابقا . وكانت الرئاسة فيهم لشيوخ تلكاتة وأكبرهم ، ومناد بن منقوش بن صنهاج الاصغر (4) وقد ترأس القبائل الصنهاجية المتواجدة في مواطنهم بافريقية و المغرب الاوسط مقدما ولاءه في بدية الامر الى بني العباس بواسطة الاغالبة . وتولى الامر بعده ابنه زيري بن مناد الذي انحاز الى الفاطميين وناصرهم بالمقاتلين عندما ساء حال الدولة ، نتيجة لثورة ابي يزيد ، فكانت نجداته عاملا في كسب الحرب (5) . وقد اعتمدت الدولة الفاطمية على قبائل صنهاجة في مواجهة قبائل زناتة : من بني يفرن ومغراوة ، حيث ضربت بعضهم ببعض ، فكانت لهم أيام وفتن عظيمة ، انتهت بانتصار صنهاجة و الدولة الفاطمية . وهكذا أضحت صنهاجة قوة فعالة في الدولة الفاطمية (الى جانب كتامة) . وقد تدرجت مع الوقت من مرتبة الرئاسة الى مرتبة الامارة والملك حيث استخلف عامل الدولة الفاطمية (المعز لدين الله) شيخ الصنهاجيين

---

(1) ـ أنظر كتاب الانساب في معرفة الاصحاب ، للكاتب مجهول ، ضمن كتاب اخبار المهدي تحقيق ليفي بروفنسال : ص ص: 44/46 .

(2) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، مج :ص 427 .

(3) ـ أنظر ابن خلدون : نفسه ، مج : ك ص 312 .

(4) ـ صنهاج الاصغر بن واسفاق بن جبريل بن يزيد بن واسلى بن سمليل ابن جعفر بن الياس بن عثمان بن سكاد بن ملكان بن كرت بن صنهاج الاكبر (العبر ، مج : 6 ، ص: 312) .

(5) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص ص: 317/333 .

GAUTIER, LE PASSE DE L'AFRIQUE DU NORD, PP: 359/360-363/377, HADY ROGER IDRIS, LA BERBERIE ORIENTALE SOUS LES ZIRIDES T: 1 PP: 7/10-17/26

واسماعيل العربي : دولة بني حماد ، ص ص: 41/44-52/74 .

بلكين بن زيرى على افريقية والمغرب ،فتولى ذلك الامر ،وخلفه بنوه من بعده ، حتى استقلوا بالبلاد نهائيا ،وذلك باقامة دولتين صنهاجيتين : الاولى بافريقية ،والثانية بالمغرب الأوسط.

أما أصحاب الطبقة الثانية فهم قبائل صنهاجة الظواعن جنوبا فى اعماق الصحراء بتخوم السودان . ومن تلك القبائل : جدالة ،وزغاوة ،ولمتونة ولمطة ، ومسوفة ،وتاركة ،ووريكا (1) . وقد تمكنت لمتونة – من بين هذه القبائل – من الوصول الى مرتبة الملك . وذلك بوصول عبد الله بن ياسين الجزولي اليهم لنشر العلم بينهم ،فلاحظ هذا الاخير فيهم عنفوان العصبية ،وقوة الشكيمة ، والصبر على القتال ،فاستحثهم على الجهاد أولا ،ثم حرضهم على القبائل الشمالية وامارتها فانساقوا وراءه بقوة جياشة ، فتمكنوا بفضل ذلك من الاطاحة بامارات : مكناسة ،وزناتة ،وبرغواطة . وتم لهم ،اخضاع المغرب الاقصى ، والاوسط ،والاندلس ،وقيام الدولة المرابطية فى تلك الربوع (2) . وبعد سقوط الدولة المرابطية ظهرت من جديد مقاومة شديدة من طرف قبائل صنهاجة المتحالفة مع ابن غانية،وظلت تلك القبائل فى صراع شديد مع الدولة الموحدية ، ولكنه متقطع ،وقد انساق مع تلك الفتن قبائل أخرى من سليم وهلال (3) ،الأمر الذى أغرق ربوع المغرب فى سيل من الفتن والمعارك بين القبائل والدولة آنئذ . وقد أنتهى أمر صنهاجة الجنوب فى عهد ابى زكرياء الحفصى فى بداية القرن السابع من الهجرة ،حيث انسحبت قبائلهم وفلولهم نحو الجنوب الاقصى

---

(1) أنظر ابن خلدون : العبر ،ج : 6 ،ص: 371 .

(2) – أنظر البكرى : المغرب ،ص: 153/168 . كاتب مجهول : مفاخر البربر ، ص: 52/57 . ابن ابى زرع : روض القرطاس ، ص: 75/140. ابن عذارى : البيان المغرب ،ج : 4 ،ص: 7/30 . ابن خلدون : العبر ،ج : 6 ، ص: 373/389 . السلاوى : الاستقصا ،ج : 2 ،ص: 3/77 .

(3) – أنظر ابن خلدون : العبر ،ج : 6 ،ص: 394/395 . السلاوى ، الاستقصا ،ج : 2 ،ص: 159/161–184–214/217–227 .

الى الحدود السودانية . وفيهم يقول ابن خلدون : ((ومضى هؤلاء الملثمون وقبائلهم لهذا العهد بمجالاتهم من جوار السودان . . . وهم لهذا العهد متصلون من ساحل البحر المحيط فى المغرب الى ساحل النيل بالمشرق . وهلك من قام بالملك منهم بالعدوتين ، وهم قليل من مسوفة ولمتونة كما ذكرناه ، أكلتهم الدولة وابتلعتهم الآفاق والاقطار وافناهم الرق ، واستلحمهم امراء الموحدين ، وبقى من أقام بالصحراء منهم على حالهم الاول من افتراق الكلمة ، واختلاف البين . . .))) (1) .

أما الطبقة الثالثة فعلى الرغم من وفرة عددهم فانهم لم يتوصلوا الى مرتبة الملك ، وظل بعضهم فى عزة ومنعة من سلطان الدولة وقهرها ، بينما خضع الباقون لقهرها ، فاعطوها حق الولاء والطاعة وانقادوا للمغارم المفروضة عليهم . ومواطن الطبقة الثالثة هذه تتواجد فى الجبهة الشرقية لجبال درن ، وهى محصورة ما بين تازى وتادلا ، وتمتد الى الطريق الجبلية المفضية الى اكرسلوين فى الجنوب . وتعتبر هذه الطرق الجبلية بمثابة الحدود بينهم وبين اوطان المصامدة ، ومن هذه النقطة تنعطف مواطنهم جنوبا الى اكرسلوين ، ثم تتجه نحو الغرب الى درعة والسوس الاقصى . وتعرف قبائل هذه الطبقة جميعها باسم صناكة (2) . واشهر بيوتهم التى اختصت بالرئاسة فيهم هم : أولاد عمران الصناكى . ولهم عزة ومنعة عن سلطة الدولة ، فلا يخضعون لقهرها ولا يؤدون لها مغارم ، ومواطنهم فى الجبال المشرفة على تدلا . ويجاورهم احياء صنهاجية أخرى تدعى خبانة اعتادت على الرحلة وسكنى بيوت الخوص . ورئاستهم فى بيت هيبرى . وهم فى عداد القبائل الغارمة . ومنهم أيضا بطوية ، وبنو وارتين ، وتدعى هذه القبائل الغارمة بصنهاجة الذل ، ولبطوية ثلاث بطون : بطن يدعى بطوية فى تازى ، وأولاد على فى تافرسيت ، وورياكل . وقد أصهر أولاد على الى عبد الحق ،

---

(1) ـ العبر ، مج : 6 ، ص ص : 407/408 .
(2) ـ أنظر ما قبله .

المريني ، فاستوزرهم يعقوب بن عبد الحق في دولته ، بحكم انهم من اخواله .

كما توجد قبائل صنهاجية اخرى ما بين جبال درن وجبال الريف على طول الساحل بجوار غماره . وهذه القبائل من أهل المدر الذين يسكنون بيوتا من الحجارة والطين ، وهم : بنو حميد ، وبنو دركون ، وبنو رتزر ، وسطه ، وبنو عمران ، وفشتالة ، وبنو مزكلدة ، وملوانة ، وبنو وامرد ، وبنو ورياكل . وهؤلاء جميعا معروفون بصنهاجة البز . وهم يحترفون مهنة الحراثة والحياكة ويؤدون المغارم للدولة . والى جوارهم اخوانهم بنو زروال ، وبنو مغالة الذين يجهلون الحرف ويمتنعون في أعالي جبالهم عن سلطان الدولة ، ولذلك سموهم بصنهاجة العز (1) .

جـ - **كتامة** (2) : يعتبر شعب كتامة من اشهر شعوب المغرب ، وأوفرها عددا ، وامضاها عصبية . وهم من اولاد كتام (أو كتم) بن برنس (3) . وهم من أهل المدر المستقرين . ومواطن كتامة تمتد عبر أرياف قسنطينة حتى بجاية ، وربما الى دلس غربا ، والى جبل أوراس جنوبا ، وحتى ساحل البحر شمالا . كما تنسب اليهم قصور كتامة بالمغرب الاقصى ، حيث انتقلوا الى تلك الديار خلال احداث معينة من التاريخ (4) . وكان لقبائل كتامة دور هام في تاريخ المغرب الاسلامي ، خاصة حينما توصلت بالفاطميين الى اقامة دولتهم بالمغرب ، ثم وصلت بهم الى فتح مصر والشام . وخلال الفترة الزمنية المخصصة لهذا البحث بقي من كتامة عشائر عديدة في مواطنهم الاولى بجبل أوراس ، وجبال جيجل وجبال زواوة ، وبالسهول الممتدة في جهات قسنطينة وبجاية . ومن عشائر كتامة الباقية بالمغرب بعد أفول

---

(1) - أنظر ابن خلدون ، العبر ، مج : 6 ، ص: 427 .

(2) - أنظر الادريسي : مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، ص: 170 . ابن خلدون ، العبر ، مج : 6 ، ص ص: 301 / 309 . القلقشندي : نهاية الارب في معرفة انساب العرب ، ص: 405 . موسى لقبال : دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، ص ص: 191/92 .

(3) - أنظر مفاخر البربر لمجهول ، ص: 51 . ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص: 301 . وموسى لقبال ، دور كتامة ، ص: 92 .

(4) - أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص ص: 301-308 . وموسى لقبال : دور كتامة ، ص ص: 97/99-137/191 .

الدولة الفاطمية ، بنو زلدوي اصحاب الجبل المشرف على قسنطينة . وزواوة (1) المنتشرون في المناطق الجبلية الممتدة من بجاية الى دلس ، وبنو سد ويكش في السهول المتواجدة بين قسنطينة وبجاية ، وبنو ثابت اصحاب الجبل المشرف على القل . وقد لعبت هذه العشائر جميعها بعض الادوار المحدودة في تاريخ المغرب ، خلال الفترة الزمنية المخصصة لهذا البحث . فعشائر سد ويكش (2) من الظواعن ، اذ كانوا يسكنون الخيام ، ويكسبون الابل والبقر . وهم من العشائر الغارمة ، والخاضعة لسلطان الدولة . وقد عاصرت عشائر بني ثابت الدولة الموحدية ، والدولة الحفصية ، حيث تولى بعض ابنائها مهام سامية في هذه الدولة ، إذ اختص منهم حسن بن ثابت بمنصب الحجابة في ديوان السلطان أبي يحي الحفصي (718هـ/1318م – 747هـ/1346م) . ثم اضطرب حالهم فيما بعد ، وانتهى أمرهم في عهد ابي العباس الحفصي الى التشتت والافول .

أما عشائر زواوة ، فكثيرة ، وهي منتشرة في المنطقة الجبلية الوعرة ، مابين بجاية ودلس . وكان لهم اعتزاز على الدولة آنئذ لصعوبة مواطنهم ، وشدة عصبيتهم . ففي البداية تحالفوا مع اخوانهم كتامة ضد صنهاجة ، الا انهم اذ عنوا واطاعوا بعد أن اختط بنو حماد مدينة بجاية في مواطنهم (3) . وثمة

---

(1) – ثمة من ينسب زواوة الى ضريسة البترية . ولكن ابن حزم ينسبهم الى كتامة ، وقد ايده في ذلك ابن خلدون (الجمهرة ، ص: 496 . والعبر ، مج : 6 ، ص: 232/264–308/309) . أما عبد الوهاب بن منصور فيرى بأن في الامر التباسا ، حيث يعتقد بأن القبيلة المنسوبة الى ضريسة اسمها زواوه وليست زواوة . (قبائل المغرب ، ج 1 ، ص: 311) .

(2) – تفرع عن سد ويكش أحياء كثيرة منها : البورة ، وبنو زغلان ، وسكرال ، وسيلين ، وطرسون ، وطرغيان وبنو عياد ، وبنو فشة ، وكايارة ، وبنو لمائي ، وبنو مروان ، ومولييت ، ووار كسن . (ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص: 303 ، موسى لقبال : دور كتامة ، ص: 123/126) .

(3) – أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص: 262/264–308/309 . انظر أيضا موسى لقبال : دور كتامة ، ص: 115/116–127/128 .

أيضا عشائر أخرى كتامية متفرقة ،بعضهم في جهات دلس ،وآخرون في المغرب الاقصى جنوب جبل يرناسن (1) وآخرون بجهات مراكش.

ه - **مصمودة** : وهم أولاد مصمود بن برنس،وقبائلهم كثيرة وشديدة المراس، ملأت المغرب الاقصى بالفتن والصراعات . ومن تلك القبائل (2) . آصادن (3) ، وتينملل (4) وحاحة (5) ،ودكسالة (6) ،وركراكة (7) ، وغمارة (8) ،وكدميوة (9) ،

---

(1) - وهم بنو يستيتن (ابن خلدون : ج 6، ص 307) . الوزان : وصف افريقيا ، ج : 1، ص: 359) .

(2) - ذكر ابن خلدون برغواطة من بين قبائل مصمودة ،بينما يستنتج من خلال ما كتبه المؤرخون والجغرافيون الذين سبقوه واتخذهم كمرجع له انهم نظروا الى برغواطة كنحلة ومذهب اعتنقته قبائل مختلفة (أنظر البكري : المغرب ،ص ص: 141/135 . وابن عذارى : البيان المغرب ،ج : 1،ص ص: 57/56-223/ 227 . ومفاخر البربر ،ص: 47) .

(3) - كتب الاسم في كتاب الانساب في معرفة الاصحاب ،مرة ((صادة)) ومرة آصادن ومرة (أيضاد) (مطبوع ضمن كتاب اخبار المهدي ،للبيذق ،تحقيق ليفي بروفنسال ،ص ص: 43/44 . وكتبها البكري آصاده : المغرب ، ص ص: 104 141/110) .

(4) - هذه القبيلة هي التى اجارت ابن تومرت عند لجوئه اليها ،وكانت مقر سكناه ومماته ،وقد ذكر صاحب كتاب الانساب في معرفة الاصحاب احدى عشر فخذا من قبيلة تينملل (أنظر ما طبع من هذا الكتاب ضمن كتاب أخبار المهدي ،للبيذق، ص ص: 41/40 ،ومقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، للادريسي ،ص: 133 . وعلى ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ،ص: 125 . وكتاب روض القرطاس ،لابن أبي زرع، ص ص: 113 . 115 . 116 . وكتاب وصف افريقيا ،للحسن الوزان ،ج : 1،ص : 141) .

(5) - ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ،ص: 125 . والحسن بن محمد الوزان : وصف افريقيا ،ج : 1،ص ص: 109/95 .

(6) - ذكرهم صاحب الانساب في معرفة الاصحاب ضمن المهاجرين ،ص: 42 . والادريسي مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ،ص ص: 138/143 . والحسن الوزان وصف افريقيا ،ج : 1 ،ص ص: 147/162 .

(7) - سماها صاحب الانساب في معرفة الاصحاب مرة ركراكة ،ومرة ايركراكن (ص: 43) . وكتبت في نزهة المشتاق ،للادريسي ،رجراجة (ص ص: 138-143) . وفي كتاب الجغرافيا لابن سعيد كتبت ركراكة (ص: 125) . وفي وصف افريقيا ، للوزان ،كتبت رجراجة (ج : 1،ص: 112) .

(8) - البكري : المغرب ،ص ص: 110/104-107/108 . والادريسي مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ،ص: 252 . وابن سعيد المغربي ،كتاب الجغرافيا ، ص: 139 . وكتاب مجهول : مفاخر البربر ،ص: 77 والحسن الوزان : وصف افريقيا ،ج : 1،ص ص: 36-38-20-30 .

(9) - ذكر صاحب كتاب الانساب في معرفة الاصحاب ،ستة وسبعين فخذا من كدميوه (ص ص: 41/42) . أنظر كتاب افريقيا ،للوزان ،ج : 1،ص: 141 .

وكلاوة (1) وكنفيسه (2) . وهرغه (3) وهزرجه (4) وهزميره (5) وهنتاته (6) ، وهيلانه (7) ووريكه (8) ووزكيته (9) . ومواطن مصمودة تمتد من مناطق الريف شرقا الى المحيط الاطلسي غربا . والبحر الرومي شمالا ،الى تامسنا ودكالة جنوبا ، وتشمل جبال الاطلس الكبير ،حيث تنتهي عند سفوحه المتصله باقليم السوس . ومنها تتجه حدودهم شرقا مع اتجاه السلسلة الجبلية حتى بداية جبال الاطلس الاوسط .

---

(1) ـ عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ،ص: 325 .

(2) ـ ذكر صاحب الانساب في معرفة الاصحاب ،منهم اثني وعشرين فخذا (ص: 43) .

(3) ـ هرغة هي قبيلة ابن تومرت وموطن عصبيته الكبرى ،حيث كانت هي السباقة الى نصرته ،فتسمى اعضاؤها بالانصار (الانساب في معرفة الاصحاب، ضمن كتاب اخبار المهدى ،ص: 37 . وابن خلدون : العبر ،مج : 6،ص: 464 . وعبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ،ج : 1،ص: 326) .

(4) ـ الادريسي : مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ،ص: 138 . وابن سعيد : كتاب الجغرافيا ،ص: 125 . والانساب في معرفة الاصحاب ،ص: 43 . وابن منصور: قبائل المغرب ،ج : 1،ص: 326 .

(5) ـ المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ،ص: 341 . وكاتب مجهول : مفاخر البربر ،ص: 71 . وعبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ،ج : 1،ص: 326 .

(6) ـ ذكر منهم صاحب كتاب الانساب في معرفة الاصحاب تسعة أفخاذ . وتأتي هذه القبيلة في المرتبة الثالثة في ترتيب القبائل الموحدية ،وذلك بعد هرغة وتينملل (الانساب ، ص: 41 . ابن منصور : قبائل المغرب ،ج : 1،ص: 326/ 327 . أنظر أيضا ،وصف افريقيا ،للوزان ،ج : 1،ص: 142) .

(7) ـ مجهول: الانساب معرفة الاصحاب ،ص: 42 . والمراكشي : المعجب ، ص: 341 . وعبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1،ص: 326 .

(8) ـ مفاخر البربر ،ص: 76 . وعبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ،ج : 1،ص: 327 .

(9) ـ ابن منصور : قبائل المغرب ،ج : 1،ص: 327 .

على مشارف تازه ،وتادلـه ،وهناك تجاورهم قبائـل صناكة (الصنهاجية) السابقة الذكر (1) .

وكان لقبائـل مصمودة أثر في تاريخ دول المغرب الاقصى ،فمنذ الفتـــح برزت منهم غمارة ،بشمال المغرب الاقصى ،وقد شهدت امارة غمارة بحتة ،وعرفـت بدولة بني عصام في سبتة (2) ،ثم امارة أخرى في حماية غمارة وصنهاجة يتأمرها عربي هو صالح بن منصور الحميري في نكور (3) . هذا بالاضافة الى البدع التي ظهرت في أوساط تلك القبيلة كتنبوء حاميم بن من الله بن حريز الغماري ،وتتبع عاصم بن جميل اليزد جومي الغماري (4) من بعده أيضا . ويخـالـــف ابن خلدون من سبقه بخصوص برغواطة (5) واذ يراها قبيلة من قبـائـــل مصمودة ،بحكم الموطن ،واذا ما صح ذلك فتكون برغواطة هي الاخرى اشتهـرت بالنحلة التي ابتدعها أبناء صالح بن طريف الصفري ،تلك النحلة التي يـــزعم أصحابها بأن صالحا يوحى اليه . والفرق بين غمارة وبرغواطة في هذا الامـــر هو أن برغواطة تمكنت من الصمود بنحلتها زمنا أطول وكثير ما عرفته غمـــارة ، ومع هذا فقد انتهى أمرهما جميعا الى الفشل والاندثار .

---

(1) - أنظر ابن خلدون : العبر ،ج : 6 ،صص : 436-428-460/461 ، وعبد الوهاب بن منصور : قبائـل المغرب ،ج : 1 ،ص : 322 .

(2) - أنظر البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ،ص : 104 . ابن عذاري : كتاب البيان المغرب ،ج : 1 ،ص : 203 . وابن خـلدون : العبر ،ج : 6 ،صص : 437/438 .

(3) - أنظر البكري : المغرب ،صص : 90/99 . ابن عذاري : البيان المغرب : ج : 1 ،صص : 176/180 . وابن خلدون : العبر ،ج : 6 ،صص : 439 / 444 .

(4) - أنظر البكري : المغرب ،صص : 100/102 . ابن خلدون : العبر ،ج : 6 ،صص : 444/446 .

(5) - أنظر ما قبلـــه .

وأهم الادوار التي قامت بها قبائل مصمودة يمكن اجمالها في وقوفها وراء نشأة الدولة الموحدية (1) واستفحالها ، وقد شارك منها في تلك الملحمة كل من : هرغة (وهي قبيلة ابن تومرت المؤسس النظرى للدولة الموحدية . وكانت هذه القبيلة في مقدمة الانصار الذين ساندوا ابن تومرت) . ثم تينملل (وهي الملجأ المنيع لابن تومرت وانصاره) ، ثم هنتاتة ، وكدميوة وتلحق بعد ذلك القبائل الاخرى من مصمودة وغيرها (2) .

5 ـ **هسكورة** : على الرغم من أن هسكورة ، وجزولة ، ولمطة ، اخوة لصنهاجة من الام ، الا أنهم مندرجون ضمن قبائل مصمودة ، تبعا للجوار في الموطن وتماشيا مع الحلف الذي عقد بينهم عند قيام الدولة الموحدية . وقد قسم صاحب كتاب الانساب في معرفة الاصحاب (3) . هسكورة الى قسمين : هسكورة القبلة ، وهسكورة الظل . وذكر من افخاذ القسم الاول سبعة افخاذ . أما القسم الثاني فاحدى عشر فخذا . ومواطن هسكورة تمتد من جبالهم المتصلة بجبال درن وتادلا في الجهة الشرقية ، وحتى درعة من جهة الجنوب . وكان لهسكورة دور هام في مقاومة بني مرين والثورة على دولتهم ، وانتهى بهم الامر الى الاذعان والطاعة ، فاضحوا من القبائل الغارمة والتي تمد الدولة بالمقاتلين عند الحاجة (4) .

ثانيا ـ القبائل العربية :

الامر المتفق عليه بين النسابة والمؤرخين قديما أن العرب ينتسبون

---

(1) ـ عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، ص ص : 187/ 191/192/196/201 . كاتب مجهول : الانساب في معرفة الاصحاب ، ص ص: 37/43 . ابن أبي زرع : روض القرطاس . ص ص: 113/117 . ابن خلدون العبر ، ج : 6 ، ص ص: 454/465/473 . الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص : 6 ، السلاوي : الاستقصا ، ج : 2 ، ص ص: 85/94 .

(2) ـ انظر كتاب الانساب في معرفة الاصحاب ، ص ص: 37/48 .

(3) ـ ص : 44 .

(4) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص ص: 421/424 .

جميعا الى سام بن نوح (1) . وهي فكرة مستمدة أساسا من التوراة (2) وثمة من يشك في صحتها (3) . وقد اختلف الباحثون في تحديد معنى كلمة ((عرب)) ، فمن قائل بأنها نسبة الى الذي ابتكر هذه اللغة وهو يعرب بن قحطان ، وقد نسبت اليه اللغة العربية لكونه أول من نطق بها (4) . ومن قائل بأن هذه الكلمة تعني سكان البادية (أي الاعراب) . فالرأي الاول يفتقر الى الحجة والبرهان ، وقد ثبت من خلال الدراسات التاريخية والاثرية ما يضعف هذا الرأي ويلغيه (5) . أما الرأي الثاني فانه أقرب الى الحقيقة ، خاصة وأن الدراسات الاثرية في بلاد ما بين النهرين ، والدراسات العبرية من خلال التوراة والتلمود ، والدراسات اليونانية والرومانية تجعل من كلمة عرب كلمة مرادفة للبادية والبداوة (6) .

---

(1) — ابن قتيبة : المعارف ، تحقيق محمد اسماعيل الصاوى ، ص: 13 . الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج : 1 ، ص: 102 / 103 . والمسعودى : مروج الذهب : ج : 1 ، ص: 79 . وابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج : 1 ، ص: 44 . ابن خلدون : العبر ، ج : 2 ، ص: 12 — 28 . النويرى : نهاية الارب في فنون الادب ، ج : 2 ، ص: 292 . جورجي زيدان : العرب قبل الاسلام ، ص: 43 / 44 . فيليب حتى : تاريخ العرب (مطول) ج : 1 ، ص: 8 / 10 . وجواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج : 1 ، ص: 222 / 228 . وعمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، ص: 37 / 38 . السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية : 67 .

(2) — أنظر الاصحاح العاشر من سفر التكوين من التوراة .

(3) — أنظر كتاب العرب في العصور القديمة ، للطفي عبد الوهاب يحيى ، ص: 81 / 87 .

(4) — أنظر ابن قتيبة : المعارف ، ص: 13 . المسعودى : مروج الذهب ، ج : 1 ، ص: 79 / 80 . وابن منظور : لسان العرب ، مج : 2 ، مادة عرب ، ص: 723 . النويرى : نهاية الارب في معرفة فنون الادب ، ج : 2 ، ص: 292 . وجواد على : المفصل في تاريخ العرب ، ج : 1 ، ص: 14 / 15 . والسيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية ، ص: 59 / 60 .

(5) — أنظر تفنيد هذا الرأي في كتاب المفصل في تاريخ العرب ، لجواد على ، ج : 1 ، ص: 14 / 16 .

(6) — أنظر جورجي زيدان : العرب قبل الاسلام ، ص: 41 / 42 ، وجواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج : 1 ، ص: 13 / 16 ، وعمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، ص: 40 / 43 . والسيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية ، ص: 61 / 62 .

وكما اختلفوا في تحديد كلمة عرب اختلفوا ايضا في حصر طبقات العرب، حيث قال بعضهم بثلاث طبقات هي : العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب المستعربة (1). فان آخرين قد اقتصروا على طبقتين فقط هي : العرب البائدة، والعرب الباقية (2)، بينما جعلهم ابن خلدون اربع طبقات هي : العرب العاربة، والعرب المستعربة، والعرب التابعة، والعرب المستعجمة (3). وبالطبع فكل هذه التقسيمات مصطنعة، وتحتاج الى الدليل والحجة. وما يهم هنا هو أن العرب قوم ينتسبون بحكم اللغة التي يتكلمونها الى ما يعرف بالسلالة السامية، وكانوا يسكنون شبه الجزيرة المسماة باسمهم، وبلاد ما بين النهرين، والشام. ويغلب عليهم الطابع البدوي ونظامهم الاجتماعي يتميز بالمظهر القبلي. ويسمى قدماؤهم المندثرون بالعرب البائدة (4)، أما الباقون منهم فيعرفون بالعرب الباقية. وينقسم العرب الباقية الى قسمين (5). وهما :

1 ـ القحطانيون (6)، وهم عرب جنوب شبه الجزيرة.

---

(1) ـ صنفهم النويري كالتالي : عاربة ومستعربة : نهاية الارب في فنون الادب، ج : 2، ص: 292. وجورجي زيدان : العرب قبل الاسلام، ص ص: 48/49. وجواد علي : المفصل في تاريخ العرب، ج : 1، ص: 294. والسيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية، ص: 66.

(2) ـ أنظر جواد علي : المفصل في تاريخ العرب، ج : 1، ص: 294. وعمر فروخ : تاريخ الجاهلية، ص: 44. والسيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية، ص: 66.

(3) ـ العبر، مج : 2، ص ص: 30/32.

(4) ـ وهم أميم، ثمود، وجديس، وجرهم، وحضرموت، وحضورا، والسلفات وطسم، وعاد، وعبد ضخم، وعبيل. (ابن خلدون: العبر، مج : 2، ص ص: 34/53. والقلقشندي : صبح الاعشى، ج : 1، ص: 308).

(5) ـ ويقسمهم ابن حزم الى ثلاثة اقسام هم : بنو عدنان، وبنو قحطان، وبنو قضاعة، (الجمهرة، ص: 7).

(6) ـ يزعم النسابون بأن قبائل اليمن جميعها تنتسب الى سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان. وعليه فقد برزت ثلاث كتل هي : حمير، وكهلان، وسبأ. وينتسب جميعهم الى سبأ بن يشجب هذا. وقد تشعبت انساب حمير وكهلان وتفرعت حتى غلبت على أهل اليمن كافة. وربما رجعت قبائل حمير الى جمهرتين أو شعبين هما : مالك، والهميسع. وقد نسب بعضهم قبيلة قضاعة الى مالك، وهي كثيرة العمائر والبطون، أما الهميسع فينتسب اليهم : الأملوك، وشرعب، وذو رعين وذو يزن، وذو اصبح، وذو الكلاع، وميتم، واحاضة... الخ. (أنظر احسان النص : العصبية القبلية واثرها في الشعر الأموي ففيه تحقيق لذلك، ص ص: 44/45).

2 - والعدنانيون (1)، وهم عرب شمال الجزيرة .

وبالطبع فقد أضحى هذا التقسيم يمثل عصبيتين عظيمتين ظلتا تتناحران وتتقاتلان عبر البلاد التي افتتحها المسلمون طولا وعرضا ، وتبعا لذلك فقد انساقت قبائل أخرى من الشعوب الاسلامية الى ذلك التيار ، فأخذت تنتسب هي الاخرى لاحدى العصبيتين : أما قحطانية (أو يمنية أو كلبية أو ازدية) من جهة ، وأما عدنانية (أو معدية أو مضرية أو نزارية أو قيسية) من جهة أخرى .

- القبائل العربية بالمغرب الاسلامي :

أن الوجود العربي في بلاد المغرب برز بوضوح منذ الفتح الاسلامي ، حيث استقرت بعض الفئات العربية في هذه الديار بصورة دائمة ، وذلك منذ تأسيس القيروان . وهي في الغالب أما من الجند ، أو من التجار ، أو من القراء والعلماء . ومع هذا فان الطابع العربي لم يعمّ بلاد المغرب كلية الا بعد الزحف الهلالي الشهير ، والذى شمل في الحقيقة ثلاث فئات من القبائل العربية هي : هلال ، وحلفاؤهم ، وسليم .

1 - بنو هلال : تخيلهم الشيخ مبارك الميلي في مرتبة شعب (2) . ويضاف اليهم بعض الاحياء العربية الاخرى من حلفائهم واتباعهم (3) ، وينتسب بنو هلال الى الفرع المضرى، وهم ابناء هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية ابن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر (4) .

---

(1) - يقول النسابون بانه كان لعدنان ولدان هما : عك ، ومعد . وقد أهتم أولائك النسابة بمعد وما تفرع عنه ، حيث يزعمون بانه خلف عددا من الاولاد اهمهم اثنان هما : نزار ، وقنص ، وقد تشعب عن نزار عدد كبير من القبائل التى تعرف بالقبائل العدنانية ، أو المعدية ، أو النزارية (نسبة الى نزار بن معد بن عدنان) . وقد تسمى أيضا بالقبائل المضرية ، أو قبائل ربيعة (وهما من أبناء نزار) . أو القبائل القيسية نسبة الى قيس عيلان بن مضر (أنظر ابن حزم : الجمهرة ، ص: 9/11 . احسان النص : كتاب العصبية القبلية واثرها في الشعر الاموي ، ص: 36/43) .

(2) - تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، ج : 2 ، ص: 566 .

(3) - من حلفاء هلال فزارة . واشجع ، وجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن ، وسلول ابن مرة بن صعصعة بن معاوية ، وعمرة بن اسد بن ربيعة بن نزار ، وبنى ثور ابن معاوية بن عبادة بن ربيعة البكاء بن عامر بن صعصعة ، وعدوان بن عمرو بن قيس عيلان ، وطرود احدى بطون فهم بن قيس عيلان .

(4) - أنظر ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، ص: 273 .

ومواطن بني هلال في شبه الجزيرة العربية قديما كانت في بسائط الطائف، المحصورة بين تلك المدينة وجبل غزوان . ويجاورهم في تلك الديار نمير بن عامر، وفي نجد جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن . وكانوا جميعا ينتجعون في تلك البراري، ويقطعون الطرق وينهبون السابلة (1) . وقد انتقل بنو هلال في ظل الدولة الاسلامية الى الشام، ولما تغلبت الدولة الفاطمية على الشام نقلتهم الى مصر، حيث استقروا في العدوة الشرقية لنهر النيل . وربما أضروا ببلاد الصعيد آنئذ . وقد انتهز حكام الدولة الفاطمية أول فرصة بدت لهم، عندما تنكر لهم المعز ابن باديس بن المنصور الصنهاجي ونقل دعوته للعباسيين، فانتقم الفاطميون من بني زيري بأن سمحوا للهلاليين وأحلافهم بعبور النيل الى العدوة الغربية، وحثوهم على اجتياح افريقية وبلاد المغرب . وكان ما كان من اخبارهم ومفاسدهم (2) .

أن تصور هلال في مرتبة شعب يقود الى اعتبار فروعهم بمثابة قبائل . وعليه يمكن القول بأن قبائل بني هلال في المغرب هي : الاثبج، ورياح، وزغبة، وقرة . ويضاف اليهم احياء أخرى اندرجت في بني هلال، بحكم الحلف والجوار وهم : جشم، والخلط، وبنو جابر، وسفيان، والمعقل .

أ ـ الاثبج : وينتسبون الى اثبج بن ابي ربيعة بن نهيك بن هلال، وهم أكثر الهلاليين عددا وعصابة، وكانت لهم الرئاسة خلال زحفهم الى المغرب (3) . ومن عمائر الاثبج : دريد، والضحاك، والعاصم، والعمور، وعياض، وكرفة، ولطيف، ومقدم . وقد امتلكوا ـ في بداية الامر ـ المواطن المجاورة لجبال أوراس بالجانب الشرقي منها . ولم يدم بهم الحال طويلا بعد دخول المغرب حتى نشبت بين عمائر الاثبج وبطونهم صراعات وفتن دامية انتهت بتفكك وتفرق حالهم الى عصبيات كبرى انتشرت في ربوع المغرب كافة .

---

(1) ـ أنظر ابن خلدون : العبر، ج : 6، ص: 23/24 ـ 27/28 .
(2) ـ أنظر ابن خلدون : نفسه، ج : 6، ص: 26/38 .
(3) ـ أنظر ابن خلدون : نفسه، ج : 6، ص: 47/48 .

(1) ـ **دريد** : كانت رئاسة الاثبج وهلال عند الزحف على المغرب ضمن بيت من دريد، لما لهذا الحي من شدة في العصبية ، وكثرة في العدد ، ونعرة على بعضهم بعضا . واشهر رؤساء دريد على الاطلاق هو الحسين بن سرحان الذي تولى رئاسة الاثبج، وربما هلال بكاملها وذلك أثناء الزحف الى المغرب . والحسن هذا هو أخو الجازية ذات الشهرة الواسعة التي كانت سببا في الانشقاق الذي حدث بين عشائر الاثبج (1) . وكانت مواطن دريد تمتد ما بين مدينة عنابة ومدينة قسنطينة، وتشمل أيضا قرية طارف مصقلة واطرافها . أما بطون دريد فعديدة منها : أولاد سرور ، وأولاد عبد الله ، وأولاد عطية (2) .

(2) ـ **الضحاك** (3) : وهم ابناء الضحاك بن مشرف بن اثبج ولهم بطون عديدة . ورئاستهم انتهت الى كلب بن منيع بعد تغلبه على منافسه ابي عطية الذي رحل الى صحراء سجلماسة حيث استقر وكانت له آثار ضد الموحدين هناك الى مقتله . وقد ظل جميع بني الضحاك بالزاب ينتجعون مراعيه الى أن غلبتهم عصبية الدواودة فادرجوهم في جملتهم . وانتهى الامر بهم الى الاستقرار وسكنى مدن الزاب .

(3) ـ **العاصم** (4) : وينتسبون الى عاصم بن مشرف بن اثبج . وكانوا بافريقية حتى العهد الموحدي ، فانحازوا الى ابن غانية في ثورته . ولما تغلب عليه الموحدون نقلهم سلطانهم يعقوب المنصور الى المغرب الاقصى حيث استوطنوا بسيط تامسنا . وشيخهم في عهد المأمون هو حسن بن زيد ، وقد قتله الرشيد لتورطه في فتنة يحي بن الناصر . وبعدها انتقلت رئاسة العاصم الى أبي عياد وبنيه الذين عاصروا دولتي : بني مرين ، وبني عبد الواد .

---

(1) ـ تم ذلك عندما غضبت من زوجها ماضي بن مقرب بن قرة . فناصرها اخوها الحسن ومن ورائه دريد كلها . فانضم الى قرة كرفة وعياض ، فاشتعلت الفتنة بينهم جميعا وانتهت بانتصار دريد عليهم (أنظر العبر ، مج : 6 ، ص: 48/ 49

(2) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص: 50/ 52 . ومبارك الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، ج : 3 ، ص: 567 . وعبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1 ، ص: 418 . ومصطفى ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص: 208/ 209 .

(3) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص: 53 . والميلي : تاريخ الجزائر ، ج : 3 ، ص: 569 . ومصطفى ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص: 210 .

(4) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص: 68 .

(4) ـ **العمور** : (1) : يشك ابن خلدون في انتمائهم للاثبج ، ويرجح انهم من ابناء عمرو بن عبد مناف بن هلال ، ويرى انهم اخوة قرة ، ومع هذا فانه يدرجهم ضمن الاثبج تسليما للواقع الذي جعلهم ينتمون الى عصبية الاثبج . وقد يكون ذلك بفعل حلف عقد بينهم . ومواطن العمور تمتد من جبل أوراس عبر الحضنة الى جبل بني راشد ، وليس لهم في التلول مواطن ، لقلة جمعهم وفرقتهم فيتقون بذلك حامية الدولة . واكتفوا تبعا لهذا بسكنى القفر والجبال . ويتفرع العمور الى بطنين هما : بنو قرة (أو مرة) ، وبنو عبد الله . فبنو قرة موزعون ضمن القبائل الاخرى ، وفي بعض المدن وحدانا . وأما بنو عبد الله فيتفرعون الى فخذين هما : أولاد ماضي ، وأولاد محمد . ويبدو أن بطون العمور كانت مغلوبة على امرها ، ومسخرة لغيرها من القبائل ، وربما للدولة في بعض الحالات . وهذا عائد لضعف عصبيتهم وتفرق كلمتهم .

(5) ـ **عياض** (2) : وهم ابناء عياض بن مشرف بن اثبج ، ومواطنهم بجبل عياض على امتداده من المشرق الى المغرب ، وذلك ضمن المجالات المحصورة ما بين ثنية غنية والقصاب وحتى مواطن بني يزيد بن زغبة . هذا وقد تغلبت بطون عياض على القبائل الاخرى في تلك المواطن ، واضحت تقوم بجباياتهم ، ولكن الدولة الموحدية اخضعتهم فيما بعد ، بمساعدة رياح لها .

ومن بطون عياض : الزبير (وهم بنو زبير ، واولاد صخر ، وأولاد رحمة) ، والمهاية ، والخراج ، والمرتفع .

(6) ـ **كرفة** (3) : وهم بنو كرفة بن اثبج ، وكانوا اصحاب عز وكثرة اثناء

---

(1) ـ ابن خلدون : العبر ، م : 6 ، ص : 55 . والميلي : تاريخ الجزائر ، ج : 3 ، ص ص : 569/570 . وعبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1 ، ص : 419 . ومصطفى ابو ضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص ص : 211/212 .

(2) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، م : 6 ، ص : 53 . والميلي : تاريخ الجزائر ، ج : 3 ، ص : 568 . ومصطفى ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص ص : 209/210 .

(3) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، م : 6 ، ص ص : 48/50 . الميلي : تاريخ الجزائر ، ج : 3 ، ص ص : 567ـ 568 . ومصطفى ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص ص : 207/208 .

الزحف الهلالي . ومواطنهم في بداية الامر كانت في الجانب الشرقي لجبل أوراس.
وقد تسبب الصراع بين دريد وكرفة في ضعف عصبيتهم ، و تغرق حالهم ، مما ساعد الموحدين ،ومن ورائهم رياح على اخضاعهم بسهولة . وهكذا اعتز الدواودة من رياح وغلبوا بطون الاثبج على افريقية . ودام الحال هكذا حتى تحول بنو حفص عن الدواودة ،ومدوا ايديهم الى سليم فالتفت هؤلاء الى كرفة ،حيث استعملوهم فاصبحوا شيعة للسلطان الحفصي ضد رياح. وتبعا لذلك أقطعتهم الدولة جباية الناحية الشرقية من جبل أوراس وجزءا كبيرا من الزاب الشرقي حيث مشاتيهم. وقد تفرع عن كرفة بطون كثيرة منهم : بنو محمد بزكرفة ،والمراونة و أولاد نابت بن فاضل ابن محمد بن كليب .

(7) — لطيف (1) :وهم أولاد لطيف بن سرح بن مشرف ،بن اثبج . كانوا في البداية ظواعن وأهل نجعة ،ولما عجزوا عن الظعن وغلبوا من طرف الدواودة أستقروا في مدن الزاب وأطامه كالدوسن ،وتهوده ،وبادس ،فاصبحوا بذلك في عداد الرعايا الغارمة والتي تخضع لامير الزاب . ويصفهم ابن خلدون بالعنجهية التي ورثوها من رئاستهم القديمة . ويقول بانهم لايتخلون عن فتنهم التي كانت تدور بينهم في قصورهم وقراهم بالزاب . وقد استغل عامل الزاب تلك الظروف لكي يحقق مآربه في استيفاء الجباية منهم جميعا . وبطون لطيف عديدة منها : أولاد كسلان بن خليفة بن لطيف ويعرفون باليتامى ،وأولاد لقمان بن خليفة بن لطيف ويعرفون باللقامنة .

(8) — مقدم (2) : وهم أولاد مقدم بن مشرف بن اثبج . وكانوا متحالفين مع اخوانهم اولاد العاصم . ضربوا بالظروف نفسها ،حيث نقلهم يعقوب المنصور الموحدى الى المغرب الاقصى مع جشم ،فاستوطنوا تامسنا .

(1) — أنظر ابن خلدون : العبر ،مج :6 ،ص: 54 . والميلي : تاريخ الجزائر ،ج : 3 ،ص: 569 . وعبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ،ج :1 ،ص: 418 . ومصطفى ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص: 211/210 .
(2) — أنظر ابن خلدون : العبر ،مج :6 ،ص: 68 .

ب - رياح (1) : وينتسبون الى رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال ابن عامر ، وعلى هذا فهو أخو اثبج من ابيهما أبي ربيعة . وتعتبر رياح من أعز القبائل الهلالية ، واشدها عصبية ، وأكثرها عددا ، وذلك عند زحفهم الى المغرب . وكانت رئاستهم آنئذ في يد مؤنس بن يحي الصنبري وهو من مرداس احدى عمائر رياح . وقد أصهر اليه المعزبن باديس بابنته عند دخولهم الى افريقية . ثم انتقلت الرئاسة بعد ذلك من بطن صنبر بن مرداس الى بطن الدواودة ابناء داود بن مرداس . ومواطن رياح في البداية كانت من الجريد والقيروان الى المسيلة وارض الزاب فورقلة ، وربما كانت لهم بعض الاقطاعات في قسنطينة وبجاية والحضنة . وعمائرهم عديدة اشهرها : على بن رياح ، ومرداس ابن رياح .

(1) - **علي** (2) : نسبهم ابن خلدون الى رياح ، وذكر من بطونهم : أولاد دهان الذين حكموا قابس مستقلين بأمرائهم من بني جامع ، ثم أولاد فادغ ومنهم أولاد جبارة بن سرحان وهم امراء سوسة . أما العماد الاصفهاني والتجاني فينسبان بني جامع الى أولاد فادغ من بني علي (3) .

(2) - **مرداس** (4) : وهم ابناء مرداس بن رياح (وليسوا من مرداس بن عبس سليم) . وعرف عنهم انهم اكبر عمائر رياح واشدهم عصبية . وفيهم كانت رئاسة رياح بكاملها ممثلة في شخص مؤنس بن يحي صهر المعز بن باديس . ومن اشهر بطون مرداس الدواودة وهم ابناء داود بن مرداس بن رياح .

وقد كانت لمرداس آثار واحداث مع دولة الموحدين ودولة بني حفص اذ كانوا مصدر قلق وفتن شغلت الدولتين طويلا . ومن جراء ذلك نقل السلطان الموحدي بعض بطونهم وبطون اخرى من هلال الى المغرب الاقصى . فانزل احياء رياح كمرداس وغيرهم ببلاد الهبط ، حيث اضحوا من حماة الدولة وانصارها ضد

---

(1) - أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص ص : 69/85 . مصطفى ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص ص : 212/215 .

(2) - انظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص ص : 69-330-341-346 .

(3) - الاصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء المغرب) ، تحقيق محمد المرزوقي وآخرون ، ص ص : 123/130 . التجاني : الرحلة ، ص ص : 30- 95- 97- 100 .

(4) - أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص ص : 69/75 . الميلي : تاريخ الجزائر ، ج : 3 ، ص : 570 . ومصطفى ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص ص : 212/213 .

القبائل الاخرى ،كبني مرين المتطلعين الى الملك . أما الباقون منهم بافريقية فقد استعانت عليهم الدولة الحفصية ببني سليم الذين خضدوا شوكتهم وشردوهم من ديارهم .

هـ ـ **زغبة(1)** : وهم ابناء زغبة بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر، فهم اخوة رياح والأثبج . وكانت لزغبة عزة و قوة وكثرة منذ دخولهم الى المغرب. وقد استوطنوا في بداية الامر نواحي طرابلس وقابس ، بعد أن تغلبوا على امارة بني خزرون المغراوية . وظلوا بتلك الديار حتى مجيء الموحدين الى افريقية ،حيث تحالفوا معهم ضد اعدائهم الموحدين (ابن غانية) وخلفائهم من الاعراب. وبذلك غدوا من انصار الدولة ،فانتقلوا الى مجالات أخرى بالمغرب الاوسط ،ما بين المسيلة وجنوب تلمسان ،ضمن القفار،تاركين التلول الى حلفائهم من بني بادين . وفي عهد بني عبد الواد وبني مرين تطلعت زغبة الى استيطان التلول الغنية بثرواتها وخيراتها، فانتقلوا اليها مزاحمين قبائل زناتة ،تاركين القفار الى المعقل . وخلال هذه الفترة شهدت تلك الربوع اضطرابات وفتن عظيمة تأثرت بها دول المنطقة كافة . وتضم زغبة عمائر عديدة ذات شأن وصولة أشهرها : حصين ،وعامر ، و مالك ،ويزيد .

(1) ـ **حصين بن زغبة** (2) : مواطنهم مجاورة لمواطن اخوانهم بني يزيد ، من جهة الغرب ،وتمتد حتى جبل تيطرى ولمدية ،وتنتهي شمالا بمواطن الثعالبة . ولما تغلب بنو عبد الواد على بني توجين اثقلوا على حصين بالمغارم ،وساموهم الذل والزموهم الوضائع . وقد لعبت حصين ادوارا خطيرة في بث الانقسام و الاضطراب في دولة بني عبد الواد خلال عهد ابي حمو موسى الثاني ، حيث أجارت خصمه وابن عمه أبا زيان وناصرته ضده . فكانت تلك الاحداث والصراعات عاملاً ما ساعد حصينا في تملك اجزاء واسعة من البلاد على حساب الدولة وانصارها .

---

(1) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ،مج : 6 ،ص ص: 85 / 117 .

(2) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ،مج : 6 ،ص ص: 91 / 93 . والميلي : تاريخ الجزائر ،ج : 3 ،ص: 572 . ومصطفى ابوضيف : القبائل العربية في المغرب: ص ص: 226 / 227 .

(2) ـ **عساسين زغبة** (1) : كانوا في البداية مع بني يزيد في مواطن حمزة والدهوس وبني حسن . وفي عهد يغمراسن بن زيان انتقلوا الى نواحي تلمسان ووهران ، وتم ذلك بدعوة من هذا السلطان ، ليكونوا حاجزا بين دولته وعرب المعقل الذين افسدوا الامر آنئذ . وكان لبني عامر أثر كبير في الدولة العبد الوادية ، كما كانوا مصدر قلق للدولة المرينية . وقد دام بهم الامر حتى سقوط وهران في ايدى الاسبان حيث تعاونت احياء بني عامر معهم بحكم الانانية القبلية وانعدام الروح الوطنية آنئذ .

أما رئاسة بني عامر فكانت في البداية في بطن بني يعقوب ، ثم انقسمت بعد ذلك الى شطرين : رئاسة بني يعقوب ممثلة بعثمان بن سعيد ، وساسي ابن سليم ، ورئاسة بني حميد ممثلة ببيت عامر بن ابرهيم بن يعقوب . ونتيجة للخلاف بين البطنين تمكن بنو حميد من اخراج بني يعقوب من ديارهم وطردهم الى المغرب الاقصى حيث اضحوا حلفاء لبني مرين .

(3) ـ **مالك بن زغبة** (2) : ولهم ثلاثة بطون : سويد بن مالك ، والحرث ابن مالك ، وخيص بن مالك . وكانت مواطن بني مالك جنوب بلاد توجين ، من سعيدة الى لمدية ، ولما ضعف أمر توجين استولت بطون مالك على مواطنهم ، ماعدا جبل وانشريس الذى اعتزت به توجين . وتعتبر سويد اعظم بطون مالك واشهرها لحظوتها في دولتي : بني عبد الواد وبني مرين ، وقد لعبت ادوارا هامة في احداث المغربين : الاوسط والاقصى . وقد تذبذب أمر سويد في الولاء للدولة العبد الوادية أو الدولة المرينية . وكانت لهم فتن وايام مع بني عامر والمعقل ، كان لها أثر على استقرار المغرب .

(4) ـ **يزيد بن زغبة** (3) : لبني يزيد مركز مهم بين ، ماثر زغبة نظرا لكثرة عددهم ومرتبتهم الرفيعة . وقد كانوا أول من اقطعتهم الدول في التلول والضواحي .

---

(1) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص : 105/116 . والميلي : تاريخ الجزائر ، ج : 3 ، ص : 573 . ومصطفى ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص : 229/231 .

(2) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص : 95/105 . والميلي : تاريخ الجزائر ، ج : 3 ، ص : 572/573 . ومصطفى ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص : 227/229 .

(3) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص : 87/91 . والميلي : تاريخ الجزائر ، ج : 3 ، ص : 571/572 . ومصطفى ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص : 225/226

وذلك أن الموحدين أقطعوهم بلاد حمزة وهي من أوطان بجاية المتاخمة غربا لمواطن الاثبج ورياح . وقد تمكنوا من امتلاك مواطن الدهوس وأرض حصن بصحرائها وريفها . وقد استعانت الدولة الموحدية بهم في جباية املاكها ،في بلاد صنهاجة ، وزواوة ،وبجاية ،فقاموا بها خير قيام ،حتى عهد بني عبد الواد الذين تكفلوا بانفسهم في جباية تلك الديار . ولما ضعفت الدولة بسبب العوامل الخارجية المثلة في استفزازات دولة بني مرين من جهة ،ومخاغبات الاعراب من جهة أخرى ، نهضت من جديد بطون يزيد واستبدت باوطانها الاولى وفرضت المغارم والجبايات على سكانها .

د ـ **قرة** : وهم ابناء قرة بن عمرو بن ربيعة بن عبد مناف بن هلال بن عامر ابن صعصعة (1) . دخلوا الى برقة قبل الزحف الهلالي واستوطنوها . ولما حصل الزحف انتقلوا مع اخوتهم من هلال الى افريقية والمغرب (2) . وقد نقلهم الموحدون الى المغرب الاقصى مع العاصم ومقدم وجشم وهناك اندرجوا جميعا في جشم حيث اضحت هذه التسمية تشملهم مع غيرهم من القبائل المتحالفة مع هلال (3) .

هـ ـ **جشم** (4) : وهم ابناء جشم بن معاوية بن هوازن ،يلتقون مع بني هلال في معاوية بن بكر ،وهو ابو صعصعة . وقد اندرجوا في بني هلال بحكم الحلف في النسب ،فاضحوا عصبية واحدة. ولما قدموا الى افريقية نقلهم الموحدون الى المغرب الاقصى مع غيرهم من القبائل التي شاركت في فتنة ابن غانية .

و ـ **الخلط** (5) : وهم بنو المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب . قدموا الى افريقية مع بني هلال وسليم . وكانوا من بين الاحياء العربية التي نقلها المنصور الموحدي الى المغرب الاقصى ،حيث استوطنوا تامسنا . وكانت لهم بعض الاحداث

---

(1) ـ أنظر المقريزي : البيان والاعراب ،صص: 22ـ28 .

(2) ـ ابن خلدون : العبر ،مج :4 ،صص: 121/122 . مج :6 ،صص: 8ـ34ـ35ـ37ـ38 .

(3) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ،مج :6 ،صص: 48/49ـ58ـ60 .

(4) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ،مج :6 ،صص: 59/68 . وعبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ،مج :1 ،ص: 420 . ومصطفى ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ،صص: 240/241 .

(5) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ،مج :6 ،صص: 63/66 . ومصطفى ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ، صص: 241/242 .

و المخالفات مع الدولة الموحدية بالمغرب الاقصى ،قتل خلالها بعض مشائخهم ،
وربما كانوا سببا في هزيمة الموحدين أمام بني عبد الواد بعد مقتل السعيد .
سلطان الموحدين وفي أواخر الدولة الموحدية نقلوا ولاءهم الى بني مرين ،حيث
أصهر يعقوب بن عبد الحق الى شيخهم مهلهل بن يحي بن مقدم بابنته ،فانجبت
له السلطان ابا سعيد . وتبعا لذلك زادت حظوتهم في الدولة وانغمسوا في
ترفها ،وبذخ حضارتها ،حتى لم يعد اسم الخلط يذكر لتلاشيهم واندماجهم
في غيرهم ،بحكم سنة الحضارة وترفها .

ز ـ بنو جابر (1) :اختلف الناس في نسب بني جابر ،حيث ينسبهم بعضهم
الى سدرات الزناتية أولواتة ،وينسبهم آخرون الى العرب النازحين مع بني هلال ،
وهذا النسب هو الغالب عليهم . وهم مندرجون ضمن جشم حيث نقلوا معهم الى
المغرب الاقصى ز ،وشاركوهم في مؤامراتهم داخل الدولة الموحدية ،مما حدا بالرشيد
الى قتل شيخهم قائد بن عامر واخيه قائد . وبعد ذلك انتقل بنو جابر الى بلاد
تادلا ،بجوار قبائل صناكة (الصنهاجية) . وفي عهد بني مرين اضحت رئاسة
بني جابر في بيت من بعض بطونهم وهم ورديغة . وكانوا في ذلك العهد ملجأ
للثائرين على الدولة والمخالفين .

ط ـ سفيان (2) : كانوا مندمجين ضمن احياء جشم ،وقد نقلوا ضمنهم
الى المغرب الاقصى في عهد الدولة الموحدية ،فاستوطنوا في البداية نواحي آسفي
ببلاد تامسنا ،وظل منهم الحرث،والكلابية (وهم من احيائهم) ينتقلون عبر بلاد
السوس وحاحة طلبا للنجعة ،وعليه فقد بقيت فيهم شدة وعصبية ،فأضروا بجهات
مراكش وافسدوا حالها . وقد انتهى امرهم الى القتل والتشريد على يد الامير
عبد الرحمن بن ابي يفلوسن،بعد أن قضى حاجته منهم عند استبداده على
السلطان . ورئاسة سفيان في العهد الموحدي كانت في بيت اولاد جرمون ،وقد

---

(1) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ،مج :6،ص: 68/66 .

(2) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ،مج :6،ص: 62/59 .

امتدت الى العهد المريني . ومن بطونهم اولاد جرمون ،واولاد مطاع .

٤ ــ المعقل (1) :اختلف الناس في نسبهم ،فنسابة العرب ينسبونهم الى بني هلال ،بينما هم يدعون بانهم من الهاشميين ،أما ابن خلدون فيرجح بانهم من عرب اليمن (من قضاعة أو من كهلان) . انضموا الى بني هلال وحالفوهم ونزحوا معهم الى المغرب ،ويقال بأن عددهم آنئذ كان ضئلا،وربما لم يتجاوز المائتين ، ولكنهم تكاثروا بالانجاب وبانضمام آخرين اليهم (2) . فتكاثرت بطونهم ،وقويت عصابتهم ، وانتشروا في القفار بالمغرب الاقصى والاوسط ،من جنوب تلمسان الى المحيط الاطلسي ، مما يلي ملوية وتافيلالت ،وحتى مواطن جدالة ومسوفة ،حيث تصل بهم نجعتهم أحيانا، وبقي بعضهم بافريقية والمغرب الاوسط . ولما توصلت زناتة الى مرتبة الملك ،وامتلكت المغربين : الاوسط والاقصى تركت القفار ،وقصور الصحراء : بالسوس،وتوات ،وبودة ، وتامنطيط وواركلان وتاسبيت ،وتيكورارين . فاحتلتها احياء المعقل وانفردت بها ، حيث فرضت عليها الاتاوات والضرائب . وبالمقابل كانت بطون المعقل تؤدي الصدقات لملوك زناتة . وربما اغناهم ذلك عن التعرض للسابلة ،والاغارة على تلول المغرب، حيث حامية الدولة وصولتها . واشهر بطون المعقل : الثعالبة ،((وذوي عبيد الله)) ،((وذوي منصور)) . ((وذوي حسان)) .

(1) ــ **الثعالبة** (3) : وهم أولاد ثعلب بن علي بن بكر بن صحير ، كانت مواطنهم في بداية الامر بتيطري وجبهات آشير . ولما غلبتهم عليها توجين نزحوا الى متيجة حيث استقروا الى جوار مليكش ،وتحت طاعتهم . اما تيطري فقد اقطعها امير توجين محمد بن عبد القوي الى حلفائه وانصاره اعراب حصين .

(1) ــ ابن خلدون : العبر ،مج : 6،صص: 118/140 . ابن منصور : قبائل المغرب ،ج : 1 ،صص: 414/415/427/424 . ابو ضيف : القبائل العربية في المغرب ،صص: 231/240 .

(2) ــ أنضم اليهم بعض الاحياء من مسلم بن سعيد بن رياح ،والعمور من الاثبج ، وفزارة ،واشجع . والشطة من كرفة ،والمهايا من عياض ،والشمراء من حصين ، والصباح من الاخضر ،واخرون من بني سليم (ابن خلدون العبر ،مج : 6 ، صص: 120/121 .

(3) ــ انظر ابن خلدون : العبر ،مج : 6،صص: 126/131 . ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ،ص: 234 .

وكانت رئاسة الثعالبة في بيت سباع بن ثعلب وسباع هذا ترأس عليهم في عهد الموحدين ،حيث كان من المشائخ المكرمين في الدولة آنئذ،مكافأة لهم لاكرامه للامام ابن تومرت عند مروره بديار الثعالبة . وظل الثعالبة في جوار مليكش وطاعتهم الى عهد ابي حمو موسى الثاني ،حين خرج عليه ابن عمه أبو زيان والتجأ الى حصين حوالي 760هـ/1358 م . ففي تلك الفترة استفحل أمر القبائل العربية واجتاحت التلول ، وازاحت عنها زناتة ،دافعة اياها نحو الجبال ،وساحل البحر . ففي تلك الاثناء استبد الثعالبة بديار متيجة . وقد لعب رؤساء الثعالبة ومشائخهم بعض الادوار الهامة بين الدولتين العبد الوادية ،والمرينية ، انتهت بقتلهم وسبيهم وتشريدهم من قبل السلطان ابي حمو موسى الثاني .

(2) ـ <u>ذوي عبيد الله</u> (1) : تقع مواطنهم ضمن املاك الدولة العبد الوادية ، حيث كانوا يجاورون بني عامر بن زغبة . وتمتد مواطن ذوي عبيد الله من اطراف تلمسان ووجدة الى مصب وادي ملوية شمالا ،وحتى منبع وادي صا (صاع) جنوبا ، بالاضافة الى انهم يمارسون الرحلة في الفيافي والقفار الجنوبية ،عبر قصور تسوات ، وتمنطيت ،وتيكورارين . وهذه جميعا مراكز تجارية في طريق السودان .وكان ((ذوي عبيد الله)) حلفاء لبني مرين على بني عبد الواد من قبل قيام دولتيهما ، ولكنهم لم يستقروا على حال واحدة بعد ذلك ،حيث تذبذب ولاؤهم لبني مرين ، وان كانوا في غالب الاحايين احلافا لهم . ولا يخفي الاثر السيء الذي تركه ((ذوي عبيد الله)) على الدولة العبد الوادية . خاصة عندما استبدوا بالمواطن الممتدة من هنين ووجدة وندرومة ،حيث كانوا يفرضون على المسافرين اتاوات ،وضرائب مقابل مرورهم الى تلمسان .

---

(1) ـ أنظر ابن خلدون : <u>العبر</u> ،مج : 6،ص: 123/126 .

(3) - ذوي منصور (1) : وهم أولاد منصور بن محمد . ويمثلون معظم المعقل ، ومواطنهم ممتدة جنوب المغرب الاقصى ما بين ملوية ودرعة ، ولهم اربعة بطون هم : أولاد أبي الحسين وأولاد حسين وهما شقيقان وأولاد عمران (العمارنة) . وأولاد منبا (المنبات) ، وهما بدورهما شقيقان وسميا بالاحلاف . فاولاد أبي الحسين استقروا بعد عجزهم عن الظعن بالقصور المتواجدة ما بين تافيلالت وتيكورارين (كورارة) . أما أولاد حسين الذين يمثلون جمهور ذوي منصور فرئاستهم في عهد بني مرين كانت في بيتين منهم : أولاد خالد بن جرمون ، وأولاد غانم . وكان أولاد حسين في صراع دائم تقريبا مع دولة بني مرين ، وقد تحالفوا بعض الوقت مع بني عبد الواد ، ولكن حلفهم لم يدم طويلا . أما العمارنة والنبات (الاحلاف) فهم مجاورون لاولاد حسين من جهة الشرق ، وتدخل تافيلالت ضمن مواطنهم الصحراوية ، أما مواطنهم التلية فملوية وقصور وطاط وتازي ، وبطوية ، وغساسة . وهذه الديار جميعها قدمت اليهم من السلطان اقطاعاً ، وقد يدخلون مع اخوانهم أولاد حسين في صراعات وفتن طاحنة ، ولكنهم سرعان ما يستجيبون لروح العصبية فيتحالفون معهم على قتال غيرهم . والمنبات كانت في البداية من احلاف الدولة العبد الوادية ، وقد تجلى ذلك من خلال دعمهم ليغمراسن عند فتحه لسجلماسة وكان ذلك من اسباب ضعفهم وانكسارهم .

(4) - ذوي حسان (2) : وهم ابناء مختار بن محمد . ورئاستهم في بيت أولاد ابي خليل بن عمر . وكانت مواطنهم في البداية بجهات ملوية رفقة اخوانهم ((ذوي منصور وذوي عبد الله)) . وبعد دولة الموحدين انتقلوا الى بسائط

---

(1) - أنظر ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص : 131 / 137 . ابن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1 ، ص : 425 / 426 . ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص : 238 / 239 .

(2) - انظر ابن خلدون : العبر ، ج : 6 ، ص : 137 / 141 . ابن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1 ، ص : 424 / 425 .

السوس ،تلبية لدعوة علي بن يدر الزكندري المتولي على السوس ،فاقاموا بتلك الديار للذود عنها ضد عشائر جزولة فتغلبوا على تلك المناطق واستوطنوها في حلهم وترحالهم . واضحت سوس ونول من جملة املاكهم ،ومصدرا هاما من مصادر رزقهم ،عن طريق الاتاوات والضرائب والتي يتلقونها من القبائل الضعيفة . ولم يدم الحلف بينهم وبين عبد الرحمن بن يدر ،اذ سرعان ما قامت بين الطرفين حروب وفتن تمكن عبد الرحمن خلالها من قتل بعض مشائخ ذوي حسان بتارودانت وذلك سنة 708هـ/1308م . ووقعت لهم أيضا مع الدولة المرينية وقائع وفتن جعلت منهم عامل قلق للدولة . حيث شغلوها سنوات طويلة . ولما استبد ابو علي بن السلطان أبي سعيد بسجلماسة سانده ((ذوي حسان)) والشبانات ،واغروه بامتلاك قصور درعة . ولما تغلب ابو الحسن على بلاد المغرب اغروه ايضا بامتلاك تلك القصور في بلاد السوس ،فكان له ذلك ،ولم يدم سلطان بني مرين على السوس طويلا ، حيث خرج عن الدولة بانقراض حكم ابي الحسن . وبقيت تلك الديار طويلا بعيدة عن قهر الدولة وسلطانها ،اذ كانت موزعة بين القبائل العربية يقتسمون جبايتها وينتجعون بسائطها .

2 - **بنو سليم** (1) : ليسوا من بني هلال ،انما قدموا معهم الى المغرب متحالفين معهم ضد الصنهاجيين والزناتيين ،ونزلوا ببرقة وطرابلس افترقوا عن بني هلال ،حيث استقروا بتلك الديار بعض الوقت ،اما هلال واحلافها الاخرون فقد واصلوا زحفهم الى افريقية ،ثم المغرب بعد ذلك . وبنو سليم ينتسبون الى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر . وبذلك يلتقي نسبهم بنسب بني هلال عند منصور بن عكرمة . ومواطن بني سليم في شبه جزيرة العرب

---

(1) - أنظر ابن حزم : الجمهرة ،ص ص: 261/264 . ابن خلدون : العبر ،مج : 6 ،ص ص: 141/174 . النويري : نهاية الارب في فنون الادب مج : 2 ،ص : 341 . المقريزي : البيان والاعراب ،ص ص: 65/73 . ابن منصور : قبائل المغرب : 1 ،ص ص: 428/431 . ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ،ص ص: 215/221 .

كانت بين الحجاز ونجد مطايلي المدينة . وكانوا مفسدين ، ويتعرضون للطابلة ، وينهبون حجاج بيت الله الحرام في مواسم الحج ، ولدى زيارتهم للمدينة (1) ، وقد ازداد عيثهم في عهد الدولة العباسية فكانوا كما يقول ابن خلدون ((شوكة بغي وفتنة)) . اذ لم يتورعوا حتى عن الاغارة على المدينة ذاتها . ولما اعلن القرامطة فتنتهم انضموا اليهم (2) . ثم اعلنوا دعوة الفاطميين بالبحرين لما فشل القرامطة . ولم يطل بهم الحال حتى طردوا من تلك الديار ، حيث نقلتهم الدولة الفاطمية الى مصر مع اخوانهم بني هلال وأحلافهم . ومنها دفعتهم جميعا الى بلاد افريقية والمغرب ، تخلصا من عيثهم وفسادهم ، ونكاية بالصنهاجيين . فاختارت قبائل سليم في بداية الامر الاقامة بارض برقة ، بينما تقدمت هلال واحلافها نحو افريقية . وفي عهد الدولة الحفصية أخذوا في الاقتراب من افريقية . ولما انقرض امر ابن غانية سعى الامير أبو زكرياء الحفصي الى اخراج بطون رياح حلفاء ابن غانية من افريقية ، فاستدعى مرداس وعلاق وبني عون من سليم لاحتلال مواطن رياح بافريقية . وبالفعل تحقق له ذلك ، واذا ما اعتبرت سليم في مرتبة شعب تكون فروعها الاولى في مرتبة قبائل . وعليه يمكن حصر قبائل بني سليم في بلاد افريقية والمغرب باربعة قبائل : دباب (أو ذباب) وزغب ، وعوف ، وهيب .

أ ـ دباب (أو ذباب) (3) : اختلف النسابة في نسبهم ، فمن قائل بانهم أولاد دباب بن ربيعة بن زغبة بن جرو (أو نصر) بن مالك بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم بن منصور (4) . وقائل آخر يرى بانهم ابناء ذباب بن بهثة

(1) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 27/28 .

(2) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 142 .

(3) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 167/174 ، ابن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1 ، ص : 428/429 . أبوضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص : 219/221 .

(4) ـ أنظر التجاني : الرحلة ، ص : 85/86 . ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص : 167 .

ابن سليم (1) . والصحيح هو ما ذكره التجاني وابن خلدون ، لان هذا الاخير اشار الى اختلاف النسابين في هذا الامر وحققه (2) . ومواطن دباب تمتد من قابس الى طرابلس فبرقة . ومن عمائرهم : أولاد أحمد بن دباب ، وبنو يزيد ، والنوائل وأولاد سنان بن عامر ، وأولاد وشاح ، وآل سليمان بن هيب ، وآل سالم ابن هيب .

ب ـ زغبة (3) : (أوزعب) : وهم أبناء زغب بن نصر بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم (4) ، حسب رواية ابن الكلبي التي اعتمدها ابن خلدون ورواية التجاني الذي مر باحدى عشائرهم ببلاد الجريد بافريقية .

هـ ـ عوف (5) : وهم ابناء بهثة بن سليم ، وتمتد مواطنهم من وادي قابس الى بلد العناب (عنابة) . وتتفرع قبيلة عوف الى عمارتين كبيرتين هما : علاق ، ومرداس . وقد تفرع عن سلسلة النسب الخاصة بعلاق قبيلة الكعوب الشهيرة . وهم ابناء كعب بن أحمد بن ترجم . ورئاسة علاق كانت في بيت من الكعوب ، وهم أولاد شيحة بن يعقوب بن كعب . وقد لعب الكعوب أدوارا غير محمودة في افريقية والمغرب ، جعلت منهم نذير شؤم وبلاء ، مثل زغبة في هلال . وقد تقلب حالهم واضطرب ولاؤهم في الدولة والامارات ، فهم احيانا مع قراقوش الغزي ، واحيانا أخرى مع بني غانية ، ثم انتقلوا الى الحفصيين ، ولكنهم كانوا يتذبذبون في صدقهم واخلاصهم . هذا بالاضافة الى الفتن التي كانت تدور بينهم وبين القبائل الأخرى .

---

(1) ـ أنظر القلقشندي : نهاية الارب في معرفة انساب العرب ، ص: 250 . والمقريزي : البيان والاعراب ، ص: 69 . ويسميهم القلقشندي ذبان .

(2) ـ العبر ، مج : 6 ، ص ص: 143 ـ 167 .

(3) ـ التجاني : الرحلة ، ص ص: 141 / 142 . ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص ص: 142 / 143 . النويري : نهاية الارب ، ص: 272 . المقريزي : البيان والاعراب ، ص: 66 . ابن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1 ، ص ص: 429 / 430 . ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص: 215 .

(4) ـ وينسبهم التجاني الى زغب الاصغر بن زغب الاكبر بن جرو بن مالك . (الرحلة ، ص: 141) .

(5) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ، مج : 6 ، ص ص: 144 / 117 . ابن منصور : قبائل المغرب ، ج : 1 ، ص: 430 . ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص ص: 216 / 219 .

أما مرداس (1) ،فمنهم أولاد جامع الذين اختصوا بولاية قومهم بني عوف، لدى السلطان الحفصي . وقد تمكن السلطان أبي زكرياء من بث روح الفرقة والشنآن بينهم وبين اخوانهم بني علاق ،مما ادى بشيخ مرداس عنان بن جابر الى الهجرة الى بني عبد المؤمن بمراكش محرضا اياهم على آل أبي حفص، وقد اضطرب أمر مرداس بعد وفاة الامير أبي زكرياء الحفصي ،حيث تغلب عليهم اخوانهم بنو علاق واخرجوهم من تلول افريقية الى القفر .

د ـ هيب (2) :وهم ابناء بهثة بن سليم . ومواطنهم تقع في بلاد برقة عند العقبة الصغيرة المؤدية الى الاسكندرية . وهم يحتلون مواطن شاسعة ولكنهم خربوها ،وقضوا على المدن والممالك فيها وليس لهم وازع الا مشائخهم ، ويعيش بينهم من يخدمهم من العبيد واليهود ،و ينحصر عملهم تقريبا في الفلاحة والتجارة . والى جانبهم يتواجد قوم من فزارة وبني رواحة وهم قليلون . والرئاسة في تلك الديار لهيب ،لغلبتها ،وكثرة عصابتها . ومن عشائر هيب في تلك الديار: شماخ ذات العصبية والثروة ،وبنو لبيد ،وشمال،ومحارب .

والى جوار قبيلة دباب ببرقة من ناحية الجنوب احياء أخرى من العرب(3) وهم :

أ ـ ناصرة ،وينتسبون الى ناصرة بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة ابن سليم . وتقع مواطنهم ببلاد فزان وودان .

ب ـ والعزة ،ونسبهم في العرب غير معروف . وثمة من يزعم بأنهم من الكعوب تخلفوا في ديار برقة عن اخوانهم كما يزعم نسابة هلال أنهم من ربيعة .

---

(1) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ،مج : 6،ص: 145ـ147/ 148 ،أبوضيف : القبائل العربية في المغرب ،ص: 217 .

(2) ـ أنظر ابن خلدون : العبر ،مج : 6،ص: 143 / 144 ،القلقشندي : نهاية الأرب، ص: 144 . المقريزي : البيان والاعراب ،ص: 40 . ابن منصور : قبائل المغرب ،مج : 1 ،ص: 430 / 431 ،أبوضيف : القبائل العربية في المغرب ،ص: 215 .

(3) ـ أنظر أبوضيف : القبائل العربية في المغرب ،ص: 221/ 224 .

ابن عامر أخوة هلال .ويرى آخرون بأنهم من أحياء مسراتة من هوارة . ومواطنها الحزة في برقة ضمن قارها الخالية ،حيث كانوا يتعاطون بعض النشاطات الفلاحية ذات الطابع البدائي ، كما يظعنون قصد النجعة في بلاد النخيل الجنوبية حيث الواحات والرمال ، وقد يصل بهم الظعن حتى بلاد السودان . وكانوا يكرمون الحجاج ولا يتعرضون لهم بأذى (على خلاف قبيلة شباخ من هيب التي كان افرادها يؤذون الحجاج) .(1) وشيخهم في عهد ابن خلدون من بيت بني جعفر وهو أبو ذئيب.

ج – بنو فزارة (2) : وهم من ابناء فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث ابن غطفان . إنضموا في البداية الى حلف بني سليم،وانتشروا معهم في ربوع برقة وطرابلس،وبالتالي افريقية والمغرب . ويبدوا أنهم نقلوا حلفهم بعد ذلك الى المعقل حيث تمكنوا بواسطة ذلك الحلف من التغلغل في الصحراء جنوبا .

د – بنو رواحة : وهم من غطفان أيضا . وديارهم مع بني فزارة ببرقة .

هـ – بنو طبة : وهم ابناء عقبة بن مخزمة بن حزام . ومواطنهم بجهات طرابلس، ويوجد بعضهم بأفريقية .

و – أولاد حجير : وديارهم باطراف قابس في طريق صفاقس، ونسبهم غير معروف .

ز – بنو عدوان : وهم ابناء عدوان بن عمرو بن قيس . ويرى بعضهم انهم من الازد،ومنهم ظواعن في طلب النجعة .

ط – بنو الاشعوب : وهم من بني حسان بن عمرو الحميري . انتقلوا الى بلاد المغرب ،فاصبحوا يعرفون باسم الاشعوب .

ي – أولاد صورة : وعددهم قليل . ومواطنهم مجاورة لمواطن آل حجر والكعوب مايلي بشرى .

---

(1) – العبر ، مج :6،ص:144 . مصطفى ابو ضيف : القبائل العربية في المغرب، ص:221 .

(2) – ابن خلدون : العبر ،مج :6،ص:144 . مصطفى ابوضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص ص:222/223 .

٢٨٤١٧٣

تلك هي أهم القبائل الامازيغية والعربية التي تنشر في ربوع المغرب من اقصاه الى ادناه . وقد اقتصر الحديث عن اشهر القبائل التي تركت آثارا معلومة بهذه الديار خاصة خلال الفترة الزمنية المخصصة لهذا البحث . وفيما يلي يتم البحث عن أثر القبلية على النظم الاقتصادية .

UNIVERSITE D'ALGER

INSTITUT D'HISTOIRE

l'açabya tribale et son influence sur les institutions et les relations dans le maghreb islamique du VI^{ème} au IX^{ème} siècle de l'hégire

SOUTENANCE DE THESE

DE MAGISTER EN HISTOIRE ISLAMIQUE

présenté par

BOUZIANI Derradji

Sous la direction du Professeur: Dr. MOUSSA LAKBAL

I

ANNEE UNIVERSITAIRE

1987 - 1988